



كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي
قسم الدراسات الإسلامية

مباحث في علوم القرآن الكريم

أ. د. زياد علي دايح الفهداوي - أ. د. محمد أحمد الخولي
د. شريف عبد العليم




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

قسم الدراسات الإسلامية

مباحث في علوم القرآن الكريم

إعداد:

أ. د. زياد علي دايح الفهداوي أ. د. محمد أحمد الخولي

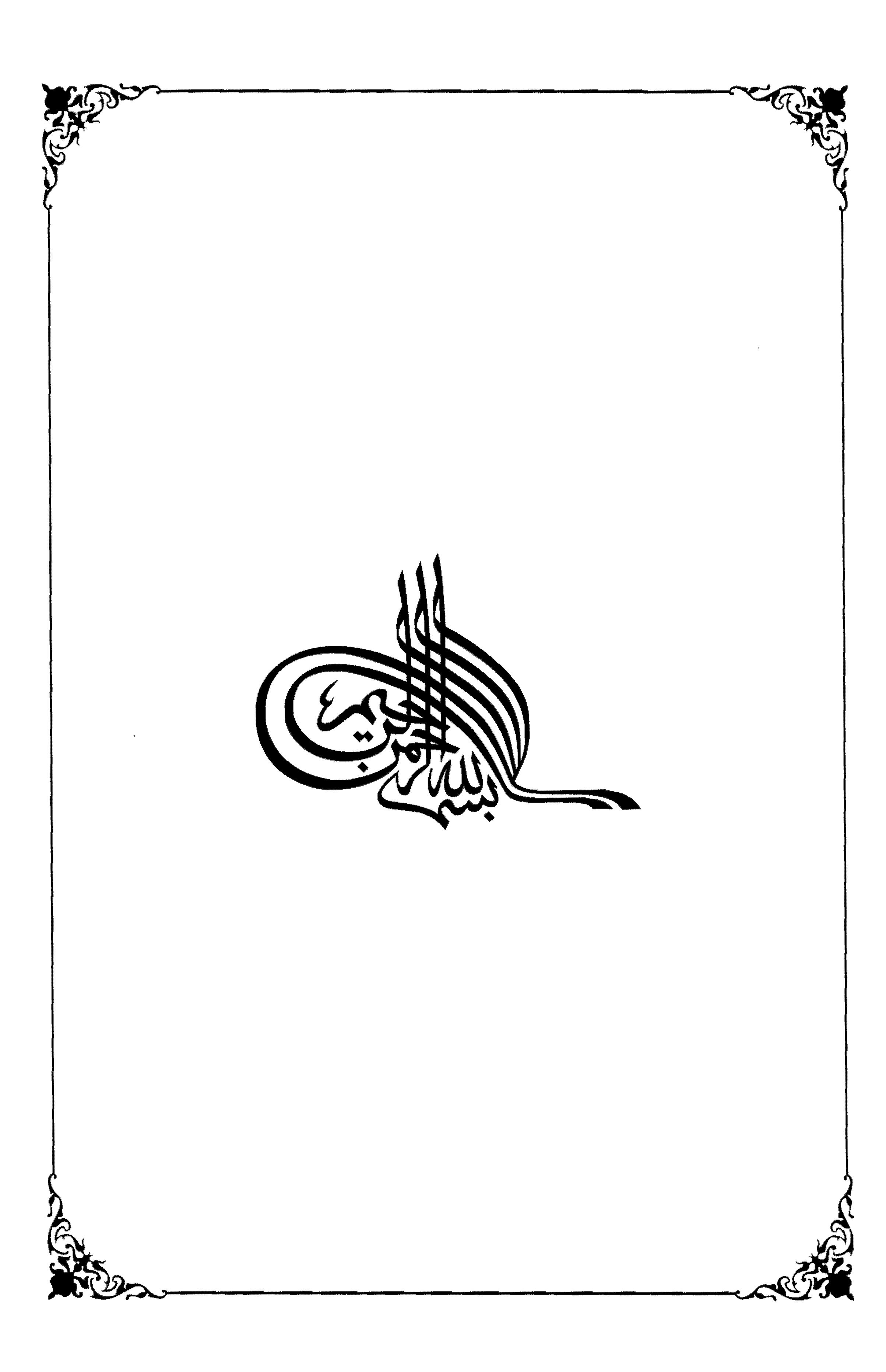
د. شريف عبد العليم

الطبعة الأولى

٢٠١٨ - ٢٠١٩ م

ISBN978-9948-39-687-1

العنوان: **مباحث في علوم القرآن الكريم**
تأليف: أ. د. زياد علي دايح الفهداوي، أ. د. محمد أحمد الخولي، د. شريف عبد العليم
الطبعة الأولى: 1440/1439هـ – 2019/2018 م
طباعة ونشر: كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الكرامة – شارع زعبيل،
ص. ب: 50106، دبي، الإمارات العربية المتحدة،
هاتف: 97143961777 +، فاكس: 97143961314 +،
الموقع الإلكتروني: www.islamic-college.ae
الترقيم الدولي للكتاب: ISBN978-9948-39-687-1


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.... وبعد.

فإنّ القرآن الكريم كتاب: هداية ومشكاة نور ومنهج حياة، بيّن الله فيه للناس ما يجب لهم وما يجب عليهم، وما يحل لهم وما يحرم عليهم، وذلك في قواعد كلية، تندرج تحتها فروع لا تنحصر من الأحكام التي لا غنى لهم عنها في أي عصر من العصور.

فما من صغيرة ولا كبيرة يحتاج الناس إليها إلا شملها تشريعه، ووسعها بيانه. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

لهذا كان من الواجب على كل مسلم، آمن بالله وكتبه ورسله أن يتدبر معانيه ويتفقه فيه، ويتعلم منه أحكام دينه وأمور دنياه، ويرجع إليه في كل قضية من قضاياه الخاصة والعامة، ويجعله ربيع قلبه وأنيسه في وحشته، وإمامه في حله وترحاله.

وانطلاقًا من هذا الواجب، بذل العلماء من الصحابة والتابعين جهدهم في حفظه ومدارسته، واستخلاص ما فيه من العظات والعبر، واستنباط ما تضمنته آياته من الأحكام التكليفية من عقائد وعبادات ومعاملات، مسترشدين فيما غمض عليهم فهمه بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، فقدموا لطلاب الدين والدنيا تراثًا حافلاً، لا ينضب معينه من أنواع العلم وألوان المعرفة، وفتحوا لهم أبوابًا واسعة للتأمل والنظر فيما جد ويجد من شؤون الحياة.

وبين أيدينا من هذا التراث الخالد ما لا يكاد يحصى في شتى العلوم، ومختلف الفنون، وكلها لا غنى عنها، لمن يريد فهم أحكام الدين بوجه خاص وشؤون الدنيا بوجه عام.

فأفضل ما تجب العناية به، والاهتمام بمدارسته ومعايشته: هو كتاب الله عز وجل، فهو كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه ولا يمله قارئه ولا سامعه، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن عمل به آجر، ومن هدي إليه، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

ولما كانت «علوم القرآن الكريم» هي طوائف المعارف المتصلة بالقرآن، والتي تعين على فهمه، والوقوف على بعض أسراره حسب ما يفتح للبشر، فقد حاولنا في هذه الدراسة المعنونة ب «مباحث في علوم القرآن» أن نقدم وصفًا لهذا المصطلح «علوم القرآن الكريم» وذلك بإيجاز غير مخل.

الدراسات السابقة:

وبالرغم من وجود دراسات سابقة كثيرة ومفيدة على هذا الجهد المتواضع، إلا أن هذه الدراسة أعدت لتكون مناسبة لطلبة الأقسام الشرعية، وفيما يلي أهم الدراسات السابقة حول القرآن الكريم:

١. مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم: للدكتورمحمد محمد أبو شهبة.

٣. مباحث في علوم القرآن: للدكتورصبحي الصالح.

٤. لمحات في علوم القرآن، تأليف الشيخ محمد الصباغ.

٥. مدخل إلى علوم القرآن والتفسير للدكتور فاروق حمادة.

وقد راعى المصنفون المناهجَ العلمية في إعداد الكتاب، فكان المنهج الاستقرائي الغالب على الكتاب، مع الاستعانة بالمنهج التحليلي والاستنباطي، مع الأخذ في الاعتبار، أن هناك أدوات قد استخدمت في تطبيق المناهج العلمية،

مثل: تخريج الأحاديث النبوية تخريجا علميا، وإثبات الآيات القرآنية بالصورة العثمانية، وتوثيق المعلومات توثيقا علميا؛ بالاعتماد على المراجع الأصيلة.

كما راعى المصنفون أن تكون خطة الكتاب مناسبة لموضوعاته فجاءت في تمهيد وبابين، وقد انقسم البابان إلى مجموعة من الفصول، على النحو التالي:

المشتملات:

التمهيد: وفيه تمت دراسة كلمة (قرآن) من حيث الاصطلاح، ثم مصطلح «علوم قرآن» من حيث النشأة والتطور، ثم بينا أسماء القرآن الكريم وأوصافه، ثم أسماء سوره والفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي وذلك من خلال مباحث.

الفصل الأول: الوحي وفيه: (تعريفه، كيفيته، صوره).

الفصل الثاني: نزول القرآن الكريم وفيه: (نزوله جملة ومفرقًا والحكمة من ذلك، نزوله على سبعة أحرف وأقوال العلماء في ذلك، الحكمة، فوائد اختلاف القراءات).

الفصل الثالث: المكي والمدني وفيه: (التعريف، الصفات والضوابط).

الفصل الرابع: جمع القرآن وترتيبه (مراحل الجمع، وصفات كل مرحلة) وفيه أيضًا: ترتيب الآيات والسور، الرسم العثماني.

الفصل الخامس: أسباب النزول وفيه: (اهتمام العلماء بأسباب النزول، تعريف السبب، عموم اللفظ وخصوص السبب، فوائد معرفة أسباب النزول).

الفصل السادس: المحكم والمتشابه وفيه: (التعريف، أقوال العلماء، الحكمة من المتشابه)

الفصل السابع: الناسخ والمنسوخ وفيه: (التعريف، أقسام النسخ، أنواع النسخ، الحكمة).

الفصل الثامن: القصص في القرآن الكريم وفيه: (تعريفها، أنواعها، القصة القرآنية حقيقة لا خيال، نقد لمذهب هدام).

الفصل التاسع: المثل في القرآن الكريم وفيه: (أهمية المثل، أقسام المثل).

الفصل العاشر: القسم في القرآن الكريم وفيه: (الغاية من القسم، أنواع القسم، حذف جواب القسم).

الفصل الحادي عشر: الجدل في القرآن الكريم وفيه: (تعريف الجدل، طريق القرآن في الجدل)

الفصل الثاني عشر: فواتح وخواتيم السور والمناسبات.

الفصل الثالث عشر: إعجاز القرآن الكريم وفيه: (التعريف، وجوه الإعجاز العلمي، البلاغي، التشريعي).

الفصل الرابع عشر: مصطلح «علم تفسير القرآن، وفيه: (تاريخ التفسير- تطوره، وأقسامه، مصادر التفسير وأهم المؤلفات فيه).

وقد حاولنا في كل ما سبق أن نقدم المعلومة سهلة ومبسطة؛ كي يتمكن طلابنا الأعزاء من الاستفادة من كل ما قُدم، كما راعينا توثيق المعلومات لمن أراد الاستزادة، كل ذلك اشتمله منهج مبسط أكاديمي، مرتب على حسب الأصول العلمية.

نضرع إلى الله عز وجل أن يحقق للمسلمين النجاح والتوفيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

المؤلفون

الأهداف العامة لدراسة مقرر «مباحث في علوم القرآن».

يتوقع من الدارسين لهذا المقرر:

أولا: أن يتعرفوا على مصطلحي «القرآن الكريم» و «علوم القرآن الكريم»، كما يتعرفون على أسماء القرآن وصفاته وأقسامه.

ثانيا: أن يقفوا على صور الوحي وطرق إثباته، والفرق بين القرآن المكي والمدني، وكيفية نزول القرآن وجمعه وتدوينه.

ثالثا: أن يتعرفوا على أسباب النزول، وضوابطه، وهل لكل آية سبب، وما فوائد معرفة الأسباب؟

رابعًا: أن يدركوا معاني المحكم والمتشابه، وماذا تعني مصطلحات: النسخ وأنواعه، والقسم والجدل في القرآن.

خامسًا: أن يتعرفوا على القصص القرآني، وما حكمته.

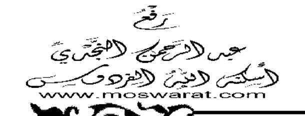
سادسًا: أن يدركوا ويستفيدوا من دراسة أوجه الإعجاز القرآني، وشروط المعجزة القرآنية.

سابعًا: أن يفرقوا بين مناهج المفسرين المتعددة لتفسير القرآن الكريم، كما يتعرفون على شروط المفسر وآدابه.

ثامنًا: أن يتعرفوا على مجموعة من التفاسير، ذات المناهج المختلفة.

تاسعا: القدرة على الرد على الشبهات المثارة حول القرآن وعلومه.

عاشرا: الاستفادة من مباحث العلوم القرآنية في المناهج الدراسية.



التمهيد

وفيه مباحث:

المبحث الأول: علوم القرآن.... التعريف والنشأة والتطور.

المبحث الثاني: القرآن الكريم... أسماؤه وأوصافه (وسوره).

المبحث الثالث: الحديث القدسي: تعريفه، والفرق بينه وبين القرآن الكريم.

التمهيد

المبحث الأول: علوم القرآن.... التعريف والنشأة والتطور

المطلب الأول: تعريف علوم القرآن:

علوم القرآن، مركب إضافي جاء علمًا على هذا العلم الذي نحن بصدد دراسته، ولفهم هذا المركب لابد من تعريف جزئيه

أولا: تعريف كلمة «علوم»:

علوم جمع علم، قال ابن فارس: «الْعَيْنُ وَاللامُ وَالْمِيمُ» أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَالْعِلْمُ: نَقِيضُ الْجَهْلِ»[1].

والعلم في الاصطلاح: «هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم»[2].

ثانيًا: تعريف كلمة «قرآن»

القرآن في اللغة: مصدر كالغفران، تقول: قرأ قراءة وقرآنا بمعنى واحد[3]، ثم صارت بعد المصدرية، اسم علم يطلق على النظم الكريم، وهذا هو الغالب.

أما القرآن في الاصطلاح: «هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه[4].

١- مقاييس اللغة، لابن فارس، ٤ / ١٠٩.

٢- التعريفات، للجرجاني، ١٥٥.

٣- لسان العرب، لابن منظور، ١ / ١٢٨، مادة (قرأ) المصباح المنير، للفيومي، ص٢٥٩، مادة)قرأ).

٤- عرف العلماء القرآن الكريم بتعريفات عدة، أطنب بعضهم، وتوسط آخرون، وأوجز البعض من حيث ذكر الخصائص والإعجاز والتواتر والكتابة. ينظر هذه الآراء في: مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٩- ٢٠.

تعريف علوم القرآن بالمعنى الإضافي:

هو مجموعة المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءاته، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وإعجازه، ...[1] إلخ.

فضله: إن شرف العلوم بشرف موضوعها، وموضوع علوم القرآن هو القرآن الكريم، وعليه، فعلوم القرآن الكريم من أفضل العلوم وأشرفها وأسماها، كما قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»[2].

فائدته: لا نخطئ التعبير إن قلنا: إن علوم القرآن، تعد مفتاح التفسير، إذ لا يستطيع أحد أن يلج إلى التفسير إلا بهذا العلم، فلا بد للمفسر من التسلح بعلوم القرآن الكريم، ليستطيع الولوج إلى التفسير، والدفاع عن كتاب الله، ودحض الشبهات التي يثيرها الأعداء وغيرهم حول ساحته.

المطلب الثاني: نشأة علوم القرآن:

لهذا العلم مرحلتان:

الأولى: ما قبل التدوين:

كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم على دراية تامة بعلوم القرآن، فقد أقبلوا على القرآن الكريم منذ نزوله، تلاوة وحفظًا ودراسة وتدبرًا، وكانوا يفهمون القرآن الكريم بسليقتهم العربية، فقد كانوا عربًا خلصًا، وهبهم الله ملكة تامة للحفظ، وذكاء في القريحة، فكانوا يزنون الكلام ويتذوقون البيان، فضلاً عن ملازمتهم لدروس الرسول ﷺ كما تبين الأحاديث. وتدلل لنا الأخبار التالية على أن الصحابة كانوا على دراية تامة بعلوم القرآن.

١- ينظر: المصدر السابق، ١ / ١٣٣.

٢- زاد المسير، لابن الجوزي، ١ / ٣.

فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ[1]. فقوله (تعلم)، (ويعرف) دليل واضح على طريقة التعلم والفهم ومصدرهما.

وروى أبو عبد الرحمن السلمي[2] قال: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ، كَانُوا يُقْرِؤُنَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَقْرِئُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَات، لَمْ يَخْلُفُوهَا حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»[3]. وفي ذلك إشارة واضحة للتعلم بمرحلتيه النظرية والعملية.

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وَالَّذي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلا وَأَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ أُنْزِلَتْ، وَلا آيَةٌ وَأَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[4].

ويقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وهو على المنبر: «سَلُونِي فَوَاللَّهِ لا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلا وَأَنَا أَعْلَمُ بِلَيْلٍ نَزَلَتْ أَمْ بِنَهَارٍ وَأَمْ فِي سَهْلٍ، أَمْ فِي جَبَلٍ»[5].

فهذه الأخبار وغيرها تثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على دراية تامة بعلوم القرآن ومعارفه.

وبهذا يتضح لنا: أن علوم القرآن ظهرت منذ نزل القرآن على الرسول ﷺ، وعلى رأس هذه العلوم: علم التفسير.

١- تفسير الطبري: ١ / ٨٠. وقال الشيخ أحمد شاكر: "إسناده موقوف على ابن مسعود".

٢- هو: أبو عبد الرحمن السلمي، عبد الله بن حبيب، من قراء القرآن وأهل الورع في السر والإعلان. مات سنة أربع وسبعين. مشاهير علماء الأمصار، ص١٦٤.

٣- المصدر السابق، وقال الشيخ أحمد شاكر: "هذا إسناد صحيح متصل".

٤- صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ٦ / ١٨٧، ح٥٠٠٢.

٥- تفسير عبد الرزاق ٣ / ٢٣٤، ح٢٩٧٠.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعتمدون على المشافهة في تعلُّم علوم القرآن الكريم، ولم يدونوا شيئًا من هذه العلوم، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[1]:

١- أغلب الصحابة كان أميا، لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

٢- أن الرسول ﷺ نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»[2].

الثانية: عهد التدوين:

في هذا العهد بدأ تدوين العلوم، وكان أول علم يدوّن هو علم التفسير، وقد دوّن في أول أمره على أنه باب من أبواب الحديث، وممن دونه في هذه المرحلة: يزيد بن هارون السلمي «ت١١٧هـ»، وشعبة بن الحجاج «ت١٦٠هـ» ووكيع بن الجراح «ت١٩٧هـ»، وسفيان ابن عيينة «ت١٩٨هـ»، وغيرهم، وكان جمعهم للتفسير جمعًا لباب من أبواب الحديث.

ثم دون التفسير مستقلاً، ويأتي على رأس المدونين العلامة محمد بن جرير الطبري «٣١٠هـ»، فيعد تفسيره للقرآن من أقدم ما وصل إلينا كاملا شاملا، جمع فيه صاحبه ما ورد عن الصحابة والتابعين، ووجه الأقوال، ورجح بعضها على بعض، وأورد أسباب النزول، وذكر الإعراب، والأحكام...وغير ذلك.

وقد اتجهت همم كثير من العلماء إلى التدوين في بعض مباحث علوم القرآن، وإليك بعض هذه المؤلفات:

١. ألف الحسن البصري (ت١١٠هـ) في «القراءة».

٢. وعطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ) في «غريب القرآن».

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ٢٤٦، دراسات في علوم القرآن، للرومي، ص٣٣.

٢- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت فِي الحديث وحكم كتابة العلم، ٨/ ٢٢٨، ح٣٠٠٤.

٣. وقتادة بن دعامة السدوسي (ت١١٧هـ) في «الناسخ والمنسوخ».

٤. وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت١١٨هـ) «المقطوع والموصول».

٥. وعلي بن المديني (ت٢٣٤هـ) في «أسباب النزول».

٦. وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) «تأويل مشكل القرآن».

المطلب الثالث: ظهور اصطلاح علوم القرآن:

إذا كان اصطلاح علوم القرآن يطلق على: مجموعة العلوم التي تخدم القرآن الكريم، كعلم أصول التفسير، والقراءات، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وأسباب النزول، والرسم العثماني وإعجاز القرآن.. وغير ذلك. وهذه العلوم، وإن كانت قد ظهرت في وقت مبكر، إلا أنها لم تجمع في كتاب واحد، وتظهر كفن مدوّن، إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري حين ألف محمد بن خلف بن المرزبان «ت٣٠٩هـ» كتابه «الحاوي في علوم القرآن»[1].

ثم توالت المصنفات في علوم القرآن ومن أهمها:

١. «المختزن في علوم القرآن»، لأبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ).

٢. «الأمد في علوم القرآن» لعبيد الله بن جرو الأسدي (ت٣٨٧هـ).

٣. «فنون الأفنان في علوم القرآن» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).

٤. «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ)، وهو كتاب فريد في نوعه، جميل في جمعه وترتيبه، اشتمل على سبعة وأربعين نوعًا من أنواع علوم القرآن، قال عنه مؤلفه: «ضمنته من المعاني الأنيقة والحكم الرشيقة ما يهز القلوب طربا ويبهر العقول عجبا، ليكون مفتاحا لأبوابه

١- دراسات في علوم القرآن، للرومي، ص٤١.

وعنوانا على كتابه معينا للمفسر على حقائقه ومطلعا على بعض أسراره ودقائقه»[1]، وهو من أفضل المؤلفات في علوم القرآن الكريم ومن أحسنها تنظيمًا وتبويبًا وأسلوبًا.

٥. «الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) وهذا الكتاب عمدة الباحثين والكاتبين في هذا الفن. ذكر فيه السيوطي: ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ثم قال: ولو نوعت باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة[2].

٦. وألف محمد عبد العظيم الزرقاني (ت١٩٤٨م) «مناهل العرفان في علوم القرآن» -رحمه الله- وهو كتاب حافل، غير أنه لم يستوعب أنواع علوم القرآن، إلا أنه أوسع فيه القول، وأطنب في بعض موضوعاته، ولا سيما في الرد على الشبه والمشكلات التي أثيرت حول «القرآن».

وقد انتعشت المصنفات القرآنية كثيرًا في السنوات الأخيرة بما يدعو إلى التفاؤل وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ومن أهم هذه المؤلفات:

١. علوم القرآن، للدكتور، عدنان زرزور.

٢. دراسات في علوم القرآن، للدكتور فهد الرومي.

٣. دراسات في علوم القرآن، للدكتور محمد بكر إسماعيل.

٤. علوم القرآن والحديث للشيخ أحمد محمد علي داود.

١- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١ / ٩.

٢- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٣١.

المبحث الثاني: القرآن الكريم أسماؤه وأوصافه (وسوره):

المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم:

بداية نقرر سؤالاً يمكن أن يطرح على مستوى التعريفات اللازمة لكل مصطلح، وهو هل نحن بحاجة حقيقية إلى معرفة لفظ القرآن؟ وألا يكفي في التعريف به أن نشير إلى ما بين دفتي المصحف ونقول: هذا هو القرآن؟ أو أن نقول: إن القرآن هو قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين... إلى أن نختم قولنا بآخر كلمات القرآن «..من الجنة والناس» سورة الناس.

ربما لم تكن هناك حاجة حقيقية لتعريف عامة المسلمين بالقرآن وتوقيفهم على مدلول هذا اللفظ بأكثر مما سبق، حيث يكفي المسلم العادي حين يسمع أو يقرأ كلمة «قرآن» أن يعرف أنها تعني ذلك المكتوب في المصحف المشار إليه، أو ذلك المقروء باللسان والمحفوظ في الصدور، ويكون بذلك قد وقع على تعريف القرآن تعريفًا تحديديًا. ولكن الحاجة تصبح ضرورية لدى المسلم الدارس، ليس من ضرورة أن لفظ القرآن من الكليات التي تحدها التعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول، ولكن من الضرورة تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه، مما قد يشاركه في الاسم ولو توهما، وبيان صفاته التي امتاز بها عن هذه الأنواع.

إن لفظ القرآن في اللغة - أصلاً - مصدر كالغفران، تقول: قرأ قراءة وقرآنا بمعنى واحد[1] قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٨] أي: قراءته.

ثم صار بعد مصدريته، اسم علم يطلق على النظم الكريم، وهذا هو الغالب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

١- لسان العرب، لابن منظور، ١ / ١٢٨، مادة (قرأ) المصباح المنير، للفيومي، ص٢٥٩، مادة)قرأ).

كما يطلق على الجزء منه بطريق الاشتراك اللفظي كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، يعني أي جزء منه، ولهذا صح أن يقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله: إنه قرأ قرآنا، ولمن قرأ ولو آية واحدة منه: إنه قرأ قرآنا، وعلى هذا يفهم قول الفقهاء مثلاً: تحرم قراءة القرآن على الجنب، فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على حد السواء.

ويطلق على النظم الرباني لفظ «الكتاب» كما في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١-٢]، وذلك لجمعه أنواعًا من القصص والآيات والأحكام والأخبار على وجه مخصوص. ومما هو معلوم أن تسمية النظم الرباني «بالقرآن» روعي فيه كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته «بالكتاب» كونه مكتوبًا، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أنه من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أي: حفظه في الصدور والسطور معًا، فلا بد من توافق الحفظين[1].

وقد عرف العلماء القرآن الكريم بتعريفات عدة[2]، وأفضل هذه التعريفات هو:

أن القرآن الكريم: «كلام الله المنزل على محمد ﷺ المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه».

دلالة التعريف[3]:

«فالكلام» جنس شامل لكل الكلام، وإضافته إلى الله تميزه عن كلام من سواه من الأنس والجن والملائكة.

١- ينظر: النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز ص ١٢ - ١٣، بتصرف.

٢- أطنب بعضهم، وتوسط آخرون، وأوجز البعض من حيث ذكر الخصائص والإعجاز والتواتر والكتابة. ينظر هذه الآراء في: مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٩-٢٠.

٣- ينظر: علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن، وبيان إعجازه، د. عدنان زرزور، ص٤٦-٤٧..

«المنزل» مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر؛ إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً، بل الذي أنزل منه قليل من كثير.

«على محمد ﷺ» أي بلفظه ومعناه، مخرج ما نزل على غيره كالتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وما نزل بمعناه كالأحاديث القدسية.

«التواتر» ما رواه جمع عن جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، ويدخل ضمن ما تواتر القراءات العشر، وتخرج القراءات الشاذة ولا تسمى قرآنا.

«المتعبد بتلاوته» أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة والذكر، ولإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من منسوخ التلاوة والأحاديث القدسية المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا: إنها منزلة من عند الله بألفاظها، فإن قلنا: إنها منزلة بمعناها فحسب فهي خارجة بالقيد الأول، فلا تعتبر كلامًا لله من حيث كانت ألفاظها من عند رسول الله ﷺ، فهي حرية أن تنسب إليه؛ لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه الذي ألفه على نحو خاص، ولو كان فيه من المعنى من خارج نفسه.

«المتحدى بأقصر سورة منه» لأنه معجز للبشر، فقد طلب من العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا عن الإتيان بها. وصدق الله تعالى﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

المطلب الثاني: أسماء القرآن الكريم:

بلغت أسماء القرآن عند كثير من العلماء أكثر من تسعين اسمًا، وعند البعض الآخر خمسًا وخمسين[١]، وأرى أن هذا العدد ما بين أسماء وصفات للقرآن وربما أدخلت الأسماء في الصفات. وعلى جميع الأحوال، فالأمر فيه سعة فمن نطق

١- ينظر: البرهان للزركشي١ / ٢٧٣، لطائف الإشارات للقسطلاني١ / ١٨، الإتقان، للسيوطي، ١ / ٦٧.

الاسم يريد الصفة فلا بأس، وهذه بعض الأسماء:

١- القرآن: قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

٢- الكتاب: قال تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٣- الذكر: قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

٤- الفرقان: قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١].

٥- «التنزيل»، قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

المطلب الثالث: أوصافه:

وصف الله تعالى القرآن الكريم بأوصاف كثيرة، وكل وصف من هذه الأوصاف يدل على معنى من المعاني التي تضمنها القرآن الكريم، منها:

١- «عربي، وبشير، ونذير» قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فصلت: ٣ - ٤].

٢- و «هدى» و «شفاء» و «رحمة» و «موعظة» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس ٥٧].

٣- و«نور»: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[النساء ١٨٤].

٤- و «بشرى».. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٩٧].

٥- و «عزيز».. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت ١٥].

٦- و «مبارك».. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام ٩٢].

٧- و «مجيد».. ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ [البروج ٢١].

المطلب الرابع: سور القرآن:

السورة: تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من أسأرت: أي أفضلت، وكأنها قطعة من القرآن. ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزها. ومنهم من يشبهها بسور البناء: أي القطعة منه. وقيل: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها. وقيل: لارتفاعها: لأنها كلام الله والسورة المنزلة الرفيعة. وقيل: لتركيب بعضها على بعض، ومن التسور بمعنى التصاعد والتركيب. إلى غير ذلك من الأقوال[1].

و يمكن تعريفها اصطلاحا:

قال الجعبري: السورة بعض قرآن يشتمل على آي، ذي فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات.

وقيل: السورة الطائفة المترجمة توقيفًا، أي الطائفة من القرآن المسمّاة باسم خاص بتوقيف من النبي صلّى الله عليه وسلم.

وقيل: السورة بعض من كلام منزّل مبين أوله وآخره، إعلامًا من الشارع، قرآنًا كان أو غيره[2].

وقيل: إنها طائفة مستقلة من آيات القرآن، ذات مقطع ومطلع، وهي مأخوذة من سور المدينة؛ وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية، كالسور توضع كالبنة فيه بجانب لبنة، ويقام كل صف منه على صف[3].

وسور القرآن أقسام أربعة هي:

أ- السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف،

١- لسان العرب، ابن منظور،، ٤ / ٣٨٤، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣ / ٣٦، الإتقان، للسيوطي، ١ / ٦٩.

٢- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، ١ / ٩٨٩.

٣- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٣٢٠-٣٢٤.

والسابعة قيل: الأنفال وبراءة؛ لأنهم كانوا يعدونهما سورة واحدة لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل: السابعة يونس.

ب - المئون: التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

ج - المثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات، سميت بذلك؛ لأنها تثني في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين.

د - المفصل: وفيه خلاف؛ فمن قائل: من أول سورة «ق» وقيل: من أول «الحجرات» وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقلة المنسوخ فيه، ولذا يسمى المحكم أيضًا.

وهو ثلاثة أقسام: طوال وأوساط وقصار. فطواله من أول «الحجرات» إلى سورة «البروج» وأوساطه من سورة «الطارق» إلى سورة «لم يكن» وقصاره من سورة «إذا زلزلت» إلى آخر القرآن[1].

تنبيه: تحديد أوائل هذه الأقسام وأواخرها باجتهاد من العلماء.

أسماء السور:

قد يكون للسورة من القرآن الكريم اسم واحد وهو كثير.

وقد يكون لها اسمان فأكثر، وكثرة الأسماء ترجع لبعض المعاني الخاصة بالسورة القرآنية، وهذا شبيه بفعل العرب.

فالفاتحة لها أسماء كثيرة: منها فاتحة الكتاب، أم القرآن، أم الكتاب، السبع المثاني، الكافية، الواقية، الشافية، سورة المناجاة، الوافية، الكنز، إلى غير ذلك من الأسماء.

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٧٥، الفوز الكبير في أصول التفسير، للدهلوي، ص١٤٠، دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ص١٠٧، محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري، ص٧٥.

وسورة المائدة تسمى: سورة العقود.

وسورة الأنفال تسمى: سورة بدر.

وسورة النحل تسمى: سورة النعم.

وسورة الشعراء تسمى: سورة الجامعة.

وسورة النمل تسمى: سورة سليمان.

وسورة غافر تسمى: سورة المؤمن.

وسورة الرحمن تسمى: عروس القرآن.

وسورة الطلاق تسمى: النساء الصغرى.

وسورة عم يتساءلون تسمى: النبأ والتساؤل.

وسورة الفلق، والناس، تسميان «المعوذتان».

وقد سميت سور بأسماء الأنبياء وذلك؛ لأن السور احتوت قصصهم مثل سورة نوح وسورة هود وسورة إبراهيم ويونس ويوسف.

وهناك أقوال كثيرة وتأويلات حول أسماء السور القرآنية كلها تحتاج إلى مستند من الأثر، فلذا ابتعدنا عنها[1].

المطلب الخامس: هل تسمية السور القرآنية توقيفية أم اجتهادية؟

للعلماء في ذلك قولان:

الأول: ذهب كثير من العلماء إلى أن تسمية السور توقيفية، ومن هؤلاء

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٧٠ وما بعدها.

الطبري[1]، والزركشي[2]، والسيوطي[3] وغيرهم

واستدلوا على ذلك بتسمية النبى ﷺ لبعض السور، كفاتحة الكتاب، وسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، وغيرها.

الثاني: أن أسماء السور اجتهادية، ولعلهم اعتمدوا فى هذا على عدم ورود اسم كل سورة من طريق التوقيف، وإن وقع هذا لبعض السور.

والذي نميل إليه هو أن أسماء السور على ثلاث مراتب:

١- منها ما ثبت تسميته عن النبي ﷺ.

٢- منها ما ثبت تسميته عن الصحابة، مثل ما ورد في صحيح البخاري أن سعيد بن جبير قال: «سألت ابن عباس عن سورة الأنفال، فقال: تلك سورة بدر»[4]، فسماها ابن عباس سورة بدر.

٣- منها ما ثبت عمَّن دون الصحابي بدءًا من التابعين إلى يومنا هذا، ومما يلحظ أنه يغلب عليها أن تسمى ببدايات السورة، مثل: سورة (لم يكن)، سورة (أرأيت)، سورة (عم) وهكذا، والاصطلاح على تسمية سورة باسم جائز؛ لأنه لم يرد نهي من النبي ﷺ في ذلك، وما زال العمل عند المسلمين على هذا من عهد الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا، فليس في هذا إشكال ولا نكير[5].

١- جامع البيان، للطبري، ١ / ١٠٠.

٢- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١ / ٢٧٠.

٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ٢ / ٢٧٦.

٤- صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، ٤ / ٢٣٢٢، ح٣٠٣١.

٥- شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ص٦٣، المحرر في علوم القرآن، مساعد بن سليمان، ص١٧٠.

المبحث الثالث: الحديث القدسي.

المطلب الأول: تعريفه، ووجه التسمية:

هو ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله تعالى[1].

وجه التسمية: سمي بالحديث نظرًا؛ لأن الرسول ﷺ هو الحاكي له.

وسمي بالقدسي: نسبة إلى القدس، وهو الطهر، والتقديس: التطهير، ومنه قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2] [البقرة: ٣٠]، وقَالَ الزَّجاجُ: معنى نُقدِّسُ لَكَ، أي: نُطهِّرُ أنفُسنا لَكَ[3].

والأحاديث القدسية: تقديس الله وتنزيه ذاته العلية عن النقائص وما لا يليق به سبحانه.

مثاله: ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[4].

وإليك مجموعة من الحقائق قبل أن نشرع في إبراز الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

أ- لا خلاف بين العلماء جميعًا في أن لفظ القرآن الكريم ومعناه من عند الله تعالى، أنزلهما على الرسول ﷺ بواسطة الوحي مشافهة ومدارسة.

ب- لا خلاف أيضًا في أن معنى الحديث القدسي من عند الله تعالى، أنزله على الرسول ﷺ بواسطة الوحي مشافهة أو بوحي الإلهام.

١- تحرير علوم الحديث، للجديع، ١ / ٣٧.

٢- سورة البقرة آية (٣٠).

٣- لسان العرب، لابن منظور، ٦ / ١٦٨، المعجم الوسيط ٢ / ٧١٩.

٤- صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ٤ / ١١٨، ح ٣٢٤٤.

ج- كل ما صدر عن الرسول ﷺ فمعناه من عند الله تعالى، سواء كان قرآنًا أم حديثًا قدسيًا أم نبويًا، إلا أن القرآن الكريم لفظه من عند الله تعالى، كما أن الحديث النبوي لفظه من عند الرسول ﷺ.

المطلب الثاني: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

١. القرآن الكريم تعبدنا الله تعالى بتلاوته، بخلاف الحديث القدسي.

٢. القرآن الكريم كلام الله لفظًا ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله ولفظه من النبي ﷺ.

٣. القرآن معجزة باقية على مر العصور، محفوظة من التغيير والتبديل، بخلاف الحديث القدسي فليس فيه معنى الإعجاز، إذ لم يثبت بشأنه التحدي والإعجاز.

٤. القرآن الكريم ثبت بطريق التواتر فهو قطعي الثبوت، أما الحديث القدسي فمنه الصحيح والضعيف والموضوع.

٥. القرآن لا يضاف إلا إلى الله تعالى، بخلاف الحديث القدسي فقد يضاف إلي الله، وقد يضاف إلى الرسول ﷺ؛ لأنه المخبر به عن الله عز وجل.

٦. القرآن لا تجوز روايته بالمعنى ولا يجوز تبديل حرف بحرف آخر بخلاف الحديث القدسي فيجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين[١].

٧. القرآن الكريم جاحده كافر، بخلاف الحديث القدسي فجاحده غير كافر.

١- فالحديث القدسي في ذلك كشأن الحديث النبوي الذي تجوز روايته بالمعنى بشرط أن يكون الراوي عالمًا بقواعد اللغة العربية، وأن يكون عالمًا بمدلولات الألفاظ ومقاصدها.
ينظر: الكفاية، للخطيب البغدادي، ص٢٥٩ وما بعدها، أصول السرخسي١ / ٣٥٥، الإلماع، للقاضي عياض ص١٧٩، المحدث الفاصل، الرامهرمزي، ص ٣٤٨-٣٥٠، الرسالة، للشافعي، ص ١٧٤، تدريب الراوي، للسيوطي ٢ / ١٠٠، نصب الراية للزيلعي، ٤ / ٢٠٠.

٨. القرآن الكريم لا تجوز الصلاة إلا به، بخلاف الحديث القدسي إذا قرئ شيء منه في الصلاة فأبطلها.

٩. القرآن الكريم، الجملة منه تسمى آية وعدد مخصوص من الآيات يسمى سورة، بخلاف الحديث القدسي، فلا تسمى الجملة منه آية، ولا المقدار المخصوص من الجمل منه سورة[1].

أسئلة للمناقشة

١. عرف علوم القرآن لغة واصحلاحًا، ثم وضح فضله.

٢. ما فائدة دراسة علوم القرآن.

٣. كان الصحابة على دراية بعلوم القرآن، دلل على ذلك.

٤. ما أسباب عدم تدوين الصحابة لعلوم القرآن؟

٥. متى ظهر اصطلاح علوم القرآن؟ ومن أول من ألف فيه.

٦. ما أهم المصنفات في علوم القرآن الكريم؟

٧. عرف القرآن، ثم اشرح التعريف.

٨. ماذا تعني كلمة «التواتر» في تعريف القرآن الكريم؟.

٩. ما أسماء القرآن الكريم؟

١٠. لم سمي القرآن الكريم بهذا الاسم؟

١١. اذكر ثلاثة أوصاف للقرآن الكريم مع ذكر الدليل من القرآن الكريم.

١٢. ما أهم صفات القرآن الكريم، كما ذكرها الله تعالى.

١- ينظر: بيان المعاني، لابن ملّا حويش، ٢ / ٢٩٣، نفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد ص١٥.

١٣. اذكر المصطلح العلمي لما يأتي.

١٤. (................) بعض قرآن يشتمل على آي، ذو فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات.

١٥. وضح المراد بالمصطلحات الآتية:

السبع الطوال، المئون، المثاني، المفصل.

١٦. سميت سورة الفاتحة بأسماء عدة. اذكر خمسة منها.

١٧. هل تسمية السور القرآنية توقيفي أم اجتهادي؟، وضح آراء العلماء في ذلك مع بيان الراجح.

١٨. عرف الحديث القدسي، وبيّن وجه تسميته بالقدسي.

١٩. اذكر خمسة فروق بين الحديثالقدسي والقرآن الكريم.

الفصل الأول: الوحي

المبحث الأول: تعريف الوحي، كيفيته وصوره، إثباته

المطلب الأول: تعريف الوحي:

الوحي لغة: تستعمل كلمة الوحي في اللغة العربية في معنى أعم من مفهومها الشرعي الخاص بالنبوة، حيث تستعمل بمعنى الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك [1].

وهذا الاتساع في المعنى استخدمه القرآن على النحو التالي:

١- الإلهام الغريزي: كالوحي إلى النحل؛ قال الله تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨]

٢- الإلهام الفطري؛ كالوحي إلى أمّ موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧].

٣- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾[الأنعام: ١٢١].

٤- الإشارة السريعة على سبيل الرمز، كإيحاء زكريا عليه السلام لقومه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١].

٥- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[الأنفال: ١٢٦].

أما الوحي اصطلاحًا: فهو «إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي

١- مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٦، ص٧٠، لسان العرب، لابن منظور، ج١٥، ص٣٧٩، تاج العروس، للزبيدي، ٤٠/ ١٦٩.

ونحوه[1].

وقيل: إنه الإعلام الخفي السريع، الخاص بمن يوحى إليه، بحيث يخفى على غيره[2].

وقد روعي في وحي الله تعالى إلى أنبيائه، المعنيان الأصليان لهذه المادة، وهما: الخفاء والسرعة، ولهذا فإن معنى الوحي - شرعا - لا يتضمن أكثر من تكليم الله سبحانه لأحد عباده بطريق من طرق الوحي.

المطلب الثاني: كيفيته وصوره:

ما هي كيفية الوحي الذي يوحى إلى رسول الله ﷺ؟

إذا كان السؤال عن طبيعة الوحي وذاته، فالإجابة غير متوافرة؛ لأن الوحي نوع من الممارسة الذاتية لم تتوافر إلا للأنبياء، وبالإضافة إلى أن تجربة الوحي روحية خالصة، والروح وما يتصل بها من تجارب ووقائع هي في التصور الإسلامي من أمر الله كما نص القرآن ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

أما كيفيته التي تعني صوره ومظاهره، فهي كما وردت في الصحاح.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

فقد ذكرت هذه الآية صور الوحي وهي:

أ- النّفث في روع النبي، أو إلقاء الإلهام في قلبه على صورة غير مشكوك فيها

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٦٣، الواضح في علوم القرآن، مصطفى الديب، ص١٧، دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي، ص١٧٧.

٢- ينظر: الوحي المحمدي، رشيد رضا، ص٣٤.

أنها من عند الله. ويروي السيوطي أن رسول الله ﷺ قال: إن روح القدس كان ينفث في روعه الكلام نفثًا. كما روى أن الله كان يكلمه، كما حدث في ليلة الإسراء والمعراج.[1]

وهذه الصورة تتم بطريقتين:

الأولى: بالإلهام.

قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ[2]».

الثانية: بالرؤيا الصادقة.

ودليلها: قوله تعالى في شأن إبراهيم وولده إسماعيل: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وكما في حديث عائشة قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ به رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ..[3]

أي تحققت بصورة غاية في الوضوح.

ب- تكليم الله لأنبيائه من وراء حجاب

ودليل هذه الصورة: قوله تعالى في شأن «موسى» عليه السلام ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٥٩.

٢- مسند الشهاب، القضاعي٢ / ١٨٥، والإتقان، للسيوطي، ١ / ٥٩.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١ / ٧، ح٣، وكتاب التفسير، سورة العلق، ٤ / ١٨٩٤، ح ٤٦٧٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان- باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١ / ٩٧، ١٦٠.

ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ٩ - ١٤]

ج- الوحي بواسطة ملك، وله صورتان:

أ- أن يأتيه مثل صلصلة[1] الجرس.

ب- أن يتمثل له الملك رجلاً.

روت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[2].

فالأولى: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض، إن كان راكبها.

والثانية: أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلاً، فيخاطبه.

وكان جبريل عليه السلام يأتيه أحيانًا في صورة دحية بن خليفة الكلبي. وكان

١- قال الخطابي: وهو صوت متدارك يسمعه ولا يثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد. الإتقان، للسيوطي، ١ / ٥٩.

٢- صحيح البخاري، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، ١ / ٦، ح٢، ومسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البرد وحين يأتيه الوحي، ٧ / ٨٢، ح٢٣٣٣.

رجلاً جميلاً وسيما، وفي هذه الحالة كان يراه الصحابة أحيانًا.

وقد يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع مرتين كما ذكر الله سبحانه في سورة النجم وفي سورة التكوير، ففي صحيح مسلم عن مسروق قال: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ.

قُلْتُ: مَا هُنَّ؟

قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ.

قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي وَلا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ.

فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١]؟

قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] [المائدة، الآية ٦٧].

١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ ١ / ١٥٩، ح٢٨٧.

المبحث الثاني: إثبات وإمكان ظاهرة الوحي:

المطلب الأول: هل يمكن أن تتحقق ظاهرة الوحي؟

إن الإيمان بذلك يقتضي أولاً: الإيمان بالله الخالق وبعالم الغيب، ومن ثم كان من البدهي أن الجاحدين لوجود الخالق، المفسرين لوجود الكون تفسيرًا ماديًا أزليًا ينكرون عالم الغيب، ومن ثم ينكرون إمكان الاتصال به؛ لأنه عندهم حديث خرافة وأساطير ووهم لا حقيقة وراءه.

ويصور القرآن الكريم فكرتهم والحياة في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ولم تخرج دعوى المنكرين للوحي على مرّ العصور عن مجمل ذلك، وذلك لأنهم حصروا أفكارهم في الوجود المادي الذي يعايشونه.

وقد تعرض المنكرون للوحي وإمكانه على اختلاف عصورهم واتجاهاتهم إلى مختلف مظاهر الوحي وآثاره بمحاولة تفسيرها على نحو مادي يتمشى مع ما يؤمنون به من حصر الوجود والعلم به في هذا الكون المادي وفي عالم الحس الذي يعايشونه.

المطلب الثاني: أدلة إمكان الوحي وتقريبه للعقول:

١- «نقرر بوثوق: أن الوحي القرآني بإعجازه هو بنفسه دليل عقلي على مصداقيته، وذلك بما توافر له من براهين إعجازه بعد التحدي به وإعلان عجز الثقلين عن الإتيان بمثله، وصدق الله القائل في كتابه المعجز: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢- إن المعاصرين للوحي شاهدوا مظاهره، ونُقِلَ بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم القطعي إلى الأجيال اللاحقة، ولمست الإنسانية أثره في حضارة

أمته، وقوة أتباعه، وعزتهم ما استمسكوا به، وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرَّطوا في جنبه، مما لا يدع مجالاً للشك في إمكان الوحي وثبوته. وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظمأ النفسي بمُثُله العليا، وقيمه الروحية.

العلم يؤكد إمكان الوحي:

١- توصل العلم الحديث إلى اختراع أجهزة حديثة تنقل الصوت، أو الصوت والصورة عبر المسافات البعيدة بدقة عالية (كوسائل الاتصالات المختلفة، والمذياع، والتلفاز، وغيرها)، فيكلّم الإنسان من في أقصى الأرض، ويسمع كلامه، ولا يسمع الحاضرون شيئًا، ولا يستطيع أحد من الحاضرين أن ينكر ذلك، فإذا كان هذا من صنع الإنسان على عجزه، أفنستبعد بعد ذلك على الله- تعالى- أن يُعلم خواص عباده بما شاء من وحيه؟؟

٢- استطاع العلم أيضا أن يملأ بعض اسطوانات من الجماد الجامد بأصوات وأنغام وبقرآن وكلام، على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلى إنكاره يسمونه بالفونغراف.

أبعد هذه المخترعات القائمة يستبعد على القادر تعالى بوساطة ملك ومن غير وساطة ملك أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس[1].

المطلب الثالث: بعض الأدلة التي تثبت أن الوحي من الله تعالى، وليس للنبي ﷺ من أمر الوحي شيء:

١- كانت تنزل بالنبي ﷺ نوازل يتطلب لها حلاً، وكذلك كل من حوله، ولكنه لا يجد في شأنه قرآنًا يقرؤه على الناس.

ومن هذه النوازل والأزمات حديث الإفك عن زوجته السيد المصونة

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ٦٩، النبأ العظيم، د. محمد عبد الله، ١٠٤، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة، ص٨٨.

عائشة رضي الله عنها، فقد أبطأ الوحي، وطال الانتظار والناس يخوضون في هذا الحديث المؤذي، ويلوكون عرض النبي النقي، حيث بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع أن ينهي هذه المشكلة، ويحسم هذا الموضوع، ومضى شهر بأكمله أو أكثر، وهو ينتظر خبر السماء، وما زاد على أن قال لها آخر الأمر «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ»(1).

هذا كلام رجل من البشر لا يعلم الغيب، وكلام المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات، حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، ويقطع بها ألسنة القاذفين المتخرصين وينسبها إلى الوحي؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

٢- وفي مرات أخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه ويخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء الذي لا يميل إليه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

لو كانت هذه المعاتبات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه: أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟(2).

١- ينظر حديث الإفك في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ٥/ ١١٦، ح٤١٤١، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ٨/ ١١٢، ح ٢٧٧٠.

٢- النبأ العظيم، دراز، ٥٣-٥٤.

أسئلة للمناقشة

١. يطلق الوحي في اللغة على معان عدة اذكرها.

٢. ما معنى الوحي في الآيات التالية؟

قال الله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧]، وقال الله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال الله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]، قال الله تعالى ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ١٢٦].

٣. عرف الوحي اصطلاحًا، ثم بيّن صوره.

٤. ما معنى صلصلة الجرس؟

٥. ما أشد حالات الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم.

٦. هل يمكن أن تتحقق ظاهرة الوحي؟

٧. اذكر أدلة إمكانية الوحي.

٨. اذكر بعض الأدلة التي تثبت أن الوحي من الله تعالى، وليس للنبي ﷺ من أمر الوحي شيء.

الفصل الثاني: نزول القرآن

مقدمة:

العلم بنزول القرآن من أهم المباحث، فهو أساس الإيمان بالقرآن و أصل لسائر المباحث القرآنية، فهو أساس البناء.

معنى النزول:

في سورة الإسراء قال الله تعالى﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الأسراء: ١٠٥]، وقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

ويطلق النزول -لغة- على انحدار الشيء من علو إلى أسفل. ولكن معنى الحلول في المكان والإيواء والانحدار، لا يليق إرادته هنا في إنزال القرآن الكريم؛ لأن القرآن ليس جسمًا.

وعلى ذلك فالإنزال معناه، الإعلام. قال ابن كثير: يقول الله تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد إنه بالحق نزل، أي: متضمنا للحق.. ومتضمنًا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه.. بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع..[1].

المبحث الأول: تنزلات القرآن:

المطلب الأول: التنزيل الأول:

إلى اللوح المحفوظ، ودليل ذلك قوله جل شأنه ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج٢١-٢٢]. واللوح المحفوظ هو السجل الجامع لكل ما قضى الله وقدّر، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين .

١- لسان العرب، لابن منظور، ١١ / ٦٥٦، المصباح المنير، للفيومي، ص٣٠٩، المعجم الوسيط ٢ / ٩١٥، تفسير ابن كثير ٣ / ٦٨.

وأهمية هذه المرحلة تبرز في دلالة الإيمان بهذا اللوح، فهو مظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله عز وجل، ولا ريب أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج ٢١-٢٢].

المطلب الثاني: التنزيل الثاني:

كان هذا التنزيل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة.

والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١].

وقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمى (ليلة القدر) وهي من ليالي رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول إلى بيت العزة في السماء؛ لأنه لو أريد به النزول الثاني على النبي ﷺ لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو (شهر رمضان)؛ لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة (ثلاثة وعشرين عامًا) ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعين أن يكون المراد به (النزول الأول) وقد جاءت الأخبار الصحيحة تؤيد مكان النزول في بيت العزة من السماء الدنيا:

أ- عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ، فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُنْزِلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُرَتِّلُهُ تَرْتِيلاً [١].

١- المستدرك على الصحيحين للحاكم، ٢ / ٦٦٧، ح٤٢١٦، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وينظر الإتقان، للسيوطي، ١ / ٥٣.

ب- وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَكَانَ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ، وَكَانَ اللهُ يُنْزِلُهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْضَهُ فِي أَثَرِ[1]».

ج- وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ نُجُومًا»[2] قوله نجومًا: أي أجزاء متفرقة.

حكمة نزوله إلى بيت العزة جملة:

قال السيوطي: «ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله(أي: القرآن) إليهم منجمًا بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله سبحانه باين (أي خالف) بينه وبينها(أي: التوراة والإنجيل)، فجعل له أمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقا، تشريفًا للمنزل عليه»[3].

المطلب الثالث: التنزيل الثالث:

وأما التنزيل الثالث فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجمًا (أي: مفرقا) في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي المرحلة الأخيرة التي شع منها النور على العالم، وهي من حين البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه وكان هذا النزول بواسطة جبريل، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

١- المستدرك على الصحيحين للحاكم، ٢ / ٢٤٢، ح٢٨٧٨، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وينظر الإتقان، للسيوطي، ١ / ٥٣.

٢- المعجم الأوسط، للطبراني، ٢ / ١٣١، ح١٤٧٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧ / ١٤٠: «فيه عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات». وينظر الإتقان، للسيوطي، ١ / ٥٣.

٣- الإتقان، للسيوطي، ص ٥٥، ٥٤.

وكان من وراء نزول القرآن منجما أهداف، نستعرضها في المبحث التالي.

المبحث الثاني: نزوله منجمًا

المطلب الأول: أدلة نزول القرآن منجمًا

والدليل على هذا النزول وأنه نزل منجمًا قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

روي أن اليهود والمشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقا، واقترحوا عليه أن ينزل جملة واحدة حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فأنزل الله هاتين الآيتين ردًا عليهم[١]، وهذا الرد -كما يقول الزرقاني- يدل على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مفرقًا على النبي ﷺ.

والثاني: أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعًا.

ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة من نزول القرآن مفرقًا، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقًا كالقرآن لرد عليهم بالتكذيب، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما رد عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» رد عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾

١- تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٩، ح١٥١٢٧.

[الفرقان: ٢٠][1].

المطلب الثاني: الحكمة من نزول القرآن منجمًا:

ولنزول القرآن الكريم منجمًا حكم جليلة، وأسرار عديدة[2]. نستطيع أن نجملها فيما يأتي وهي:

الحكمة الأولى: وهي (تثبيت فؤاد النبي ﷺ) فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة فرد الله عليهم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وتثبيت قلب النبي ﷺ إنما هو رعاية من الله، وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له وإيذائهم الشديد له ولأتباعه. فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ (تسلية) له وشحذا لهمته للمضي في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهده الله سبحانه وتعالى بما يخفف عنه الشدائد والآلام فكان إذا اشتد الأذى عليه نزلت الآيات تسلية له وتخفيفًا عما يلقاه، وكانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وتارة تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار أعدائه وانهزامهم كما في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢]، إلى آخر ما هنالك من ألوان التخفيف عن قلب الرسول، وتطييب نفسه وفؤاده، ولا شك أن في تجدد نزول الوحي، وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٥٣.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٥٣، المحرر في علوم القرآن، لمساعد الطيار ص٧٦، دراسات في علوم القرآن للرومي، ص٢٠٨ علوم القرآن الكريم، عتر، ص٢٥.

للنبي ﷺ وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، والمضي في تبليغ الرسالة الإلهية؛ لأن الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه وعينه ترعاه؟

الحكمة الثانية: وهي (التلطف بالنبي ﷺ) عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]، فالقرآن -كما هو مقطوع به- كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة وهو الكتاب الذي لو نزل على جبل لتفتت وتصدع من هيبته وجلاله كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، فكيف إذن بقلب النبي الرقيق، هل يستطيع أن يتلقى جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب ويشعر بروعة القرآن وجلاله!! ولقد أوضحت السيدة عائشة حال الرسول حين ينزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل فقالت: «يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ (أي ينفصل) عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[1].

الحكمة الثالثة: وهي (التدرج في التشريع) فهي جلية واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية -وخاصة منهم العرب- طريق الحكمة ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة -مرحلة تثبيت دعائم الإيمان- إلى العبادات فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثنى بالصوم وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم أولاً عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم كالخمر والربا والميسر،

١- يتفصد عرقًا - يعني: يسيل عرقًا، ومنه الفصد: قطع العرق. شرح صحيح البخارى لابن بطال ١ / ٥١، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي ١ / ٦، ح٢.

تدرجًا حكيمًا، استطاع بذلك أن يقتلع الشر والفساد من جذوره اقتلاعًا كاملا.

الحكمة الرابعة: فهي (مسايرة الحوادث والوقائع في حينها) والتنبيه على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس وأدعي إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق (الدرس العملي) فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حدث منهم خطأ أو انحراف، نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي فعله وما ينبغي تركه، ويبين لهم مواطن الخطأ في ذلك، خذ مثلاً على ذلك (غزوة حنين) فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاغترار لما رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافًا مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا: (لن نغلب اليوم من قلة) وكانت النتيجة انكسارهم وانهزامهم وتوليتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبيه على الخطأ في حينه، إذ كيف يتصور أن تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم ولم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟ وكذلك الحال في أخذ الفداء من الأسرى في (بدر) حيث نزل التوجيه السماوي الرائع: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

الحكمة الخامسة: (الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم وأنه تنزيل الحكيم الحميد) وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نص ما كتبه الشيخ (محمد عبد العظيم الزرقاني) في كتابه: «مناهل العرفان» حيث جاء برائع البيان فقال رحمه الله تعالى: (الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه.. وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم

الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته.. وهنا نتساءل: كيف اتسق القرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة، بل تنزل آحادًا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عامًا!!

المطلب الثالث: ملاحظة على مدة التنزيل:

تتابع الوحي إلى رسول الله ﷺ بالقرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة تقريبًا: هي الفترة ما بين بدء الوحي ووفاته ﷺ في السنة الحادية عشرة للهجرة[1] وذلك في أرجح الروايات؛ لأنه ﷺ مكث بمكة -قبل أن يهاجر إلى المدينة- ما يقرب من ثلاث عشرة سنة. ثم أقام بالمدينة بعد الهجرة قرابة عشر سنين حتى توفي. ويتفق الرواة على أن رسول الله ﷺ أقام بالمدينة عشر سنين لكن هناك شيئًا من الخلاف في الفترة التي أقامها بمكة بعد بدء الوحي إليه، هل هي عشر سنين، أم ثلاث عشرة، أم خمس عشرة سنة، ونحن وإن كنا رجحنا فترة الثلاث عشرة سنة -تبعًا لأكثر العلماء- فإننا نشير إلى أنه ليس لهذا الاختلاف في الرواية أي نتيجة عملية فيما يتصل بآيات القرآن والتاريخ المبكر للدعوة الإسلامية؛ لأن كلا من الفترات الثلاث المروية في إقامته بمكة بعد البعثة تتسع لنزول القرآن المكي الذي نزل بها، كما تتسع لكل الأحداث التي مرت بالدعوة الإسلامية وبرسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة.

ولو كان لهذا الخلاف الزمني أي نتيجة عملية تتصل بالوحي وآيات القرآن ولو أنه كان يمكن الوصول فيه إلى يقين أو ما يشبه - لعرضنا له بالتفصيل والاستدلال. على أن هناك دلائل قوية ترجح ما انتهينا فيه وهو فترة الثلاث عشرة سنة.

١- ينظر: التقويم العربي قبل الإسلام وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته، العلامة محمود باشا الفلكي وينظر: مدخل إلى الدراسات الإسلامية د. محمد بلتاجي، ص ١٥٥ وما بعدها.

وأيا ما كان الأمر، فقد تتابع الوحي على رسول الله ﷺ حتى قبيل وفاته.

المطلب الرابع: بين العبرة من نزول القرآن منجمًا والواقع المعاصر:

وإذا كان لنا أن نأخذ العبرة من مراعاة الوحي لظروف البيئة وعاداتها في التدرج في التشريع على النحو السابق، فإننا يجب أن ننتهي إلى أن أية دعوة إلى إعادة تطبيق التشريع الإسلامي على حياة المسلمين في كل مجالاتها يجب أن تضع في اعتبارها عاداتهم التي عايشتها أجيالهم المتتابعة والتي بعدت عن الأوضاع الإسلامية الخالصة، بحيث أصبح من التفكير غير الواقعي أن يتصور إنسان أنه يستطيع إرجاع هذه العادات والأوضاع والأخلاق وأنماط السلوك والتفكير إلى أحكام التشريع الإسلامي بكلمة واحدة وقرار واحد، يفجأ الناس ويفرض عليهم في لحظة واحدة فينصاعون له جميعًا راضين أو ساخطين، إنما الأمر في الحقيقة يحتاج إلى إصلاح عقائد الناس أولاً، وإقناعهم بطرح ما فيها من زيف وضلال. وبعد أن تخلص العقيدة من كل ما يشوبها فإنه يصبح من الممكن بطريق تدريجي تراعى فيه الغاية المقصودة - كما تراعى فيه سيطرة العادات المتحكمة على النفوس- ترويض عادات الناس، بتهيئة الظروف الملائمة التي يقتنعون بها - في مجموعهم- بوجوب تحكيم مفاهيم الإسلام الخالصة في شتى مجالات حياتهم، وتحقيق هذه المفاهيم- حين تطبق بصورة سليمة - لكل ما يهدف إليه الإنسان في حياته الأولى والآخرة من خير وكفاية وسلام نفس وطمأنينة، وإذا صلحت نيات القائمين على ذلك وصح تفكيرهم وإخلاصهم، وتوفرت لهم ظروف ملائمة اقتنع جمهور الناس فيها بهذا الإخلاص ورضوا عنه، فإن هذا التحول نحو الإسلام الخالص في العقيدة والعمل سوف يتحقق بصورة أسرع مما يتصور أكثر الناس تفاؤلاً في هذا الأمر؛ لأن أحكام الإسلام ملائمة تمامًا لفطرة الناس الأصلية التي خلقهم الله عليها، وماتزال بذرة الإسلام حية في نفوس الناس. إن تطبيق الشريعة الإسلامية لا بد أن يبدأ، فالقرآن بدأ بتثبيت العقيدة أولاً ثم جاء دور الأحكام

فأنعم به من كتاب دستور حياة وطريق مستقيم.

المبحث الثالث: معرفة أول وآخر ما نزل، وفوائده:

المطلب الأول: أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:

للعلماء في ذلك أقوال عدة، نجملها فيما يلي:

القول الأول: أن أول ما نزل من القرآن سورة (العلق)، وهو قول (ابن عباس، علي، وعائشة، وابن الزبير، وعبيد بن عمير، وعطاء بن يسار، ومحمد بن عباد بن جعفر، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري وعكرمة، ومجاهد، والزهري)[1].

دليله: أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ الآيات إلى قوله ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥][2]... الحديث.

القول الثاني: أن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

١- تفسير الطبري٢٤ / ٥٢١، تفسير السمعاني٦ / ٢٥٥، تفسير البغوي ٤ / ٥٠٦، زاد المسير، لابن الجوزي: ٩ / ١٧٥، تفسير القرطبي ٢٠ / ١١٨، الإتقان، للسيوطي١ / ٧٤.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، سورة العلق، ٤ / ١٨٩٤، ح ٤٦٧٠.

دليله: ما أخرجه الشيخان[1] عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة أي القرآن أنزل أول؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله: أَيُّ الْقُرْآن أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أُنبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فَقَالَ: لا أُخْبِرُكَ إلاَ بِمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: جَاوَرْتُ فِي حِرَاء، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي، هَبَطْتُ، فَاسْتَبْطَنْتُ الْوَادِيَ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْض، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١-٣].

وهذا القول لم يحظ بقبول من العلماء فقد أجاب عنه العلماء بعدة بأجوبة عدة منها:

الأول: قد جاءت عبارات وشواهد في روايات أخرى من قول جابر نفسه ترد هذا القول وهي قوله «..وهو يحدث عن فترة الوحي»، وقوله: «فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ..»[2] ففي هذه العبارات دلالة على أن سورة المدثر ليست أول ما نزل.

الثاني: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، لا أولية مطلقة.

الثالث: أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأول ما نزل للرسالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾

الرابع: أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب وأما ﴿ٱقْرَأْ﴾ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم، ذكره الحافظ ابن حجر.

١- صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة المدثر، باب وربك فكبر٤ / ١٨٧٥، ح٤٦٤٠، صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ ١ / ١٤٣، ح٢٥٧. واللفظ للبخاري.

٢- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المدثر، باب وثيابك فطهر، ٦ / ١٦٢، ح٤٩٢٥.

الخامس: أن جابرًا ﷺ استخرج ذلك باجتهاده وليس هو من روايته، فيقدم عليه ما روته عائشة رضي الله عنها[1].

القول الثالث: أول ما نزل من القرآن هو سورة «الفاتحة».

قال الإمام الزمخشري: «أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم»[2].

دليل هذا القول:

ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله قال لخديجة: إِذَا خَلَوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً خَلْفِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَنْطَلِقُ هَارِبًا فِي الأَرْضِ «فَقَالَ: -ورقة- لَا تَفْعَلْ، فَإِذَا أَتَاكَ فَاثْبُتْ حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ ائْتِنِي فَأَخْبِرْنِي، فَلَمَّا خَلا نَادَاهُ يَا مُحَمَّدُ قُلْ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] حَتَّى بَلَغَ ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]»[3]. قال الإمام البيهقي: «إن كان محفوظًا يحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعدما نزلت عليه اقرأ والمدثر»[4]

وهذا القول لم يحظ بالقبول من العلماء.

قال الحافظ ابن حجر: «وأما الذي نسبه - أي الزمخشري - إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول»[5].

١- فتح الباري، لابن حجر، ٨/ ٦٧٨، الإتقان، للسيوطي١/ ٧٥-٧٦، مرقاة المفاتيح، للقاري١٠/ ٥٢٦، مباحث في علوم القرآن، للقطان، ص٦٧.

٢- الكشاف، للزمخشري٤/ ٧٨١.

٣- دلائل النبوة، للبيهقي، ٢/ ١٥٨، الإتقان، للسيوطي، ١/ ٧٦، قال الحافظ السيوطي: مرسل، رجاله ثقات.

٤- المصدر السابق١/ ٧٦.

٥- فتح الباري، لابن حجر، ٨/ ٧١٤.

وقال الإمام الصالحي: «وشذ صاحب الكشاف فقال: إن أكثر المفسرين على أن أول سورة نزلت الفاتحة. وهذا وهم بلا شك»[١].

وقال الشيخ الزرقاني: «هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقا وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول ﷺ كانت في فجر النبوة أول عهده بالوحي الجلي، وهو في غار حراء، بل يفهم منها أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة وبعد أن سمع النداء من خلفه غير مرة وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع ما يلقى إليه، وليس كلامنا في هذا إنما هو فيما نزل أول مرة.

الثاني: أن هذا الحديث مرسل، سقط من سنده الصحابي فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي وهو مرفوع إلى النبي ﷺ، فبطل إذًا هذا الرأي الثالث وثبت الأول أيضا[٢].

القول الراجح:

هو القول الأول القائل: إن أول ما نزل سورة العلق لقوة أدلته، وسلامته من الاعتراض.

قال الإمام النووي: «أول ما نزل من القرآن اقرأ وهذا هو الصواب الذى عليه الجماهير من السلف والخلف»[٣].

وقال الإمام البغوي[٤] والإمام الخازن[٥]: «أكثر المفسرين على أن هذه

١- سبل الهدى والرشاد، للصالحي، ٢ / ٢٤١.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ج١، ص٦٩.

٣- شرح النووي على صحيح مسلم: ج٢، ص١٩٩.

٤- تفسير البغوي: ج٤، ص٥٠٦.

٥- لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن: ج٧، ص٢٦٧

السورة أول سورة نزلت من القرآن».

المطلب الثاني: آخر ما نزل:

اختلف العلماء في آخر ما نزل من القرآن على أقوال هي:

١- أن آخر ما نزل آية الدين وهي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ودليله ما أخرجه الإمام الطبري عن سعيد بن المسيب: «أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَحْدَثَ الْقُرْآنِ بِالْعَرْشِ آيَةُ الدَّيْنِ»[١].

٢- أن آخر ما نزل قول الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهو قول ابن عباس، فقد أخرج الإمام النسائي عن ابن عباس قال: آخِرُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢].

٣- أن آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

أخرج الإمام البخاري قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا[٣].

٤- أن آخر آية نزلت قوله تعالى ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. ودليله ما رواه البراء رضي الله عنه قال: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ[٤].

١- تفسير الطبري، ٦ / ٤١، ح٦٣١٦، وإسناده ضعيف لإرساله؛ إذ لم يذكر ابن المسيب من حدثه به.

٢- السنن الكبرى للنسائي: كتاب التفسير، قوله تعالى: واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله. ٦ / ٠٧، ح١١٠٥٧.

٣- المراد بها قوله تعالى: ﴿يَاالَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، والحديث في صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله، ص٦ / ٣٢، ٤٥٤٤.

٤- صحيح البخاري: كتاب التفسير سورة براءة، ٤ / ١٧٠٩، ح٤٣٧٧.

القول الراجح:

بالنظر إلى الأقوال السابقة يتبين لنا:

أولاً: أن القول الأول القائل: إن آخر ما نزل هو آية الدين، قول مردود لضعفه.

ثانيًا: وأما قول من قال: إن آخر ما نزل (يستفتونك)، فمراده آخر آية في المواريث[1]، فهي آخرية مقيدة لا مطلقة.

قال الزرقاني: «يمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في المواريث وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد فكلاهما آخر إضافي لا حقيقي[2].

ثالثًا: أما الأقوال الأخرى فللعلماء فيها رأيان:

الأول: هو الجمع بين هذه الأقوال:

قال السيوطي: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات؛ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف؛ ولأنها قصة»[3].

القول الثاني: هو الترجيح بينها:

إن أرجح هذه الأقوال هو قول من قال: إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى [وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ] [البقرة آية٢٨١].

قال الشيخ الزرقاني: أقول ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولا

١- ينظر: فتح الباري لابن حجر، ٨/ ٢٠٥، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، للكوراني، ٨/ ٤٦، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، للسنيكي، ٧/ ٤٤٦،.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ٩٩.

٣- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ١٠٢.

هو قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] وذلك لأمرين:

أحدهما: ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد وما تنوه به من الرجوع إلى الله واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها.

ثانيهما: التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله[١].

قلت: الذي تميل إليه النفس هو الجمع بين قول من قال: إن آخر ما نزل آية الربا، وقول من قال: إن آخر ما نزل آية ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ لأنها متصلة بآية الربا اتصالاً تامًا، وأن القولين مرويان عن ابن عباس.

وقد تنبه إلى ذلك الإمام البخاري فقد ترجم لحديث ابن عباس في آية الربا بقوله باب ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٢].

قال الحافظ ابن حجر: «ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه وجاء عنه من وجه آخر، آخر آية نزلت على النبي ﷺ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله»[٣].

المطلب الثالث: أوائل موضوعية.

وتناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، ومن ذلك:

١- الإتقان، للسيوطي، ١/ ٩٩، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف ص١٨١، مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ٧٠.

٢- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب: واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله. ٦/ ٣٢، ٤٥٤٤.

٣- فتح الباري، لابن حجر، ٨/ ٢٠٥.

أول ما نزل في الأطعمة:

آية الأنعام ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ثم آية النحل: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٥: ١١٤].

ثم آية البقرة: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

ثم آية المائدة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣].

أول ما نزل في الخمر:

آية البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم آية النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم آية المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

أول ما نزل في القتال:

قال ابن عباس: أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] [١].

فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

١- بيان العناية الكبرى التي نالها القرآن الكريم، حيث قام علماء الأمة وعلى رأسهم الصحابة الكرام بالضبط والصيانة للقرآن الكريم، حرفًا حرفًا وآية آية، فوعوا حروف القرآن وآياته، وأماكن نزوله، وكان من ثمار ذلك أن سلم القرآن من التحريف والتبديل مصداقًا لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

٢- الوقوف على أسرار التشريع، فلقد نزل القرآن الكريم لمعالجة الأمراض التي توغلت في النفوس البشرية، ونجح القرآن في انتزاع هذه الأمراض والقضاء عليها بأرقى الأساليب التي عرفتها البشرية، واستطاع بمنهجه الحكيم الترقي بالبشرية إلى الكمال، حتى تستقيم الحياة البشرية على المحجة البيضاء.

٣- تمييز الناسخ من المنسوخ: فقد ترد الآيتان أو الآيات في موضوع واحد، ويختلف الحكم في إحداهما عن الأخرى، فإذا عرف ما نزل أولاً وما نزل آخرًا، كان حكم ما نزل ناسخًا لحكم ما نزل أولاً.

١- لم نذكر جميع الروايات واكتفينا بالبعض وعلى من يريد الاستزادة فليراجع الموضوع في مناهل العرفان، للزرقاني، ج١، ص٧١.

المبحث الرابع: القراءات القرآنية، والأحرف السبعة

المطلب الأول: تعريف القراءات، وعلاقتها بالقرآن

أولا: تعريف القراءات لغةً: جمع قراءة، وهي مصدر: قرأَ قراءةً وقرآنًا، بمعنى: تلا تلاوةً، وهي في الأصل بمعنى: الجمع والضم. تقول: قرأت الماء في الحوض، أي: جمعته فيه، وسُمِّي القرآن قرآنًا، لأنه يجمع الآيات والسور، ويضم بعضها إلى بعض[1].

ثانيا: تعريف القراءات اصطلاحًا، ومكانتها: قال العلامة ابن الجزري -رحمه الله-: هو علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًا لناقلها[2]. وإن شرف العلوم من شرف موضوعها، وموضوع علم القراءات كتاب الله تعالى الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، لذا فإن هذا العلم من أشرف العلوم قدرًا وأعظمها شأنًا.

ثالثا: علاقتها بالقرآن الكريم: القرآن والقراءات حقيقتان بمعنًى واحد؛ لأن القرآن مصدر مرادف للقراءة، والقراءات جمع قراءة. إذن فهما حقيقتان بمعنًى واحد، كما أن أحاديث نزول القرآن على الأحرف السبعة تدل دَلالة واضحة على أنه لا فرقَ بينهما»[3].

الدليل على ذلك:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ كَانَ عِنْدَ

١- لسان العرب، لابن منظور، ١ / ١٣٠، مادة (قرأ) مختار الصحاح، الرازي، ص٢٢٠ مادة (قرأ).

٢- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري ص٩.

٣- جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، لعبد القيوم السندي، ص١٣، موسوعة علوم القرآن، عبد القادر منصور، ص١٩٦.

أَضَاة بَنِي غِفَار[1]. قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْه السَّلامُ فقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْف، فَقَالَ: أَسْأَلُ الله مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذَلكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانيَةَ فَقَالَ إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْن فَقَالَ: أَسْأَلُ الله مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذَلكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالثَةَ فَقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلاثَة أَحْرُف، فَقَالَ: أَسْأَلُ الله مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذَلكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابعَةَ فَقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَة أَحْرُفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَؤُوا عَلَيْه فَقَدْ أَصَابُوا[2].

يتضح من هذا الحديث أنه لا فرق بين القرآن والقراءات، وأن كلاهما وحي من الله تعالى.

المطلب الثاني: أقسام القراءات، وأركان القراءة الصحيحة، و هل القراءات السبع هي الأحرف السبعة:

أولا: أقسام القراءات:

١- متواترة، وهي التي تتوافر فيها أركان القراءة الصحيحة.

٢- شاذّة، وهي التي فقدت ركنًا من أركان القراءة الصحيحة.

ثانيا: أركان القراءة الصحيحة:

وضع العلماء أركانًا للقراءة، وذلك للتمييز بين القراءات الصحيحة والشاذة، وهي:

١- وأضاة بني غفار هي بفتح الهمزة والضاد المعجمة بغير همز وآخره تاء تأنيث، وهو موضع بالمدينة النبوية ينسب إلى بني غفار بكسر المعجمة وتخفيف الفاء لأنهم نزلوا عنده. فتح الباري، لابن حجر، ج٩، ص٢٨.

٢- كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ١ / ٥٦٢، ح ٢٧٤.

١- صحة سندها بالتواتر إلى رسول الله ﷺ من أول السند إلى آخره.

بأن يرويها عدول ضابطون عن مثلهم من أول السند إلى آخره من غير شذوذ ولا علة قادحة.

٢- موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا.

مثال ذلك قراءة ابن عامر ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] بغير واو، في المصحف الشامي فقط[١]، وفي بقية المصاحف بالواو فلو كانت مخالفة لرسم جميع المصاحف العثمانية، حكم بشذوذها.

٣- موافقة اللغة العربية ولو بوجه.

سواء أكان هذا الوجه مجمعا عليه، أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله مع قوته، ولا يشترط في قبول القراءة أن تكون موافقة لأفصح الأوجه، أو لوجه مجمع عليه بين النحاة، ولذلك لا يُعبأ بقدح بعض النحاة في بعض الأوجه[٢].

وقد لخصها ابن الجزري بقوله:

فكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسنادًا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت ... شذوذه لو أنه في السبعة[٣]

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق على القراءة ضعيفة أو شاذة أو باطلة[٤]:

١- مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لأبي داود الأندلسي، ٢ / ٢٠٢.
٢- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد سالم محيسن، ١ / ١٩.
٣- طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ص٣٢.
٤- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ١ / ٩.

ثالثا: هل القراءات السبع هي الأحرف السبعة؟

يعتقد بعض الناس أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة، وهذا خطأ.

قال العلامة مكي بن أبي طالب «إن هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم، وصحت روايتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووافق اللفظ بها خط المصحف، مصحف عثمان الذي أجمع الصحابة، فمن بعدهم عليه[1].

المطلب الثالث: حكم تعلم القراءات:

تعلم القراءات فرض كفاية، فإن لم يكن يصح له إلا واحد، تعين عليه، وإن كان جماعة يحصل المقصود ببعضهم، فإن امتنعوا كلهم أثموا، وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن الباقين، وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأثم لكن يكره له ذلك إن لم يكن له عذر[2].

المطلب الرابع: أهم المؤلفات في علم القراءات:

كثرت المؤلفات في القراءات ما بين منظوم ومنثور، ومطوّل ومختصر؛ كما تنوعت اتجاهاته.

وأهم المؤلفات في علم القراءات:

١. (السبعة في القراءات) لأحمد بن موسى بن العباس التميمي، ابن مجاهد البغدادي، المتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

٢. (الإبانة عن معاني القراءات) لمكي بن أبي طالب بن القيسي المتوفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

١- الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب ص٣٢.

٢- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري ص١٦.

٣. (حرز الأماني ووجه التهاني) نظم في القراءات السبع، للإمام الشاطبي، المتوفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

٤. (إبراز المعاني من حرز الأماني - شرح على الشاطبية) لعبد الرحمن بن إسماعيل الشهير بأبي شامة المتوفى سنة خمس وستين وستمائة.

٥. (تحبير التيسير في القراءات العشر من طريق الشاطبية والدرة) وكتاب (النشر في القراءات العشر) وهما للإمام محمد بن محمد بن الجزري المتوفى سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة.

المطلب الخامس: الأحرف السبعة

أولا: المراد بالأحرف السبعة:

قال القرطبي: «اختلف الناس في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا...»[١]، وقال السيوطي: «اختلف في معنى الحديث على نحو أربعين قولا»[٢]

أهم هذه الأقوال:

القول الأول: أن المراد بالأحرف السبعة سبع قراءات. وهو قول الخليل بن أحمد، واختاره الخازن[٣]

وهذا القول ضعيف، ضعفه كثير من العلماء. بل ذهب الإمام الزركشي إلى أنه أضعف الأقوال[٤]. وقال الإمام القرطبي: «وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه»[٥].

١- تفسير القرطبي ١/ ٤٢.

٢- الإتقان، للسيوطي، ١/ ١٣٠.

٣- التمهيد لابن عبد البر٨/ ٢٧٤، لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن١/ ١٢، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/ ٢١٤، الإتقان، للسيوطي، ١/ ١٣٠.

٤- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/ ٢١٤.

٥- تفسير القرطبي، ١/ ٤٦.

القول الثاني: المراد بالأحرف السبعة: معاني كتاب الله تعالى وهي: أمر، ونهي، ووعد، ووعيد وقصص، ومجادلة، وأمثال»

ورد هذا القول كثير من أهل العلم: منهم الإمام الطبري[1]، والإمام ابن عطية[2]

القول الثالث: المراد سبع لغات من لغات العرب[3] نزل عليها القرآن[4]

قال أبو بكر الباقلاني رحمه الله: «هذا باطل»[5].

القول الرابع: المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير السبعة التي وقع فيها الاختلاف. وهو قول الباقلاني[6]. وهو مردود؛ لأنه لا يتفق والحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف.

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة التوسعة والتسهيل ولم يقصد به الحصر. وإليه جنح القاضي عياض[7].

وهو مردود؛ لأن المراد حقيقة العدد.

١- تفسير الطبري، ١ / ٤٨.

٢- المحرر الوجيز، لابن عطية، ١ / ٤٤.٤٣.

٣- اختلف القائلون بهذا في تعيين السبع فأكثروا، وقال بعضهم: أصل ذلك وقاعدته قريش، ثم بنو سعد بن بكر؛ لأن النبي ﷺ استرضع فيهم، ونشأ وترعرع، وهو مخالط في اللسان كنانة، وهذيلا، وثقيفا، وخزاعة، وأسدا، وضبة وألفافها، لقربهم من مكة، وتكرارهم عليها، ثم من بعد هذه تميما، وقيسا، ومن انضاف إليهم وسكن جزيرة العرب. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢١٩.

٤- المحرر الوجيز، لابن عطية١ / ٤٥، فتح الباري، لابن حجر، ٩ / ٢٧، روح المعاني، للألوسي ١ / ٢١.

٥- المحرر الوجيز، لابن عطية١ / ٤٤، ونكت الانتصار للباقلاني(٤٠٣هـ) ص١١٩، ط(منشأ المعارف، الإسكندرية، تحقيق د، محمد زغلول سلام.

٦- التمهيد لابن عبد البر٨ / ٢٩٥، المحرر الوجيز، لابن عطية١ / ٤٣، تفسير القرطبي١ / ٤٥، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢١٤ / عمدة القاري، البدر العيني، ١٢ / ٢٥٩.

٧- لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ١ / ١٢، عمدة القاري، البدر العيني، ١٢ / ٢٥٩، عون المعبود، للعظيم آبادي، ٤ / ٢٤٥، مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٢١.

القول السادس: وهو القول الراجح: أن معنى الأحرف السبعة: سبعة أوجه من المعاني المتفقة المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل، وتعال، وهلم، وإليّ، ونحوي، وقصدي، وقربي.

قال علي وابن عباس: «نزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب»[١].

وهو الذي عليه أكثر أهل العلم: ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والطحاوي، وابن عبد البر، ومال إليه الحافظ ابن حجر[٢].

قال العلامة أبو شامة: «هذا هو الحق، لأنه إنما أبيح أن يقرأ بغير لسان قريش توسعة على العرب، فلا ينبغي أن يوسع على قوم دون قوم، فلا يكلف أحد إلا قدر استطاعته»[٣].

قال البقاعي: «وهذا في غاية الموافقة للأحاديث الذاكرة أن السبب في المراجعة: التخفيف على الأمة»[٤].

قال الزرقاني: «وهذا القول منسوب لجمهور أهل الفقه والحديث»[٥].

وقد اختاره من المتأخرين كل من الدكتور محمد سالم محيسن[٦]، والدكتور محمد أبو شهبة[٧]، وغيرهما، وأطالا في الاستدلال لصحته، ورد الاعتراضات الواردة عليه.

١- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة ١ / ٩٦.

٢- الاستذكار لابن عبد البر٢ / ٤٨٢، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٢٠، فتح الباري، لابن حجر، ٩ / ٢٨، الإتقان، للسيوطي، ١ / ١٣٢ / سبل الهدى والرشاد، للصالحي، ١٠ / ٢٨٨، روح المعاني، للألوسي١ / ٢٠.

٣- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة ١ / ٩٧.

٤- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي ١ / ٣٨٩.

٥- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٢٣.

٦- القراءات وأثرها في علوم العربية، محمد سالم محيسن١ / ٢١.

٧- المدخل لدراسة القرآن، لأبي شهبة ص٢٠٢.

وله أدلة كثيرة تؤيده منها:

١- أخرج الإمام أبو عبيد بسنده عن عبد الله قال: سَمِعْتُ الْقُرَاءَةَ فَوَجَدْنَاهُمْ مُتَقَارِبِينَ، اقْرَءُوا مَا عُلِّمْتُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالاخْتِلافَ، فَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِهِمْ: هَلُمَّ وَتَعَالَ وَأَقْبِلْ[١].

٢- وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكرة: أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْف. قَالَ مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: اسْتَزِدْهُ. فَاسْتَزَادَهُ قَالَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْن. قَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ. فَاسْتَزَادَهُ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُف، قَالَ: كُلٌّ شَافٍ كَافٍ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ، نَحْوَ قَوْلِكَ: تَعَالَ وَأَقْبِلْ، وَهَلُمَّ وَاذْهَبْ، وَأَسْرِعْ وَاعْجَلْ»[٢].

قال الإمام الطبري: «فقد أوضح نصُّ هذا الخبر أنّ اختلاف الأحرف السبعة، إنما هو اختلاف ألفاظ، كقولك «هلم وتعال» باتفاق المعاني، لا باختلاف معانٍ موجبةٍ اختلافَ أحكامٍ»[٣].

ثانيا: بعض الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف:

أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول ﷺ قال: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ، فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي، حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[٤].

١- فضائل القرآن لأبي عبيد، ١٧٣، ح٧١٦، وصححه الشيخ مجدي السيد، وينظر تفسير الطبري، ١ / ٥٠، ح٤٨. قال الشيخ شاكر: إسناده عال جدًا.

٢- مسند أحمد ٣٤ / ١٤٦-١٤٧، ح٢٠٥١٤، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد٧ / ١٥١، وقال: «فيه علي ابن زيد بن جدعان وهو سيء الحفظ وقد توبع وبقية رجال أحمد رجال الصحيح»، وجوده السيوطي والقاري، ينظر: الإتقان، للسيوطي، ١ / ١٣٣، مرقاة المفاتيح، للقاري١ / ٤٥٥.

٣- تفسير الطبري١ / ٥٠.

٤- صحيح البخاري: كتاب الفضائل، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ٦ / ١٨٤، ح٤٩٩١.

وعن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاة بَنِي غِفَار قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْف، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلاثَةِ أَحْرُف، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَؤُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا»[١].

ثالثا: حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف:

للتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفًا لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق، وحبيب الحق؛ حيث أتاه جبريل فقال له: (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومعونته؛ إن أمتي لا تطيق ذلك...)[٢].

وذلك أن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم، والنبي، ﷺ، بعث إلى جميع الخلق: أحمرها، وأسودها، عربيها، وعجميها، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم: لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر.

بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج؛ لا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتابًا -كما أشار إليه ﷺ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم؛ لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف

١- سبق تخرجه.

٢- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بيان أن القرآن على سبعة أحرف، ١ / ٥٦١، ح ٢٧٤.

المتكلف وتأبى الطباع[1].

قال ابن قتيبة في كتاب (المشكل): فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ، بأن يُقرئ كل أمةٍ بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم.. ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته، وما جرى اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً؛ لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه؛ ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان وقطع للعادة، فأنزل الله برحمته، ولطفه أن يجعل لهم متسعًا في اللغات، ومتصرفًا في الحركات كتيسيره عليه في الدين[2].

المطلب السادس: فوائد اختلاف القراءات وتعدد الحروف[3]:

١- فيها دليل قاطع على أن القرآن الكريم كلامِ رب العالمين قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. [النساء: ٨٢].

٢- ومنها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة؛ إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضا، ويبين بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد، وما ذلك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ.

٣- فيها دلالة على عظمة هذه الأمة؛ حيث تلقت القرآن الكريم بالحروف المختلفة، ووعتها، وأحكمت ضبطها، وهي مَنْقَبَةٌ عظيمة، وميزة لها كبرى، تنفرد بها عن سائر الأمم.

١- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ١ / ٢٢.

٢- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة ص٣٢.

٣- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري١ / ٥٣، الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة المتخصصين، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١ / ٣٣٣، القراءات وأثرها في علوم العربية، لمحمد سالم محيسن ١ / ٣٩.

٤- ومنها إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره وخفي إشاراته، وإنعامهم النظر وإمعانهم الكشف عن التوجه والتعليل والترجيح، والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم، ويصل إليه نهاية فهمهم، والأجر على قدر المشقة.

٥- أجلّ حكمة وأعظمها هي التيسير على الأمة في أمر القراءة والتخفيف عنها، رُوعي في ذلك اختلاف اللغات واللهجات، كما روعي في ذلك جميع الفئات: من شيخ كبير، وطفل صغير، وامرأة عجوز، ومن لم يقرأ كتابًا قط.

٦- فيها سهولة الحفظ وتيسير النقل، فحفظ كلمة ذات وجوه مختلفة أيسر من حفظ جمل من الكلام على وجه واحد.

٧- فيها يظهر إعجاز القرآن ويتجلى بإيجاز الكلام، فتقرأ كلمة واحدة بأكثر من وجه وهي برسم واحد، فتدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللفظ وإعادة الخط، مثل كلمة (أرجلكم) في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة ٦]. فقد قرئت بالنصب والجر[1]، فالنصب يقتضي فرض الغسل، عطفًا على الأيدي والوجه، أما الخفض فيقتضي فرض المسح، عطفًا على الرؤوس.

٨- الجمع بين حكمين مختلفين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة ١٢٢] قال ابن خالويه: «قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف»[2]. فقراءة التخفيف(يَطْهُرْنَ) أي بانقطاع الحيض، وقراءة التشديد(يَطَّهَرْنَ) تفيد الطهر بالماء، فلا بد من

١- فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات، محمد إبراهيم سالم، ٢ / ٥٥٠.

٢- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٩هـ١٩٩٨م، ط: الأولى، ص٢٠٣.

الطهرين كليهما في قرب النساء»[1].

المطلب السابع: مراتب القراءة.

ثلاثة: التحقيق، والحدر، والتوسط.

أما التحقيق: التأني في القراءة بإشباع المدات، وتحقيق الهمزات، وإتمام الحركات، وتبيين الحروف، وتحقيق مخارجها وتوفية الغنات.

والتحقيق: هو قراءة النبي ﷺ فقد روى عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا، حرفا[2].

وأما الحدر: فهو إدراج القراءة والإسراع بها، وذلك بتخفيف الأحكام مما يصح في التجويد، القراءة به.

وأما التوسط: فهو مرتبة بين التحقيق والحدر، وهو المختار عند أكثر أهل القراء.

وقد اختلف علماء القراءات في أيهما أفضل: التحقيق أم الحدر، فقال قوم: التحقيق؛ لأنه يساعد على الفهم.

وقال آخرون: الحدر؛ لأنه يمكن القارئ من الإكثار من كمية المقروء من الآيات.

قال ابن القيم: الصواب في المسألة أن يقال إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر (التحقيق) أجل وأرفع قدرا، وثواب كثرة القراءة (الحدر)، أكثر عددا، فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة أو أعتق عبدا قيمته نفيسة جدا، والثاني كمن تصدق

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ١٤٨.

٢- مسند أحمد، ٤٤/ ١٩٠.

بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددا من العبيد، قيمتهم رخيصة[1].

المطلب الثامن: آداب التلاوة.

ذكر العلماء مجموعة من الآداب لقارئ القرآن ومستمعه، نلخصها فيما يلي:

- يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته، كل على حسب قدرته.
- صرّح مجموعة من العلماء، بأن نسيانه كبيرة، لحديث «من قرأ القرآن ثم نسيه، لقى الله يوم القيامة أجذم»[2].
- يستحب الوضوء لقراءة القرآن؛ لأنه أفضل الذكر.
- يُستحب أن يجلس مستقبلاً القبلة، متخشعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه.
- يُسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً، لحديث «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك»[3].
- يُسن التعوذ قبل القراءة لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].
- المحافظة على قراءة البسملة أول كل سورة غير سورة «براءة».
- يُسن الترتيل في قراءة القرآن لقوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].
- تُسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم.
- لا بأس بتكرير الآية وترديدها.
- يستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه.

١- زاد المعاد، ابن القيم، ١ / ١٣١.

٢- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه، ١ / ٥٤٩، ح١٤٧٤.

٣- سنن ابن ماجه، أبواب الطهارة وسننها، باب السواك، ١ / ١٩٤، ح٢٩١.

• يُسن تحسين الصوت بالقراءة لحديث الدارمي: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»[٤].

• القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه؛ لأن النظر فيه عبادة.

• يكره قطع القراءة لمكالمة أحد، فضلاً عن الكراهية مع الضحك والعبث.

• لا تجوز قراءة القرآن بالأعجمية مطلقاً، سواء، أحسن العربية أم لا، في صلاة أو خارجها.

• يُسن الاستماع لقراءة القرآن، وترك اللغط والحديث بحضور القراءة.

• يُسن السجود عند قراءة آية السجدة.

• يُستحب التكبير من «الضحى» إلى آخر القرآن، ويسن صوم يوم الختم والدعاء عقبه.

• يُكره أن يقول نسيت آية كذا، بل أَنسيتها، للنهي عن ذلك.

٤- مسند الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب التغني بالقرآن، ٤ / ٢١٩٤، ح ٣٥٤٤.

أسئلة للمناقشة

١. ما تنزلات القرآن مع ذكر الدليل.

٢. كيف توفق بين الآيات الآتية:

٣. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، وقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٤. ما حكمة نزوله إلى بيت العزة جملة؟

٥. اذكر حِكَم نزول القرآن الكريم منجمًا، واشرح اثنين منها بالتفصيل.

٦. ما أول ما نزل من القرآن؟

٧. كيف ترد على من زعم أن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١].

٨. وضح أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن.

٩. ماأول مانزل في الأطعمة؟، وماأول مانزل في الخمر؟، وماأول مانزل في القتال؟

١٠. بيّن فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل.

١١. عرّف القراءات، وبيّن علاقتها بالقرآن.

١٢. ما أقسام القراءات؟

١٣. ما أركان القراءة الصحيحة؟

١٤. كيف ترد على من زعم أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة.

١٥. وضح المراد بالأحرف السبعة، وبيّن حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف.

١٦. لاختلاف القراءات فوائد عدة، اذكر ثلاثة منها.

١٧. بيّن مراتب القراءة، وآداب التلاوة.

الفصل الثالث: المكي والمدني

ليس المقصود هنا أن نستقصي بالتفصيل آيات القرآن الكريم وسوره. وأن نحقق ما كان منها مكيًا وما كان مدنيًا، فتلك محاولة كبيرة جديرة أن تفرد بالتأليف، وقد أفردها فعلاً بالتأليف جماعة منهم عز الدين الديريني (٦٩٤هـ) ومكي بن حموش القيسي (٤٣٧هـ).

ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على تعريفات المكي والمدني، وعلى فضل العلم بالمكي والمدني، وعلى الطريق الموصلة إليه، وعلى الضوابط التي يعرف بها، وعلى السور المكية والمدنية المختلف فيها، وعلى أنواع السور المكية والمدنية، وذلك في المباحث التالية.

المبحث الأول: تعريف المكي والمدني

للعلماء في تعريف المكي والمدني أقوال أهمها[1]:

(الأول) أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل على النبي ﷺ بمنى وعرفات والحديبية. ويدخل في المدينة ضواحيها أيضًا كالمنزل عليه في بدر وأُحُد.

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى، لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢] إلخ فإنها نزلت بتبوك[2]، وقوله سبحانه في سورة الزخرف ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] إلخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء[3].

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ١٩٣، دراسات في علوم القرآن، للرومي، ص٤٥.

٢- تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦١.

٣- السورة مكية.

(الثاني) أن المكي ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابًا لأهل المدينة، وعليه يحمل قول من قال: إن ما صدر في القرآن بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾ فهو مكي؛ وما صدر فيه بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدني؛ لأن الكفر كان غالبًا على أهل مكة فخوطبوا بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم. ولأن الإيمان كان غالبًا على أهل المدينة، فخوطبوا بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم أيضًا. وألحق بعضهم ﴿يَا بَنِي آدَم﴾ بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾.

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون كما ترى لكنه غير دقيق لورود أشكال من الخطاب غير الصيغ المذكورة نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] إلخ.

ونحو قوله سبحانه في سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] إلخ.

إضافة إلى أن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة «يَا أَيُّهَا الناس»، وهناك آيات مكية صدرت بصيغة «يَا أَيُّهَا الذين آمنوا». مثال الأولى سورة النساء، فإنها مدنية وأولها «يَا أَيُّهَا الناس اتقوا ربكم»، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها «يَا أَيُّهَا الناس أعبدوا ربكم» ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن في أواخرها «يَا أَيُّهَا الذين آمنوا اركعوا واسجدوا» الخ ولو قيل أن المراد الغائب لصح.

(الثالث) وهو المشهور: أن المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وإن كان نزوله بغير المدينة.

وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم.

وعليه فآية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] مدنية، مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع.

وكذلك آية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، مدنية مع أنها نزلت يوم الفتح في جوف الكعبة[1].

والواضح أن هذه التعريفات تميل إلى القياس الذي يعتمد على العقل، علمًا بأن أفضل الطرق للمعرفة السليمة هما الاتجاهان السماعي والقياسي، السماعي: يعتمد على النقل، والقياسي، يعتمد على العقل وهما أساسا المعرفة السليمة.

المبحث الثاني: فائدة العلم بالمكي والمدني:

من فوائد العلم بالمكي والمدني:

أ- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفًا للحكم في غيرها، ثم عُرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظرًا إلى تأخر المدني عن المكي.

ب- معرفة تاريخ التشريع وتدرجه بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

ج- الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام، حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر؛ وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، إلى غير ذلك[2].

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٧٤-٧٥.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٩٥.

المبحث الثالث: كيفية معرفة المكي والمدني، وضوابطهما.

المطلب الأول: كيفية معرفة المكي والمدني:

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك (الاتجاه النقلي)؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيان للمكي والمدني، وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا بحاجة إلى هذا البيان، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عيانًا.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ «وَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ: إِلا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، إِلا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تَبْلُغُهُ الإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[1].

المطلب الثاني: ضوابط معرفة المكي والمدني[2]:

قد عرفنا فيما مضى أن مرد العلم بالمكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين، بيد أن هناك علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني.

أولا: ضوابط المكي:

١. كل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكية. وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاث وثلاثين مرة، في خمس عشرة سورة كلها في النص الأخير من القرآن وذلك؛ لأن كلا للتهديد والتعنيف، وهو ما يليق بحال الجبابرة الذين هم بمكة، وهذا ضابط مطّرد، فالسور المدنية ليس بها سجدة.

١- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ٦ / ١٨٧، ح٥٠٠٢.

٢- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي، ١ / ١٦١، مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٩٦، نفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد، ص٣٤، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة ص٢٢٦، إتقان البرهان في علوم القرآن، لفضل عباس، الأردن، دار الفرقان، ط١، ١٩٩٧م: ١ / ١٧٢.

٢. كل سورة فيها سجدة فهي مكية، وهذا ضابط مطرد، فالسور المدنية ليس بها سجدة.

٣. كل سورة مفتتحة بالحمد فهي مكية، وهي خمس سور(الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر)

٤. كل سورة في أولها حروف التهجي، فهي مكية سوى سورتي البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع. وفي الرعد خلاف.

٥. كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى سورتي البقرة وآل عمران.

٦. كل سورة فيها قصة آدم وابليس فهي مكية سوى سورة البقرة أيضًا.

٧. كل سورة انفردت ب (يا أيها الناس) دون نداء المؤمنين فهي مكية مثل سورة يونس، وسورة الأعراف، أما إذا اجتمع النداءان فالسورة مدنية كسورة البقرة وسورة النساء.

٨. كل سورة فيها لفظ(يا بني آدم) بالنداء فهي مكية.

ثانيًا: ضوابط المدني: فكما يأتي:

١. كل سورة فيها الحدود والفرائض(الميراث)فهي مدنية، كسورة النساء، والمائدة، والنور.

٢. كل سورة فيها (ياأيها الذين آمنوا) فقط وليس فيها (يا أيها الناس).

٣. كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

٤. كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، ما عدا سورة العنكبوت فهي مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية، وهي التي ذكر فيها المنافقون.

المطلب الثالث: مقاصد المكي والمدني[1]:

اتسم القرآن الكريم بمنهج فريد في معالجة قضايا المجتمع، ويظهر لنا هذا بوضوح من خلال ما امتاز به المدني عن المكي.

أولا: مقاصد المكي:

١- يعنى القرآن المكي أولاً بترسيخ الأصول الاعتقادية التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، وهي توحيد الله -عز وجل، وإفراده بالعبادة، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته تعالى، وتصديق الرسل في كل ما جاءوا به، والإيمان بالكتب المنزَّلة، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، إلى آخر ما هنالك من الأصول الاعتقادية.

٢- وعُنِيَ القرآن المكي أيضًا كلَّ العناية بالقضاء على ما ورثوه عن آبائهم، وما ابتدعوه من عند أنفسهم من عادات سيئة، ومعتقدات فاسدة، كسفك الدماء، وأكل مال اليتيم، ووأد البنات، والتطفيف في الكيل والميزان، وغير ذلك من الرذائل.

٣- ودعاهم إلى أصول التشريعات العامة، والآداب السامية، بوصفها برهانًا عمليًّا على سلامة الفطرة وصحة الاعتقاد، وجاء التفصيل لهذه الأصول في القرآن المدني، ووضع لها الشروط والقواعد والضوابط.

٤- ولتثبيت هذه الأصول والمعتقدات الصحيحة في قلوب الناس جميعًا؛ مؤمنين وكافرين، كما عُنِيَ القرآن المكي عناية فائقة بأخبار الأنبياء والأمم السابقة، لما فيها من عظاتٍ وعِبَرٍ وتبيانٍ لسنة الله تعالى في هلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين.

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٢٠٢، نفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد، ص٣٤، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة ص٢٢٧.

٥- ومن خواص هذا القسم قِصَرُ معظم آياته وسوره، ولا سيما أوائل ما نزل، ولعل ذلك كان كذلك ليتمكن المؤمنون من حفظه بسهولة ويسر، فهم في أول عهدهم به لم تتعوَّد ألسنتهم على النطق به مرتلاً، كما أمر الله تعالى أن يُتْلَى، وفيهم الشيخ الكبير، والمرأة المسنة، والطفل الصغير، وأكثرهم أُمِّيُّون، فكيف يستطيعون قراءة الآيات الطويلة المقاطع، وهم لم يتعودوا بعد على مثل ذلك، فكان من رحمة الله بهم أن أنزل الله هذه السور القصيرة في آياتها ومقاطعها ليتمكنوا من حفظها وتلاوتها في يسر ونشاط.

ثانيًا: أما مقاصد القرآن المدني فهي -كما قلنا- تابعة للمقاصد السابقة، ومبنية عليها، ومبيِّنَة لمجملها، و يمكننا أن نجملها فيما يلي:

١- بيان الأحكام العقدية والشرعية بالتفصيل، بيانًا يكشف دقائقها وأسبابها، وشروط صحتها، والحكمة من تشريعها.

٢- ظهرت في العهد المدني تشريعات لم تكن في العهد المكي، مثل مشروعية الصوم، ومشروعية القتال، وفريضة الحج، وتحريم الخمر، وتحريم الربا، وغير ذلك.

٣- الكشف عن أحوال المنافقين، الذين كانوا أشدَّ الناس خطرًا على الإسلام والمسلمين، وبيان ما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر وخداع، وحرص وطمع، وإعلام المسلمين بمآلهم بعد إعلامهم بحالهم، إيصائهم باتخاذ الحيطة والحذر من كيدهم وألاعيبهم، ومراقبتهم في جميع تصرفاتهم المغرضة، ومجاهدتهم بالحجة والبرهان، والإغلاظ عليهم في القول والمعاملة، مع بذل النصح لهم بالرجوع إلى الله تعالى، والتمسُّك بدينه الحنيف.

٤- دعوة أهل الكِتَاب إلى الإسلام ومجادلتهم بالحُجَّة والبرهان في معتقداتهم الباطلة، وشبههم المزيفة، وبيان جناياتهم على الكتب السماوية بالتحريف

والتبديل، وردِّهم عن غيِّهم إلى الرشد الذي جاءهم به الإسلام.

المطلب الرابع: مقاصد الشريعة والعلاقة بين المكي والمدني:

لاحظ الشاطبي -رحمه الله- تلك العلاقة، فمقاصد التشريع العليا، وأسسه الكبرى، تم إرساؤها في القرآن المكي، جنبا إلى جنب مع أصول العقيدة وأسسها. ثم بيّن ذلك - رحمه الله- بإرجاع الأصول الخمسة إلى أدلتها من القرآن المكي:

أما حفظ الدين وتصحيح الإيمان وتثبيته في القرآن المكي، فمسألة أشهر وأوضح من أن تحتاج إلى دليل أو مثال، حتى لقد شاع - خطأ- أن القرآن المكي لا يحتوي إلا على هذا، وهي الفكرة التي يصححها الإمام الشاطبي من خلال بيان ما اشتمل عليه القرآن المكي من قواعد وكليات تشريعية.

وأما حفظ النفس، فقد نص عليه في كثير من الآيات المكية كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الإسراء: ٣٣] وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨ - ٩]، وغيرهما.

وحفظ النفس يتضمن حفظ العقل. وأما «تكميل» حفظ العقل، فقد جاء في المدينة بتحريم المسكرات، وإقامة الحد عليها. فالحفظ الأول أساس الحفظ الثاني، وهذا هو المراد بيانه في هذا السياق. حفظ النسل، أيضًا، جاء بمكة، بتحريم الزنى، والأمر بحفظ الفروج عن الحرام. وكذلك حفظ المال، يحققه ما جاء في المكي من تحريم الظلم، وأكل مال اليتيم والإسراف، والبغي، ونقص المكيال والميزان، والفساد في الأرض.

ومن هذا الباب أيضًا: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما ضروريان لحفظ الأصول المتقدمة، قد جاء النص عليهما بمكة، كما في الآية: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [لقمان: ١٧]. وما الجهاد الذي شرع بالمدينة إلا فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حتى موضوع «النسخ»، استصحب الشاطبي معه مقاصده وكلياته: فأعاد التذكير -في المسألة الأولى من مسائل النسخ- بأن «القواعد الكلية هي الموضوعة أولا، والتي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها القواعد التي وضع أصلها بمكة.

وليس هذا من الشاطبي مجرد تكرار لفكرته عن التشريع بين المكي والمدني، على أهميتها، وإنما أعاد الفكرة هنا، وفصل فيها أكثر، لما يريد أنه يبنيه عليها في موضوع النسخ، وذلك قوله -في المسألة الثانية-: «لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية، والقواعد الأصولية في الدين، على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعًا، وإن أمكن عقلاً.

ويدل على ذلك الاستقراء التام، أن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة مايقويها ويحكمها ويحصنها. وإذا كان كذلك. لم يثبت نسخ لكلي ألبتة. ومن استقرى كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة.

وعند تطرقه إلى الحديث عن السنة- بعد الحديث عن القرآن- وقف وقفة أخرى، استخدم فيها النظرة «المقاصدية»، في الربط بين أدلة الشريعة، قرآنا وسنة، وفي الربط بين مناحي البناء التشريعي بكلياته وجزئياته.

فكما أنه -رحمه الله- لاحظ أن القرآن المدني بتفصيلاته، قد بني على القرآن المكي وكلياته، لاحظ أيضًا -وبيّن- أن السنة قد بنيت -بشكل تام- على القرآن الكريم؛ لأن مدارهما واحد، هو مقاصد الشريعة في إقامة المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية[1].

١- ينظر: الموافقات، الشاطبي ٣ / ٤٦-٤٧، نظرية المقاصد عند الشاطبي، أحمد الريسوني، ١ / ١٥١ وما بعدها.

أسئلة للمناقشة

١. اذكر أقوال العلماء في تعريف المكي والمدني، مع بيان الراجح.

٢. ما فوائد العلم بالمكي والمدني؟

٣. ما طرق معرفة المكي والمدني؟

٤. للمكي والمدني ضوابط عدة، اذكر ثلاثة منها.

٥. ما مقاصد المكي والمدني؟

٦. قارن بين المكي والمدني من حيث التعريف، والضوابط، والمقاصد.

٧. ميز المكي من المدني فيما يأتي مع ذكر السبب.

٨. قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾

٩. قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ الانشقاق: ٢١

١٠. قال تعالى ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم، ١].

١١. قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]

١٢. قال تعالى ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]



الفصل الرابع: في جمع القرآن وكتابته وترتيبه

المبحث الأول: جمع القرآن.

مدخل: تطلق كلمة «جمع» ويراد بها كتابة حروف القرآن وكلماته وآياته وسوره، وقد يراد بها حفظه واستظهاره في الصدور. والأولى مقصود هنا. وقد حدث الجمع في ثلاث مرات: الأولى في عهد النبي ﷺ، والثانية في خلافة أبي بكر الصديق، والثالثة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وقد نسخت المصاحف في المرة الثالثة وأرسلها عثمان إلى الآفاق.

المطلب الأول: جمع القرآن في الصدور:

لقد بلغ من حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن، أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجه وشدته، وهو يعاني ما يعاني من الوحي وشدته، كان فعله استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه، حتى اطمأن إلى ذلك من خلال وعد ربه له قال تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩][١].

أما الصحابة رضي الله عنهم، فكان اهتمامهم شديدًا بالقرآن الكريم، فكانوا يتنافسون في حفظه وفهمه وتلاوته حتى كان لهم به دوى كدوي النحل، ووصل الأمر أن جعلوا القرآن مهر الزوجة؛ يعلمها إياها[٢].

لقد حفظ القرآن مجموعة كبيرة من الصحابة، جمعوه في قلوبهم ووعوه بعقولهم؛ لأن هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم، ولأن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب.

١- سورة القيامة آية ١٦-١٧

٢- مسند الشافعي ٣ / ٣٣.

منهم: الخلفاء الأربعة وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن مسعود، وأبو هريرة، وابن عباس، وابن الزبير، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبوه، وغيرهم من المهاجرين، ومن الأنصار: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وأبو زيد.

أما رواية أنس عند البخاري والتي جاء فيها عن قتادة قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالك رَضيَ اللهُ عَنْهُ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؟ قَالَ: أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ»[١].

فقد أجاب عنها العلماء بعدة أجوبة هي:

١- فلا يلزم أن يكون غيرهم جمعه.

٢- المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلا أولئك.

٣- إن المراد بجمعه تلقيه من فيِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا واسطة بخلاف غيرهم.

٤- أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه فاشتهروا به، وخفي حال غيرهم.

٥- المراد بالجمع الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظا على ظهر قلب، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب[٢].

١- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ٦ / ١٨٧ ح٥٠٠٣.

٢- الإتقان في علوم القرآن، ١ / ٢٤٦، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي، ١١ / ٣٣٤، المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص٢٦٤.

٦- قال ابن حجر: «المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط، بقرينة المفاخرة[١]، فلا ينفي ذلك من غير القبيلتين من المهاجرين ومن جاء بعدهم»[٢].

كتابته في عهد الرسول ﷺ:

اتخذ النبي ﷺ مجموعة من أصحابه ليقوموا بمهمة كبيرة، هي كتاب القرآن الكريم، وعرفوا هؤلاء «بكتّاب الوحي» فكان النبيﷺ عليه شيء من القرآن أمرهم بكتابته، زيادة في التوثيق. منهم: معاوية بن أبي سفيان، وأبان بن سعيد، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس، وخالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب، وكانوا يكتبون على العُسُب[٣] واللِخَاف[٤] والرِّقاع[٥]، والأكتاف[٦]، وقطع الأديم[٧]. ومما هو معلوم أن النبي ﷺ كان يدلهم على موضع المكتوب من سورته.

١- وحديث المفاخرة في المستدرك على الصحيحين ٤ / ٨٠ ح٧٠٦٩ ونصه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: افْتَخَرَ الْحَيَّانِ مِنَ الأَنْصَارِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، فَقَالَتِ الأَوْسُ: مِنَّا مَنِ اهْتَزَّ لِمَوْتِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمِنَّا مَنْ حَمَتْهُ الدَّبْرُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الأَفْلَحِ، وَمِنَّا مَنْ غَسَّلَتْهُ الْمَلائِكَةُ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمِنَّا مَنْ أُجِيزَتْ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَقَالَ الْخَزْرَجِيُّونَ: مِنَّا أَرْبَعَةٌ جَمَعُوا الْقُرْآنَ لَمْ يَجْمَعْهُ غَيْرُهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ. قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٢- فتح الباري لابن حجر، ٩ / ٥١.

٣- العُسُب: جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون على الطرف العريض منه. تهذيب اللغة، الأزهري، ٢ / ٦٨.

٤- اللخَاف: حجارة بيض رقاق. تهذيب اللغة، الأزهري، ٧ / ١٦٨.

٥- الرِّقاع: جمع رُقْعة، وهي التي يكتب فيها، وتكون من جلد أو كاغد. لسان العرب، ٣ / ١٧٠٥، مادة (رقع).

٦- الأكتاف: جمع كتف، وهو عظم عريض يكون في أَصل كتف الحيوان من الناس والدوابّ، كانوا يكتُبون فيه لقِلة القَراطِيس. لسان العرب، لابن منظور، ٩ / ٢٩٤.

٧- الأديم: الجلد المدبوغ والجمع: أدم. المصباح المنير، للفيومي ص١١.

وهكذا انقضى العهد النبوي الزاهر والقرآن مجموع على هذا النمط، بيد أنه لم يكتب في مصاحف، بل كتب منشورًا كما رأينا.

وفي علة عدم كتابته في مصحف، يقول الخطابي «إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه من الله على هذه الأمة[1].

ويُبيّن زيد بن ثابت طريقته في كتابة القرآن فيقول: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ »[2].

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول «ضعوا كذا في موضع كذا» ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل.

وهذا ما دعا البيهقي لقول: شبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ[3].

المطلب الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

دارت الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، واستشهد فيها كثير من القراء. هال ذلك المسلمين وأزعجهم، خشية ضياع القرآن بموت حفظته، فاقترح عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن الكريم.

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٢٠٢.

٢- المستدرك على الصحيحين، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر أخبار سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، تأليف القرآن في عهد رسول الله ﷺ، ٢ / ٦١١، ح ٤٢٤٠.

٣- شعب الإيمان ١ / ٣٤٣.

لقد تردد أبو بكر رضي الله عنه أول الأمر وما ذلك إلا؛ لأنه كان شديد الاتباع لرسول ﷺ.. لذا تردد كثيرًا في هذا الأمر، وما زال عمر رضي الله عنه به حتى شرح الله صدره، لأن جمع القرآن من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف والمحافظة عليه من الضياع والتحريف وأنه ليس من محدثات الأمور.

تنفيذ الاقتراح:

كان لا بد أن يفكر أبو بكر الصديق في من يقوم بهذه المهمة، وكان لا بد أن يمتلك من يقوم بهذا العمل المؤهلات التي تؤهله لهذا العمل الجليل، وتتمثل فيه مواهب واستعدادات خاصة، قد لا تجتمع في غيره من الرجال.

وها نحن ندع المجال لزيد بن ثابت ليحدثنا عن هذه الواقعة:

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ، مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»[1].

سبب جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق:

دلت الأحاديث الواردة في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أن سبب جمعه يعود إلى خوف الصحابة رضوان الله عليهم من ذهاب شيء من القرآن بذهاب حفاظه باستشهادهم في المعارك أو موتهم، فكتابته مجموعا في مصحف واحد فيه أمان وحفظ له مما قد يحصل في المستقبل، ويدل لهذا ما أفصح عنه عمر رضي الله عنه كما في الحديث السابق- بقوله: «إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن» فذهاب بعض القراء قد يعني ذهاب الآخرين، فبهذا العمل أمكن تدارك الأمر منذ بدايته.

المؤهلات التي استوجبت تقديم زيد ين ثابت لجمع القرآن:

من الرواية السابق يتبين لنا أن اختيار الصديق زيد بن ثابت لجمع القرآن لم يأت محاباة منه، إنما كان هذا الاختيار؛ لأن زيدًا انفرد بمواصفات خاصة تميزه عن غيره، وقد أفصح الصديق رضي الله عنه كما في الحديث السابق، أنه قال لزيد: «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه». ويمكن لنا تلخيص هذه المؤهلات في الآتي:

١. أنه رجل شاب، ولا يخفى على أحد ما يتميز به الشباب من النشاط، والاستمرار في العمل بلا فتور.
٢. أن زيدًا كان من حفظة القرآن.

١- صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ٦ / ١٨٣، ح٤٩٨٦.

٣. أنه كان من كتّاب الوحي، فهو يَخبُر هذا العمل، وهذه مزية تستوجب تقديمه.

٤. أنه كان معروفًا برجاحة عقله وشدة ورعه.

٥. أمانته واستقامته، ومن كان كذلك فلا يتطرق إليه تجريح أو غيره.

٦. تميزه بشدة الضبط وحسن الخط، وإلا لما كان من كتّاب الوحي.

٧. أنه شهد العرضة الأخيرة.

لهذه الأسباب وغيرها كان اختيار الصديق رضي الله عنه لزيد بن ثابت وكان اختيارًا موفقًا، خلا أن زيدًا لم يوافق أول الأمر، وإنما تردد فلم يزل الصديق يراجعه حتى شرح الله صدره لهذا الأمر.

ويعلل ذلك ابن بطال فيقول: «إنما نفر أبو بكر أولا، ثم زيد بن ثابت ثانيا، لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول[1]».

مواصفات الجمع:

لقد انتهج زيد في القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر، فيها ضمان وتثبت وحذر بالغ، فلم يكتف بما حفظ قلبه ولا بما كتبه بيده ولا بما سمعه بإذنه؛ بل اعتمد على مصدرين:

أحدهما: ما كتب بين يدي الرسول ﷺ.

الثاني: ما كان محفوظًا في صدور الرجال. وفيما يلي بعض المواصفات:

قال يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح

١- فتح الباري، لابن حجر، ٩ / ١٣.

والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان[1].

ويدل عليه ما أخبر به هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر وزيد: اقْعدَا عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَمَنْ جَاءَكُمَا بِشَاهِدَيْنِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ فَاكْتُبَاهُ[2].

وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوبًا، وإنما كان يطلب شاهدين، يشهدان أن هذا المكتوب كتب بين يدي النبي ﷺ أو روجع على قراءته، أو سمعه وأقره. وكان ذلك مبالغة في الاحتياط.

فليس المقصود بالشهادة هنا الشهادة على قرآنية المكتوب إنما «المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل فيها القرآن.

وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ، لا من مجرد الحفظ.

وروى عن الليث بن سعد قال: أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ أَبُو بَكْرٍ وَكَتَبَهُ زَيْدٌ، وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَكَانَ لا يَكْتُبُ آيَةً إلا بشَاهدَيْ عَدْلٍ، وَإِنَّ آخرَ سُورَةِ بَرَاءَةَ لَمْ تُوجَدْ إلا مع أَبِي خُزَيْمَةَ بْن ثابتٍ فَقَالَ: اكْتُبُوهَا فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَعَلَ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ فَكَتَبَ. وَإِنَّ عُمَرَ أَتَى بِآيَةِ الرَّجْمِ فَلَمْ يَكْتُبْهَا، لأَنَّهُ كَانَ وَحْدَهُ[3].

قال علي ﷺ: إن أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر الصديق، كان أول

١- المصاحف لابن أبي داود ص١١٣، الإتقان، للسيوطي، ١ / ٢٠٥.

٢- المصاحف لابن أبي داود ص٥١، قال ابن حجر: رجاله ثقات مع انقطاعه. فتح الباري، لابن حجر، ٩ / ١٤.

٣- رواه أبو داود، وهو حديث رجاله ثقات وإن كان منقطعًا. قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة. ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٩ / ١٥.

من جمع القرآن بين اللوحين»[1].

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده، ثم حفظها عمر بعده، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر حتى طلبها عثمان بن عفان ﷺ حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن ثم ردها إليها.

مميزات جمع أبي بكر:

امتاز جمع أبي بكر بما يأتي:

١- أن القرآن حظي بأعلى طرق التثبت والاستيثاق.

٢- أنه كان مرتب الآيات.

٣- اقتصاره على ما لم تنسخ تلاوته، وتجريده مما ليس بقرآن.

٤- تميزه بالدقة والسلامة من الزيادة والنقصان.

٥- اشتماله على الأحرف السبعة.

٦- ظفر بإجماع الأمة وتواتر ما فيه.

تسميته بالمصحف:

روى السيوطي عن ابن أشته في كتابه المصاحف أنه قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق، قال أبو بكر: التمسوا له اسمًا، فقال بعضهم: السِّفْر.

وقال بعضهم: المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف.

وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه «المصحف»[2].

١- المصاحف لابن أبي داود ص٤٩.

٢- الإتقان، للسيوطي، ١ / ١٨٥.

المطلب الثالث: الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه:

سبق أن قلنا: إن القرآن جمع كله في عهد الخليفة الأول أبي بكر، وظلت هذه الصحف عنده ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب في خلافته ثم إلى السيدة حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ليكون مصونًا محفوظًا يرجع إليه عند الحاجة.

بقيت تلك الصحف عند السيدة حفصة حتى خلافة عثمان رضي الله عنه فلما اتسعت الفتوحات في زمن الفتوحات في زمن عثمان، واستجد العمران وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن، وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل، وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر منهم من الصحابة، فأهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، بل كان الشقاق أشد، لبعد عهد هؤلاء بالنبوة وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه ويرجعون جميعًا إلى رأيه.

واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بعضًا، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، ولم يقف هذا الخلاف عند حد، بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على السواء.

وها هو الإمام البخاري يروي لنا سبب جمع عثمان للقرآن:

أخرج البخاري عن أنس أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا

فِي الْكِتَابِ، اخْتِلافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ[1].

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، بل كان كل صحابي في قطر يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد.

لهذه الأسباب والأحداث، رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووضع حدًا لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف ترسل إلى الأمصار، وحرق كل ما عداها، وألا يعتدوا بسواها، وبذلك يرأب الصدع ويجبر الكسر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي، وحكمهم العدل في ذلك النزاع والمراء. وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء[2].

١- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ٦ / ١٨٣، ح٤٩٨٧.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٢٥٧.

تنفيذ قرار الجمع:

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم، في أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة، فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من الصحابة وثقات الحفاظ، وهم:

١- زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي، أحد كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وهو الذي كلفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمع المصحف في عهده. توفي سنة ٤٢هـ وقيل ٤٣هـ وقيل ٤٥هـ[١].

٢- عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي، أحد العبادلة الذين اشتهروا بالعلم، وعنوا بحفظ القرآن الكريم. توفي سنة ٧٣هـ[٢].

٣- سعيد بن العاص القرشي الأموي، كان من فصحاء قريش، ومما قيل فيه: إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص؛ لأنه كان أشبه الصحابة بلهجة رسول الله ﷺ. توفي سنة ٥٩هـ[٣].

٤- عبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشي المخزومي، كان من أشراف قريش، نشأ في حجر عمر، وتزوج بنت عثمان رضي الله عنهم، مات سنة ٤٣هـ[٤].

وجاء في بعض الروايات أن الذين ندبوا للنسخ كانوا اثنى عشر رجلاً.

ولا تنافي بين الروايات، إذ الأربعة هم من يباشرون هذا العمل، وساهم الباقون معهم في هذا العمل الذي تنوء به الجبال.

١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر: ٢ / ٥٣٧، الأعلام للزركلي، ٣ / ٥٧.

٢- تاريخ دمشق لابن عساكر، ٢٨ / ١٤٠، سير أعلام النبلاء، ٣ / ٣٦٣.

٣- الطبقات الكبرى، لابن سعد، ٥ / ٢١، التاريخ الكبير، للبخاري، ٣ / ٥٠٢.

٤- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، ١٧ / ٣٩، الأعلام، للزركلي، ٣ / ٣٠٣.

منهج عثمان في نسخ المصاحف:

وضع عثمان رضي الله عنه لنسخ المصاحف منهجًا حكيمًا تمثل في الآتي:

١- الاعتماد على الصحف التي جمعها زيد بن ثابت - رضي الله عنه - في عهد أبي بكر الصديق، والتي كانت عند حفصة رضي الله تعالى عنها، حيث قال لها: «أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك».

٢- تعاهده المستمر لهذا العمل، قال كثير بن أفلح: «كان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخروه»[١].

أخرج البخاري أن ابن الزبير (أحد أعضاء اللجنة) قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] إِلَى قَوْلِهِ (غَيْرَ إِخْرَاجٍ) [البقرة: ٢٤٠] قَدْ نَسَخَتْهَا الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قَالَ: تَدَعُهَا يَا ابْنَ أَخِي، لا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ[٢].

٣- كتابة ما تحققوا أنه قرآن قد استقر في العرضة الأخيرة، وأيقنوا صحته عن النبي ﷺ مما لم ينسخ، وتركوا ما سوى ذلك.

٤- الاقتصار على حرف واحد من الأحرف السبعة.

٥- كتابة الكلمات التي تواترت فيها القراءات برسم يحتمل القراءات الواردة فيها، وساعد على ذلك عدم التشكيل، وعدم التنقيط.

نحو (فتبينوا) من قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] فإنها تصح أن تقرأ «فتثبتوا» عند خلوها من النقط والشكل وهي قراءة أخرى[٣].

١- المصاحف لابن أبي داود، ص١٠٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا ٦ / ٣١، ح٤٥٣٦.

٣- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري٢ / ٢٥١.

وكذلك كلمة «ننشزها» من قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] فكان تجردها من النقط والشكل يجعلها تقرأ «ننشزها» و «ننشرها»[١].

٦- أما الكلمات التي تواترت فيها القراءات ولا يمكن كتابتها برسمها وتحتمل القراءات فيها، فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية، كقراءة «وصى» بالتضعيف (وأوصي) بالهمز، وهما قراءتان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢][٢].

٧- الاحتكام عند الاختلاف إلى لغة قريش، حيث قال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم»[٣].

حرق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة للمصاحف التي نسخت:

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة، عمل على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها، سواء أكانت صحفًا أو مصاحف وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية، وليحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله من ناحية أخرى، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر في غيرها.

وقد استجاب الصحابة لعثمان، فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعًا على المصاحف العثمانية، حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان وأنه أبى أن يحرق مصحفه، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة، حين ظهر له

١- التيسير في القراءات السبع، للداني ص٨٢.

٢- المقنع في رسم مصاحف الأمصار، للداني ص١٠٦.

٣- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن٦ / ١٨٣، ح٤٩٨٧.

مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها.

فرضي الله عن عثمان وأرضاه، إذ قام بهذا العمل الجليل، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار خيره العظيم.

ولن يقدح في عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية، فقد علمت وجهة نظره في ذلك، على أنه ما فعل من هذا الأمر الجليل إلا بعد أن استشار الصحابة، واكتسب موافقتهم، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم، فكان ذلك إجماعًا منهم على ذلك.

مزايا جمع عثمان رضي الله عنه:

١. الاقتصار على ما يثبت بالتواتر، دون ما كانت روايته آحادًا.

٢. إهمال ما نسخت تلاوته.

٣. ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صحف أبي بكر فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.

٤. كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن، على ما مر بك من عدم إعجامها وشكلها، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.

٥. تجريدها من كل ما ليس قرآنا كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحًا لمعنى، أو بيانًا لناسخ ومنسوخ، أو نحو ذلك.

عدد المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه:

اختلف العلماء في عدد المصاحف التي نسخت، فمن قائل: خمسة مصاحف

وهو المشهور وقد أرسلت إلى: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، والخامس بقي في المدينة.

وقول آخر: أنها سبعة أرسلت إلى: مكة، ومصر، والبصرة، والكوفة، والشام، واليمن، والمدينة.

وقول ثالث: أنه أرسل مصحفًا للبحرين. وهناك قول أنها ستة، وقول أنها ثمانية. وعلى أية حال هذا خلاف لا داعي له ولا يمثل شيئًا، فالذي نثق فيه أن عثمان بن عفان استنسخ عددًا من المصاحف تفي بحاجة الأمة الإسلامية وقتها. والأهم أن نعرف أن عثمان بن عفان اختار حفاظًا يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية لتعليم الناس[1].

ويقال لهذه المصاحف (العثمانية)، فهي ليست مكتوبة بخط عثمان، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه وإمارته[2].

المبحث الثاني: ترتيب الآيات والسور:

المطلب الأول: ترتيب الآيات:

أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفي من النبي ﷺ، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، فقد كان جبريل ينزل بالآيات على رسول الله ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها، ثم يقرؤها النبي ﷺ على أصحابه ويأمر كتّاب الوحي بكتابتها، معيّنًا لهم السورة التي تكون فيها الآية وموضع الآية من السورة.

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٤٠٣ وينظر: البداية والنهاية، لابن كثير ٧ / ٢١٧، المصاحف، لابن أبي داود ص ٢٤.

٢- البداية والنهاية، لابن كثير ٧ / ٢١٧، فضائل القرآن لابن كثير ص ١٥.

الأدلة:

قال السيوطي: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وأما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[1].

قال زيد بن ثابت: كنا عند النبي ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ[2].

قال البيهقي: والمراد تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ[3].

وقال عثمان بن عفان- رضي الله عنه-: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: ضَعُوا هَؤُلاءِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الآيَةُ، فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا[4].

ويكفي ثبوت الترتيب قراءته ﷺ لسور كثيرة بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم ثم نقلهم للتابعين على مثل ذلك، حتى وصل إلينا ذلك من غير خلاف.

ومنها: ما روى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا، إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ ثُمَّ صَوَّبَهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يُلْزِقَهُ بِالأَرْضِ، قَالَ: ثُمَّ شَخَصَ بِبَصَرِهِ فَقَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٢١١.

٢- مسند أحمد ٣٥ / ٤٨٤

٣- شعب الإيمان، للبيهقي١ / ٣٤٣.

٤- سنن الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة التوبة ٥ / ٢٧٢، ح٣٠٨٦.

وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] إلى آخرها[١].

ومنها ما أخرجه مسلم عن عمر قال:.. مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ في شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ في الْكَلالَة، وَمَا أَغْلَظَ لي في شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لي فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَلا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟[٢].

فقد دلّه النبي ﷺ على موضع تلك الآية من سورة النساء.

المطلب الثاني: ترتيب السور:

وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي أيضًا، أو هو باجتهاد من الصحابة؟ في ذلك آراء للعلماء.

القول الأول: ترتيب اجتهادي:

قال ابن فارس في كتاب المسائل الخمس: جمع القرآن على ضربين أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي، تولاه النبي ﷺ[٣].

وقد اعتمد أهل هذا الرأي على أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان، فلو كان هذا الترتيب توقيفيًا منقولاً عن النبي ﷺ ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي تصوره لنا الروايات[٤].

وهذا الدليل يمكن الرد عليه بأن اختلاف من خالف من الصحابة في الترتيب إنما كان قبل علمهم بالتوقيف.

١- مسند أحمد ٢٩ / ٤٤١.

٢- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها، ٢ / ٨١، ح٥٦٧.

٣- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٣٧.

٤- المصدر السابق، ١ / ٢٥٣.

القول الثاني: ترتيب توقيفي:

قال الطيبي: أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ[1].

قال عبد الرحمن بن زيد سَمعتُ ابْنَ مَسْعُود يَقُولُ: في بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُولِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي[2].

فذكر ابن مسعود السور نسقا كما استقر ترتيبها.

وعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِه كُلَّ لَيْلَة، جَمَعَ كَفَّيْه ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا [قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ]، و [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ]، و [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ]...[3].

وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاة السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ[4].

قال أبو جعفر النحاس: «وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ: وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن[5].

وأيد هذا الرأي أبو بكر الأنباري فقال: أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٢١٧.

٢- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تأليف القرآن، ٦ / ١٨٥، ح ٤٩٩٤.

٣- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات ٦ / ١٩٠، ح٥٠١٧.

٤- مسند أحمد ٢٨ / ١٨٨، ح١٦٩٨٢.

٥- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٥٨.

لمستخبر، ويقف جبريل والنبي ﷺ على موضع السور والآيات والحروف. كله من النبي ﷺ فمن قدم سورة أو آخرها أفسد نظم القرآن[1].

واحتج أهل هذا القول بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل دائمًا، لكن ذلك لم يكن بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله. بل فصل بين سورها بسورة «قد سمع» والممتحنة والمنافقين «وبدليل أن» طسم الشعراء وطسم القصص «لم يتعاقبا مع تماثلهما، بل فصل بينهما بسور أقصر منها وهي «طس النمل»[2].

وهذا القول هو الراجح لقوة أدلته.

قال العلماء: لترتيب وضع السور في المصحف أسباب، تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم، بحسب الآتي:

أ- بحسب الحروف كما في الحواميم.

ب- الموافقة بين أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد لله، وأول البقرة.

ج- للتوازن في اللفظ، كآخر «تبت» وأول «الإخلاص».

د- المشابهة بين جملة السورة لجملة الأخرى كالضحى وألم نشرح[3].

ترتيب السور في التلاوة:

ترتيب السور في التلاوة، ليس بواجب، إنما هو مندوب. قال النووي في

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٣٥٥.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٣٥٥.

٣- سواء كان هذا الترتيب توقيفيا أو اجتهاديا، فلابد من احترامه، والعمل به، خصوصا في كتابة المصاحف، لأنه يمثل إجماعا صدر من الصحابة، ولأن الخلاف فيه يؤدي إلى فتن كبيرة وفساد عظيم، فوجب سده.

التبيان «قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها..».

ودليل ذلك أن هذا ترتيب المصحف وهو لحكمة فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه.

ولو خالف الموالاة فقراء سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف[1].

قراءة السورة من آخرها إلى أولها:

هذا ممنوع قطعًا؛ لأنه يذهب ببعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات[2].

وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن، وليس من هذا الباب.

المطلب الثالث: تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي:

ناقش مجلس مجمع الفقه الإسلامي في دورته الثانية عشرة بمكة المكرمة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ هذا الموضوع، وبعد الاطلاع على قرار هيئة كبار العلماء بالرياض رقم (٧١) بتاريخ ٢١/ ١٠/ ١٣٩٩هـ قرر عدم جواز تغيير رسم المصحف العثماني، ووجوب بقاء رسم المصحف العثماني على ما هو عليه ليكون حجة خالدة على عدم التسرب أو التغيير أو التحريف، أما الحاجة إلى تعليم القرآن وتسهيل قراءته على الناشئة التي اعتادت الرسم الإملائي الدارج، فإنها تتحقق عن طريق تلقين المعلمين، فالمعلم يتولى تعليم الناشئة خاصة الكلمات القليلة التي وردت في القرآن مثل «الصلوات» و «السماوات» ونحوهما كما

١- التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، تحقيق محمد الحجار، ط٣، دار ابن حزم - بيروت - لبنان، ص٢٣٠.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١/ ٣٥٩.

يجري مثل ذلك في رسم كلمة «هذا وذلك» في قواعد الإملاء الدارجة.

كما قرر المجلس عدم جواز تغيير رسم الأرقام العربية المستعملة حاليًا إلى رسم الأرقام المستعملة في العالم الغربي[1].

أسئلة للمناقشة

١. ما المراد بجمع القرآن؟

٢. تشتمل الآيات التالية على عدة دلالات بيّنها.

قال تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ – ١٩].

٣. اذكر أسماء بعض حفظة القرآن من الصحابة، وهل هم أربعة كما جاء في حديث أنس عند البخاري؟

٤. وضح معنى ما يأتي: (العُسُب، اللِخَاف، الرِّقاع، الأكتاف).

٥. هل جمع القرآن الكريم بين دفتين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟ ولم.

٦. ما المؤهلات التي استوجبت تقديم زيد ين ثابت لجمع القرآن؟

٧. وضح أسباب جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق، ومن الذي أشار بذلك؟

٨. ما مميزات جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن؟

٩. ما أسباب نسخ القرآن الكريم في عهد عثمان؟

١٠. بيّن منهج عثمان رضي الله عنه في نسخ المصاحف.

١- ينظر: غاية المرام شرح مغنى ذوي الأفهام، الشيخ عبد المحسن العبيكان ٢ / ٢١٩ وما بعدها.

١١. هل يقدح في عثمان رضي الله عنه حرقه للمصاحف، ولم؟

١٢. ما مزايا جمع عثمان رضي الله عنه؟

١٣. هل جمع أبو بكر وعثمان المصاحف على الأحرف السبعة أم على حرف واحد؟

١٤. كم عدد المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه؟

١٥. قارن بين جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن الكريم وجمع عثمان رضي الله عنه.

١٦. اشح الحديث الآتي، ثم بين موضع الشاهد في ضوء ما درست.

عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاة السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ.

١٧. هل ترتيب آيات القرآن اجتهادًا أم توقيفًا؟

١٨. بيّن مذاهب العلماء في ترتيب السور مع الترجيح بالأدلة.

١٩. بيّن حكم ترتيب السور في التلاوة، ثم حكم قراءة السورة من آخرها إلى أولها.

٢٠. هل يجوز تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي؟

الفصل الخامس: أسباب النزول

مقدمة:

إن المقصد من دراسة أسباب النزول -هنا- ليس هو الوقوف على معرفة سبب نزول الآيات القرآنية، آية آية، وإنما المقصود الوقوف على نقاط أسباب النزول من حيث تعريفها، وطرق معرفتها، وفوائدها، إلى غير ذلك من موضوعات، ونحاول الربط بين أسباب النزول من حيث إنه فن إسلامي أصيل وبين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون في حياتهم المعاصرة وبخاصة في المنهج التعليمي.

وبين يدي -القارئ الكريم- نوضح بدايات التصنيف في أسباب النزول، فقد ذكر السيوطي -رحمه الله- أن الإمام علي بن عبد الله المديني (ت٢٣٤هـ) من أقدم من أفرد معرفة أسباب النزول بالتصنيف، ولكن هذا المصنف غير مشتهر، كما أشار إلى أن شيخ الإسلام أحمد بن حجر (ت٨٥٢هـ) وضع مصنفًا مات عنه مسودة[1].

ومن أقدم ما وصل إلينا في أسباب النزول، كتاب أسباب النزول للإمام الواحدي (ت٤٦٨هـ) ذكر فيه أسباب نزول الآيات الكريمة، مسندة إلى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أو من دونهم وقد طبع الكتاب مرارًا.

ومن هذه المصنفات أيضًا كتاب لباب النقول في أسباب النزول للحافظ السيوطي (ت٩١١هـ) لخص كتابه من جوامع الحديث والأصول، ومن تفاسير أهل النقول، وقد طبع مرارًا.

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ١٠٧.

المبحث الأول: تعريف سبب النزول لغة واصطلاحًا:

المطلب الأول: تعريف سبب النزول لغة:

يعرف السَّبَب في عرف أهل اللغة بأنه: الحبل، وكل شيء يتوصل به إلى غيره فهو سَبَب، ويقال للطريق: سبب ومنه قوله تعالى ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج آية ١٥][١].

وأسباب ورود الحديث هي الظروف والملابسات التي قيل الحديث فيها.

والسَبَب في الشريعة: عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه[٢].

وفي العرف العام: هو كل شيءٍ يتوصل به إلى مطلوب[٣].

المطلب الثاني: تعريف سبب النزول اصطلاحًا:

هو: «ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة حكمه أيام وقوعه»[٤].

والمعنى: أن حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله – تعالى – ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب السؤال»[٥].

المراد بقوله «أيام وقوعه»

هي «الظروف التي ينزل فيها القرآن متحدثًا عن ذلك السبب سواء أوقع

١- لسان العرب، لابن منظور، ١ / ٤٥٨، مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٣، تاج العروس، للزبيدي، ٣ / ٣٧.

٢- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٢ / ٣١٥، التعريفات، للجرجاني، ص١٥٤.

٣- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، ٢ / ٣١٥.

٤- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٩٤، مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٠٦-١٠٧.

٥- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٠٨.

هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم»[1].

وقوله **«أيام وقوعه»** قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة، كقصص الأنبياء وأممهم وأخبار الساعة وما يتصل بها»[2].

المبحث الثاني: كيفية معرفة سبب النزول؟

قال الواحدي: «لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب[3].

وقد كان علماء السلف يتورعون عن أن يقولوا شيئًا في ذلك دون تثبت.

قال «محمد بن سيرين»: سألت «عبيدة» عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن[4] وهو يعني الصحابة.

فإذا كان هذا قول «ابن سيرين» من أعلام علماء التابعين تحريًا للرواية، ودقة في الفصل، فإنّه يدل على وجوب التثبت والوقوف عند أسباب النزول الصحيحة.

وعليه فإن العلماء يعتمدون معرفة سبب النزول على أسس منها:

١. صحة الرواية عن رسول الله ﷺ، وهذا لا خلاف فيه.

٢. صحة الرواية عن الصحابة، فإن أخبار الصحابي عن مثل هذا، إذا كان صريحًا لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع.

١- المصدر السابق.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٠٨.

٣- أسباب النزول للواحدي ص١٠.

٤- أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص١١ / وذكره ابن حجر في العجاب ١ / ١٩٩، وصححه.

فقد قال الحاكم في المستدرك[1]: إن تفسير الصحابي عند الشيخين مسند[2]، وبه قال الخطيب وأبو منصور البغدادي وابن الصلاح[3]، وقال آخرون بغير ذلك.

لذا فإن المعتمد في ذلك أقوال الصحابة الصحيحة الصريحة في السببية[4].

٣. أما أقوال التابعين فلها شروط هي:

فقد ذهب السيوطي إلى أنّ قول التابعي إذا كان صريحًا في سبب النزول، فإنه يقبل – ويكون مرسلا – إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل آخر[5].

بيان أن سبب النزول ينحصر في أمرين:

١- أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذي روى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ. فَنَزَلَتْ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١][6].

١- كتاب التفسير: ج٢، ص٢٥٨.

٢- الحديث المسند هو: ما اتصل سنده من أوله إلى منتهاه، وأكثر ما يستعمل فيما جاء عن النبي ﷺ تدريب الراوي، للسيوطي ١ / ١٨٢.

٣- توضيح الأفكار للحسيني ١ / ٢٨١.

٤- مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح ص٧٥.

٥- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٣١.

٦- صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة إذا جاء نصر الله، باب قوله: وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب، ٦ / ١٧٩، ح٤٩٧١.

٢- أن يسأل رسول الله ﷺ عن شيء فينزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر[١] منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكي من ذلك.

عن عائشة قالت: تَبَارَكَ الَّذي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إنِّي لاسْمَعُ كَلامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا[٢] إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ الله ! أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَؤُلاءِ الآيَاتِ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي﴾ [المجادلة: ١][٣].

هل لكل آية سبب نزول:

إن دراسة أسباب النزول، لا يعني أن لكل آية سببًا، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفًا على الحوادث والوقائع، أو على الأسئلة والاستفسارات، بل كان القرآن ينزل ابتداء، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة. ذكر السيوطي عن الجعبري: نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال، ليس لكل آية من القرآن سبب خاص لنزولها، بل من الإفراط أن نتوسع في ذلك الفن، فنلتمس لكل آية سببًا لنزولها تكلفًا وتعنتًا، فهناك من آيات القرآن ما نزل ابتداءً مثل الآيات التي تدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهناك نوع من الآيات ليس له سبب نزول سوى الأسباب العامة التي نزلت من أجلها الشرائع، وهي هداية

١- الظهار: قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، لقاسم الحنفي (٩٧٨هـ)، ص٥٧.

٢- أوس بن الصامت.

٣- سنن ابن ماجه، أبواب الطلاق، باب المظاهر يجامع قبل أن يُكفّر ٣ / ٢١٤ ح٢٠٦٣، وصححه الأرنؤوط المستدرك على الصحيحين للحاكم: كتاب التفسير، تفسير سورة المجادلة، ٢ / ٥٢٣، ح٣٧٩١.

البشر وتنظيم حياتهم وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم[١].

المبحث الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول

ذكر السيوطي: أن بعض الناس زعم أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخًا للنزول أو جارية مجرى التاريخ[٢]، وسوف نبين أهمية وفوائد هذا العلم من خلال عرض الحكم والفوائد مع إيضاح ذلك بالأمثلة الموضحة:

(الأولى): معرفة حكمة الله تعالى الباعثة على تشريع الحكم، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن؛ أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام، ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان - إن كان منصفًا - حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والطغيان، خصوصًا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد. وحسبك شاهدًا على هذا تحريم الخمر والربا وما نزل فيهما[٣].

(الثانية): الوقوف على معنى الآية وإزالة الإشكال عنها، حتى لقد قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[٤].

وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب، يورث العلم بالمسبب أ.هـ[٥].

١- ينظر الإتقان، للسيوطي، ١ / ٣٨، علوم القرآن والتفسير، د. عبد الله شحاتة ص٩٣.
٢- الإتقان في علوم القرآن، ١ / ٣٨.
٣- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٢، مناهل العرفان، للزرقاني ١ / ١٠٩.
٤- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٢ - ٢٣.
٥- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٣٨.

مثال ذلك:

أُشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه أن يفهم فرضية السعي بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]

جاء في الصحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قُلْتُ لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا يَوْمَئِذ حَدِيثُ السِّنِّ: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فَمَا أَرَى عَلَى أَحَد شَيْئًا أَنْ لا يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلا، لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ، كَانَتْ: فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْد[١]، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطَّوَّفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨][٢].

وإشكاله نشأ من أن الآية الكريمة نفت الجناح، ونفي الجناح لا يتفق والفرضية في رأيه، وبقي في إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأفهمته أن نفي الجناح هنا ليس نفيًا للفرضية، إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين يومئذ من أن السعي بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية[٣].

وهنا يتبين لنا فقه السيد عائشة رضى الله عنها ومكانتها، فقد أزالت اللبس الذي وقع فيه عروة رضي الله عنه، وبينت له أن الآية جاءت لتزيل الحرج من نفوس المسلمين الذين كانوا يتحرجون من السعي بين الصفا والمروة.

١- قُدَيد: جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه. المباركفوري- تحفة الأحوذي: ٨/ ٢٤٢.

٢- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله إن الصفا والمروة من شعائر الله ٦ / ٢٣، ح٤٤٩٥.

٣- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١١٠.

الثالثة: دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر: نحو قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥] [١].

فالآية قد حصرت المحرمات من المطعومات في أربعة هي: الميتة، ولحم الخنزير، والدم، وما أهل لغير الله.

ولما كانت المحرمات غير محصورة في هذه الأربعة، اختلف العلماء في المراد بالحصر فذهب البعض إلى أن الحصر في الآية حقيقي، وذهب البعض إلى أن الحصر هنا غير مراد.

وسبب نزول الآية هو الذي يبين المعنى المراد، وكان من أبرع من تنبه إلى هذا هو الشافعي رحمه تعالى حيث قال: «إنّ الكفار لمّا حرّموا ما أحلّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا على المضادَّة والمحادّة جاءت الآية مناقضة لغرضهم. فكأنه قال: لا حلال إلَّا ما حرمتموه، ولا حرام إلَّا ما أحللتموه. نازلاً منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا آكل اليوم إلَّا حلاوة، والغرض: المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: «لا حرام إلَّا ما أحللتموه من الميتة، والدم، ولحم الخنزيز وما أُهلَّ لغير الله به» ولم يقصد حِلَّ ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم، لا إثبات الحِلَّ»[٢].

(الرابعة): تخصيص الحكم بالسبب، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، لا بعموم اللفظ، فآيات الظهار في بداية سورة المجادلة سببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت حكيم بن ثعلبة.

فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ، أي أن لفظ الآية يشملهما ويشمل كل من فعل فعلهما، وذهب البعض إلى أن العبرة بخصوص السبب،

١- سورة الأنعام ١٤٥.

٢- البرهان في علوم القرآن، ١ / ٢٣، وينظر: الأم، للشافعي، ٢ / ٢٠٧. ط / الشعب.

وعليه فالآية تخص من نزلت فيه، أما غيره ممن فعل فعله، فإنه يدخل بالقياس أو بدليل آخر.

وبدهي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه، إلا إذا علم السبب. وبدون معرفة السبب تصير الآية معطلة خالية من الفائدة»[1].

(**الخامسة**): تثبيت الوحي، وتيسير الحفظ والفهم، وتأكيد الحكم في ذهن من يسمع الآية، إذا عرف سببها؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص، والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء؛ وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند تذكر ما يقارنها، وذلك فيما يعرف في علم النفس بقانون «تداعي المعاني»[2].

(**السادسة**): معرفة أسباب النزول تفيد في تعيين الشخص الذي نزلت فيه الآية حتى لا يشتبه بغيره فيظلم بها بريئًا كالذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف ١٧].

ففي الصحيح عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الْحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ، فَخَطَبَ فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيه، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ فيه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾ [الأحقاف: ١٧]، فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي[3].

١- مناهل العرفان، ١ / ١١٣، دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ١٤٦.

٢- المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة ص١٤٣

٣- صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب (والذي قال لوالديه أف لكما) ٦ / ١٣٣، ح٤٨٢٧.

المبحث الرابع: التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات الرواة في التعبير عن سبب النزول، فتارة يصرح فيها بلفظ السبب فيقال: (سبب نزول الآية كذا) وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها.

وتارة لا يصرح بلفظ السبب، ولكن يُؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة (فأنزل)، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضًا.

ومرة يسأل الرسول ﷺ، فيُوحي إليه، ويجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبير بلفظ سبب النزول، ولا تعبير بتلك الفاء، ولكن السببية تفهم قطعًا من المقام. كرواية ابن مسعود - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في حَرْثٍ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنَ الرُّوحِ؟ فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥][1].

وحكم هذه أيضًا حكم ما هو نص في السببية.

ومرة لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبني على السؤال، بل يقال (نزلت هذه الآية في كذا مثلاً). وهذه العبارة ليست نصا في السببية، بل تحتملها وتحتمل أمرًا آخر، هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام. والقرائن وحدها هي التي تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه.

١- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ] ٣ / ٢١٧، ح ٤٧٢١، قال أبو شهبة: «هذه الرواية وإن لم تصرح بالسبب إلا أن السببية مفهومة من فحوى القصة؛ لأنه ذَكَرَ الحالة التي يكون عليها النبي ﷺ عند نزول الوحي، ثم ذكر الآية عقب ذلك، كالنص على السببية» ينظر: حاشية المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة، ١٤٧.

وعليه: إذا وردت عبارتان في موضوع واحد: إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصًا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية؛ لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل.

أمثلة:

أ- ما رواه جابر قال: كَانَت الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣][1]

ب- عن نَافِعٍ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ قَالَ: تَدْرِي فِيمَ أُنْزِلَتْ؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ مَضَى»[2].

فالمعتمد هنا هو رواية جابر الأولى؛ لأنها صريحة في الدلالة على السببية، وأما رواية ابن عمر فهي وإن كانت صحيحة، إلا أنها ليست صريحة في السببية.

وقد بيّن الزركشي أنه قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع[3].

١- صحيح مسلم: كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها من دبرها، ٧/ ٢٩٨، ح٢٥٩٢.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، باب ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾، ٣/ ١٤٨، ح ٤٥٢٦، قال البدر العيني: «مطابقته للترجمة تؤخذ من قوله: (في كذا وكذا) لأن المراد به في إتيان النساء في أدبارهن» عمدة القاري، للبدر العيني: ١٨/ ١١٦.

٣- البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١.

المبحث الخامس: تعدد الروايات في سبب النزول:

تتغير مواقف المفسر إذا تعددت الروايات في سبب نزول آية واحدة، ومنها:

إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل: نزلت هذه الآية في كذا «أو أحسبها نزلت في كذا» فلا منافاة بينهما، إذا المراد تفسير الآية، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إذا قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية[1].

إذا رُوِيت عبارتان في موضوع واحد: إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصًا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية، لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل.

مثال ذلك: ما رُوي من حديثي جابر وابن عمر رضي الله عنهما في شأن آية البقرة ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ وقد تقدم.

المطلب الأول: تعدد الأسباب والمنزل واحد:

فللعلماء[2] في مثل هذه الحال مقياس دقيق، يرجحون به إحدى تلك الروايات أو يوفقون بينها توفيقًا سائغًا مقبولاً.

أولا: إن جاءت روايتان صحيحتان، ولا مرجح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معًا لتقارب زمنيهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب؛ لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه.

١- ينظر: دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل، ص١٥٥.

٢- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٩.

مثال ذلك ما روى عن سهل بن سعد أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلانَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلاً، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَى عَاصِمٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَرِهَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللهِ لا أَنْتَهِي حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلاً، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُلاعَنَةِ بِمَا سَمَّى اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلاعَنَهَا..»[1].

وعن عكرمة عن ابن عباس أَنَّ هِلالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلاً يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: الْبَيِّنَةَ وَإِلا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، فَقَالَ هِلالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النور: ٦]، حتى بلغ ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [النور: ٩][2].

فهاتان الروايتان متساويتان في الصحة، إذ أخرجهما الإمام البخاري، وليس لأحدهما مرجح يرجحها على الأخرى، ففي هذه الحالة وأمثالها يجمع بينهما.

قلت: والجمع بينهما أرجح لأمور هي:

١. أنهما روايتان صحيحتان ولا مرجح لأحدهما على الأخرى.

١- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب [وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ]، ٦ / ٩٩، ح٤٧٤٥.

٢- صحيح البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة النور، باب [وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ]، ٦ / ١٠٠، ح٤٧٤٧.

٢. أن الأخذ بإحدى الروايتين وإهمال الأخرى ترجيح بلا مرجح، وهذا لا يجوز.

٣. أن الجمع بين الروايتين؛ مع إمكان الجمع أولى من القول بالترجيح.

وبذلك يتعين الأخذ بالروايتين، إذ لا تفضل إحداهما الأخرى[1].

ثانيًا: إن كانت الروايتان صحيحتين، ويمكننا الترجيح بينهما على أساس أن إحداهما أصح من الأخرى، أو لأن راويها شهد الحادثة دون راوي الأخرى، فلا ريب أن نأخذ بالأصح.

مثال ذلك: عن عبد الله -رضي الله عنه- قال: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في حَرْث، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيب، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥][2].

وعن عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فأنزل الله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥][3].

فالرواية الثانية تدل على أنها بمكة، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه.

أما الأولى فصريحة في أنها نزلت بالمدينة، بسبب سؤال اليهود إياه، وهي

١- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٦٥، مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح ص ١٤٣-١٤٤.

٢- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ] ٣ / ٢١٧، ح ٤٧٢١.

٣- سنن الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل ٥ / ٢٨٤، ح ٣١٤٠، والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير، تفسير سورة القدر، ج٢، ص٥٣١، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أرجح من وجهين: الأول: أنها رواية البخاري. وأما الثانية فإنها رواية الترمذي ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره. والثاني: أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود، كان شاهد القصة من أولها إلى آخرها، كما تدل على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني، فإنّ راويه ابن عباس وهو لم يشهد القصة، ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء، وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة، ومن هنا أعملنا الرواية الأولى وأهملنا الثانية[1].

ثالثًا: إذا تعددت الروايات وكانت جميعها نصًا في السببية وكان إسناد أحدها أصح من غيره، فحكم الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، ورد الأخرى غير الصحيحة. مثال ذلك:

أ- قال جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَجَاءَت امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لأرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرُبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاث. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: فأنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣][2]

ب- وعن حَفْصُ بْنُ سَعِيد الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَتْنِي أُمِّي، عَنْ أُمِّهَا، وَكَانَتْ خَادِمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّ جَرْوًا دَخَلَ الْبَيْتَ وَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ وَمَاتَ فَمَكَثَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، أَيَّامًا لا يَنْزِلُ عَلَيْه الْوَحْيُ، فَقَالَ: يَا خَوْلَةُ مَا حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ جِبْرِيلُ لا يَأْتِينِي فَهَلْ حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ حَدَثٌ فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمٌ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِنَا فَأَخَذَ بُرْدَهُ فَلَبِسَهُ وَخَرَجَ فَقُلْتُ: لَوْ هَيَّأْتُ الْبَيْتَ، وَكَنَسْتُهُ فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ فَإِذَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخْرَجْتُهُ فَإِذَا بِجِرْوٍ مَيِّتٍ فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي فَأَلْقَيْتُهُ خَلْفَ الدَّارِ فَجَاءَ نَبِيُّ اللهِ تَرْعُدُ لَحْيَيْهِ، وَكَانَ

١- مناهل العرفان، الزرقاني ١ / ١١٨، ١١٧.

٢- البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، تفسير سورة الضحى، باب قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، ٣ / ٣٠٩، ح ٤٩٥٠.

إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ أَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ فَقَالَ: «يَا خَوْلَةُ دَثِّرِينِي فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣][1].

قال ابن حجر في شرح البخاري: «قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن جعلها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيحين»[2].

وشواهد بطلان القصة أكثر من أن تحصى وهي:

«لا يقبل القول بموت جرو تحت سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبقى جثته تحت السرير أيامًا عديدة، بدون أن تخرج رائحتها المنتنة، أو أن ينتبه لها أحد.

كما لا يعقل أن ينقطع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم بسبب جرو، وما علاقة الجرو بالوحي، حتى ينقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم كلية؟، وهل كان مجيء الوحي يقتصر على المنزل[3].

المطلب الثاني: تعدد النزول وتكرره:

إن كانت الروايتان صحيحتين ولم نستطع ترجيح إحداهما ولا الجمع بينهما لتباعد الزمن بين أحداثهما، فقد ذهب العلماء إلى القول بتعدد نزول الآية.

قال الزركشي: وقد ينزل الشيء تعظيمًا لشأنه، وتذكيرًا عند حدوث سببه خوف نسيانه[4].

١- أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤ / ٢٤٩، ح٦٣٢، قال الهيثمي: «رواه الطبراني وأم حفص لم أعرفها» مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٧ / ص١٣٨، وقال ابن عبد البر: «لا يحتج بإسناد حديثها. أي حديث خولة جدة حفص» أسد الغابة، ابن عبد البر، ج٧ / ص١٠٥.

٢- الإتقان، للسيوطي، ١ / ٤٢، مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح ص ٨٧-٨٨.

٣- ينظر: اتقان البرهان، فضل عباس، ص٢٩٨.

٤- البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٩، ٣٠.

ومثلوا لذلك بقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣]، فقد ورد في نزولها أكثر من سبب:

١- أخرج البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِب الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْل وَعَبْدَ الله بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَة، فَقَالَ: أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إلا الله، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بها عِنْدَ الله، فَقَالَ أَبُو جَهْل وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلب، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْه، وَيُعِيدَانه بِتِلْكَ الْمَقَالَة، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِب آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلب، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إلا الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَالله لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ، فأنزَلَ الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص ٥٦][1]

٢- وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَنْظُرُ في الْمَقَابر، وَخَرَجْنا مَعَهُ، فَأَمَرَنَا فَجَلَسْنَا، ثُمَّ تَخَطَّا الْقُبُورَ حَتَّى انْتَهَى إلَى قَبْرٍ منْهَا فَنَاجَاهُ طَويلاً، ثُمَّ ارْتَفَعَ نَحيبُ رَسُول اللَّه ﷺ بَاكيًا فَبَكَيْنَا لبُكَائه، ثُمَّ أَقْبَلَ إلَيْنَا فتلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا الَّذي أَبْكَاكَ فَقَدْ أَبْكَانَا، وَأَفْزَعَنَا، فَجَاءَ فَجَلَسَ إلَيْنَا فقَالَ: «أَفْزَعَكُمْ بُكَائي؟» فَقُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّه فَقَالَ: «إنَّ الْقَبْرَ الَّذي رَأَيْتُمُوني أُنَاجي فيه، قَبْرُ أُمِّي آمنَةَ بنْت وَهْب وَإنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في زيَارَتهَا، فَأَذنَ لي فيه، فَاسْتَأْذَنْتُهُ في الاسْتغْفَار لَهَا، فَلَمْ يَأْذَنْ لي فيه، وَنَزَلَ عَلَيَّ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣]، حتى ختم الآية ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة: ١١٤]، فأخذني ما يأخذ الولد لوالده من الرقة فذلك

١- الحديث أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾، ٣ / ٢٤٦، ح٤٧٧٢.

الذي أبكاني[1].

فالرواية الأولى تذكر أن الآية نزلت في مكة لما حضرت أبا طالب الوفاة، والرواية الثانية تذكر أنها نزلت في المدينة، عندما جلس النبي صلى الله عليه وسلم علي قبر أمه، والسورة مدنية، فقد قال القرطبي: «سورة براءة مدنية باتفاق»[2] وفي المصحف أنها مدنية إلا الآيتين الأخيرتين.

فقد ذهب العلماء هنا إلى القول بتعدد نزول الآيات؛ لأنه لا يمكن الجمع بينهما لتباعد الزمن، فقد قال السيوطي بعد ذكره للروايات في الآية السابقة: «فنجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول»[3].

والقول بتعدد النزول وتكرره هنا مرفوض، إذ لا يقال ذلك إلا عند تساوي الروايات في الصحة، ويتعذر الجمع بينها لتباعد الزمن، أما هنا فرواية البخاري صحيحة ورواية الحاكم ضعيفة، قال الإمام الذهبي في التلخيص تعليقًا على رواية الحاكم: أيوب بن هانئ ضعفه ابن معين[4]، وقال في سير أعلام النبلاء: «هذا من غرائب الحديث»[5].

وعليه فالراجح رواية الإمام البخاري، وحسبك بها قوة، ولا يعكر عليه كون السورة مدنية، إذ لا يمنع ذلك أن تكون هذه الآية مكية.

وإذ قد تبين لنا ما سبق فالقول بتعدد النزول وتكرره للآية، فيه نظر لخلوه من دليل يؤيده.

١- المستدرك على الصحيحين: كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة، زيارة النبي ﷺ قبر أمه آمنة، ٢ / ٣٣٦، وقال أبو عبد الله الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

٢- الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي: ج٨، ص٦١.

٣- الإتقان، للسيوطي، ج١، ص٩٨.

٤- المستدرك على الصحيحين: كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة، زيارة النبي ﷺ قبر أمه آمنة، ٢ / ٣٣٦.

٥- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٢ / ٥٠٥.

المطلب الثالث: تعدد النازل والسبب واحد:

قد يكون أمر واحد سببًا لنزول آيتين أو آيات متعددة، ولا مانع في ذلك، إذ قد يكون سببًا في زيادة إقناع الناس وهدايتهم، وتوضيح الحق لهم، وهو أبلغ في الإقناع، وأظهر في البيان.

مثال ذلك: أخرج الترمذي عَنْ سَلَمَةَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، رَجُلٍ مِنْ وَلَدِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لا أَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥][1].

وأخرج الترمذي أيضاً عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَغْزُو الرِّجَالُ وَلا تَغْزُو النِّسَاءُ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، قال مجاهد: فأنزل فيها ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أَوَّلَ ظَعِينَةٍ قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرَةً. قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن بن أبي نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت كذا وكذا[2].

وأخرج الحاكم عنها أيضاً أنها قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: يُذْكَرُ الرِّجَالُ، وَلا يُذْكَرُ النِّسَاءُ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. الآيَةَ. وَأَنْزَلَ ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥][3].

١- سنن الترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، ٥ / ٢٢١، ح٣٠٢٣، والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، ٢ / ٣٠٠، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

٢- سنن الترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء، ٥ / ١١٨، ح٣٣٠٨، والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير، تفسير سورة النساء، ٢ / ٣٠٥، ووصححه وأقره الذهبي.

٣- أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب، ج٢، ص٤١٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

فالآيات الثلاث السابقة نزلت على سبب واحد، وهو سؤال أم سلمة رسول الله ﷺ ولا يُبعِد هذا اختلاف صيغة السؤال، لجواز أن يكون سؤالها عاماً شاملاً لكل ما روي، ولكن بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال دون بعض، أو تذكر بعضه ونسي بعضًا.

المبحث السادس: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١]:

ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب، ويكون السبب أخص من لفظ الجواب. وذلك جائز عقلاً، وواقع فعلاً؛ لأنه لا محظور فيه ولا قصور، بل إن عمومه مع خصوص سببه موفٍ للغاية، ومؤدٍ للمقصود وزيادة.

بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه: أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب؟

ذهب الجمهور[٢] إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ، سواء منها أفراد السبب، أو غير أفراد السبب، ولنضرب لك مثلاً حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته، وقد نزل فيها قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور: ٦] إلخ، نلاحظ فيها أن السبب خاص، وهو قذف هلال هذا، ولكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام -كما ترى- وهو لفظ (الذين يرمون أزواجهم) وهو اسم موصول، والموصول من صيغ العموم.

وقال غير الجمهور[٣]: إن العبرة بخصوص السبب. ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصورًا على الحادثة التي نزل هو لأجلها، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ١٢٣، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة، ١٥٥.

٢- هو قول أحمد وأصحابه والحنفية ونص عليه الشافعي، واختاره الإمام فخر الدين والآمدي وأتباعهما. القواعد والفوائد الأصولية ومايتبعها من الأحكام الفرعية، لابن اللحام، ص٣١٨.

٣- وهو قول أبي ثور، والمزني، والقفال، وغيرهم. نهاية السول، الأسنوي ٢ / ٤٧٧، إرشاد الفحول، الشوكاني ص١٣٤.

نص الآية، إنما يعلم بدليل مستأنف آخر، وهو القياس الذي استوفى شروطه، فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجته خاصة بهذه الحادثة وحدها، «على هذا الرأي». أما حكم غيرها مما يشبهها، فإنما يعرف قياسًا عليها.

ويجب أن نلاحظ، أن الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم، محله إذا لم تقم قرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله، أما إذا قامت تلك القرينة؛ فإنّ الحكم يكون مقصورًا على سببه لا محالة، بإجماع العلماء.

كما يجب أن نلاحظ أيضًا أن حكم النص العام الوارد على سبب يتعدى عند هؤلاء وهؤلاء إلى أفراد غير السبب. بيد أن الجمهور يقولون إنه يتناولهم بهذا النص نفسه، وغير الجمهور يقولون أنه لا يتناولهم إلا قياسًا أو بنص آخر.

وإلى هذا المعنى يشير ابن تيمية بقوله: «قد يجيء كثيرًا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصًا، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة قيس بن ثابت، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإنّ هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب: هل يختص بسببه؟ لم يقل أحد أن عمومات الكتاب والسنة بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرًا أو نهيًا، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كانت بمنزلته»[1].

المبحث السادس: الاستفادة من هذه المباحث في المنهج التعليمي والتربوي:

لا بد أن نقرر حقيقة أكيدة، وهي أن كل عناصر العلم الإنساني صالحة للتطبيق

١- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص١٦.

والاستفادة منها في حياتنا العملية والعلمية والتربوية.

فمن ناحية لغة العلم الإسلامي، وهي العربية، فهي لغة حضارية وهي لغة العلوم حيث إنها تضم أكثر من اثنى عشر مليون كلمة، أما جذورها فتبلغ ٩٢٧٣ جذرًا وهو يفوق الجذور الموجودة في مجموعة اللغات الهندية والأوروبية والتي لا تتجاوز ٥٠٠ جذر فقط، ومعنى كثرة جذور العربية، إمكانية استخلاص آلاف المصطلحات والكلمات من هذه الجذور.

كما أن الإسناد الذي يتميز به العلم الإسلامي ما هو إلا شكل من أشكال توثيق المعلومات، ولا يوجد نظير له في غير العلوم الإسلامية.

أما بخصوص مواد «علوم القرآن» فالوحي يمثل مركزية المعلومات، وهذه المركزية تعطي نوعًا من الثقة والطمأنينة لدى المتلقي، فلذا يمكن الاستفادة من هذه الناحية في عملية إعداد المقررات الدراسية التي تلقى على الطلاب؛ حيث تقوم لجنة ثابتة منتقاة في كل العلوم بإعداد المناهج بطريقة تبعث على الثقة والطمأنينة وتعود بالنفع الكامل على جموع الطلاب والطالبات.

أما «المكي والمدني» فيمكن الاستفادة من بحوثه من خلال التقسيم في معرفة عوامل القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية، والمدرسة تمثل نواة هذا المجتمع.

إن المجتمع القوي، ينبغي بالضرورة أن يتوافر فيه أساس فكري قوي، لكي يكّون بناء حضارته مستندًا إلى الإرادة الإنسانية وكرامة الإنسان ومسئوليته.

ولقد تمكّن الإسلام، رغم انحراف السياسة في وقت مبكر أن ينشئ قاعدة متينة؛ فالمجتمع المدني يقوم على خدمة معظم مصالحه، كخدمات التعليم وإقامة الشعائر الدينية والخدمات الاجتماعية والثقافية.

إن دراسة فكر هذه الأمة منذ تأسيسها على يد رسول الله ﷺ ومصادره وتطوره ورصد مواطن القوة والضعف يؤدي كل ذلك إلى التوازن الثقافي مع العالم المعاصر.

أما سنة التدرج، التي هي خاصية من خصائص التشريع الإسلامي، فيمكن الاستفادة منها في مجال التربية والتعليم؛ بحيث يقوم المعلم بالتدرج في إلقاء المعلومات حتى يستوعبها الطلاب، وهذا التدرج ينظم عقل الطلاب والطالبات، بحيث تكثر الفائدة المرجوة من ذلك، وقد بينا التدرج عند الحديث عن حكم نزول القرآن الكريم منجمًا، كما أنه يمكن الاستفادة من العموم والخصوص في إقامة علاقة متينة بين المعلمين وطلابهم؛ حيث يسود مبدأ الثواب والعقاب على العدل، ويسود بين المسلمين (الطلاب والطالبات) المودة والأخوة، ويستشعر كل فرد من أفراد المسلمين حاجة أخيه إليه.

هذا بالإضافة إلى أن معرفة أسباب النزول وتقريبها للطلاب يجعلهم في حالة من الروحانية التي يتمثلون فيها عصر النبي ﷺ (عصر التنزيل) وما حدث فيه، فيتواصل الطلاب مع هذا العصر تواصلاً يؤدي بهم إلى أن يكونوا صالحين، يمثلون مجتمعًا إسلاميًا صالحًا.

أسئلة للمناقشة

١. عرّف سبب النزول، ثم اشرح التعريف.

٢. ينحصر سبب النزول في أمرين، وضح ذلك.

٣. بيّن الأسس التي يعتمد عليها العلماء في معرفة سبب النزول.

٤. ما حكم أقوال الصحابة في أسباب النزول.

٥. هل لكل آية سبب نزول؟ وضح ذلك.

٦. لمعرفة أسباب النزول فوائد، اذكر ثلاثة منها مع الدليل.

٧. هل تختلف عبارات الرواة في التعبير عن سبب النزول. وضح ذلك بالتفصيل.

٨. اذكر فوائد معرفة صيغ أسباب النزول.

٩. اذكر مثلاً لسبب نزلت فيه أكثر من آية.

١٠. بيّن المراد بقول العلماء «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» مع ذكر مثال.

١١. ما أسس الترجيح بين الروايات الواردة في أسباب النزول؟

١٢. متى يجمع بين الروايات الواردة في أسباب النزول؟

١٣. قال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية» اشرح قول ابن تيمية معززًا إجابتك بالأدلة.

الفصل السادس: المُحْكم والمُتشابِه

المبحث الأول: تعريف المُحْكَم والمُتَشابِه لغة واصطلاحًا.

المطلب الأول: المعنى اللغوي للمُحْكَم والمُتشابِه:

لهذين اللفظين إطلاقات في اللغة، وإطلاقات في الاصطلاح؛ فاللغويون يستعملون مادة الإحكام في معان متعددة، لكنها مع تعددها ترجع إلى شيء واحد، هو المنع. فيقولون: أحكم الأمر، أي: أتقنه ومنعه عن الفساد.

وكذلك يستعملون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاكلة، المؤدية إلى الإلتباس غالبًا. يقال: تشابها واشتبها؛ أي: أشبه كل منها الآخر حتى التبسا ويقال: أمور مشتبهة ومشبهة أي: مشكلة[1].

المطلب الثاني: المعنى الاصطلاحي:

يطلق المُحْكَم في لسان الشرعيين على ما يقابل المنسوخ تارة، وعلى ما يقابل المُتَشابِه تارة أخرى.

فيراد به على الاصطلاح الأول: الحكم الشرعي الذي لم يتطرق إليه نسخ[2].

ويراد به على الثاني: «ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره»[3].

المطلب الثالث: آراء العلماء في معنى المُحْكَم والمُتشَابِه:

يختلف العلماء في تحديد معنى المُحْكَم والمُتشَابِه اختلافات كثيرة منها:

الأول: أن المُحْكَم: ما عرف المراد منه، إما بالظهور وإما بالتأويل. أما المُتَشَابِه:

١- راجع: القاموس المحيط، للفيروزآبادي ٤ / ١٠٠، والمصباح المنير، للفيومي ١ / ٢٢٦، وشرح الكوكب لابن النجار، ٢ / ١٤١.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٧٢، وينظر: إرشاد الفحول، الشوكاني، ٣٢.

٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ١ / ٤٠١.

فهو ما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور[1].

الثاني: المُحْكَم: ما لا يحتمل إلا وجها واحدًا من التأويل. أما المُتشَابِه: فهو ما احتمل أوجها متعددة[2].

الثالث: أن المُحْكَم: هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. أما المُتشَابِه: فهو ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره[3].

الرابع: أن المُحْكَم: ما كانت دلالته راجحة، وهو النص والظاهر. أما المُتشَابِه: فما كانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل[4].

الخامس: وقيل: المُحْكَم: الفرائض والوعد والوعيد. والمُتشَابِه: القصص والأمثال[5].

وعن عكرمة وقتادة: أن المُحْكَم الذي يعمل به. والمُتشَابِه: الذي يؤمن به ولا يعمل به[6].

ونحن إذا نظرنا في هذه الآراء، لا نجد بينها تناقضًا ولا تعارضًا، بل نلحظ

١- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٢، المدخل إلى مذهب أحمد، لابن بدران، ص٨٩، شرح الكوكب، لابن النجار ٢ / ١٤٢.

٢- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٢، إرشاد الفحول، الشوكاني ص ٣٢.

٣- ينظر: النكت والعيون، ١ / ٣٦٩، وزاد المسير، ١ / ٣٥٠.

٤- ينظر: التفسير الكبير، ٧ / ١٤٦، مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٧٤.

٥- وقد استبعد الآمدي هذا القول. ينظر: الإحكام، الآمدي١ / ١٦٦، إرشاد الفحول، الشوكاني ص٣٢، الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٢.

٦- وهناك تعريفات أخرى للمحكم والمتشابه، وقد رد الغزالي أكثرها. ينظر: المستصفى، للغزالي ١ / ١٠٦، الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٢، شرح النووي ١٦ / ٢١٧، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، زاد المسير، لابن الجوزي، ١ / ٣٥٠، وعلى الإجمال فالخلاف في الاصطلاح أو ما يشبه الاصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح.

بينها تشابهًا وتقاربًا؛ لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع فيما نفهم إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه، وإلى عدم وضوحه، وليس في القرآن ما لا معنى له.

و يمثل العلماء للمُحْكَم في القرآن: بناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، ووعده، ووعيده.

وللمتشابه: بمنسوخه، وكيفيات أسماء الله، وصفاته التي في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، إلى غير ذلك، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم[1]، وفي قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥].

وأجاب الجمهور بأن الحروف المقطعة، إما أسماء السور، أو أسماء الله تبارك وتعالى، أو سر الله تعالى في كتابه مما استأثر بعلمه، أو غيرها مما هو مذكور في التفاسير...[2]

وبأن رؤوس الشياطين مثل في الاستقباح على عادة العرب في ضرب الأمثال بما يتخيلونه قبيحًا. قال ابن قاضي الجبل: ورؤوس الشياطين: استقر قبحها في الأنفس فشبه بها كقول امرئ القيس.

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال[3]

فشبهها بأنياب الأغوال لقبحها المستقر، وإن لم يكن لها حقيقة. كذلك ذكره

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٧١.

٢- ينظر: الإحكام للآمدي، ١ / ١٦٧، تفسير الطبري، ١ / ٨٦، تفسير القرطبي، ١ / ١٥٤، زاد المسير، لابن الجوزي١ / ٢٠، فواتح الرحموت، للسهالوي ٢ / ١٧.

٣- البيت من البحر الطويل. ذكره الجرجاني في دلائل الإعجاز ص ٨٠، ديوان امرئ القيس ص٣٣، معجم شواهد العربية، لإميل بديع ١ / ٣١٠.

المازري المالكي[1].

قال السيوطي: ومن المتشابه أوائل السور، والمختار فيها أيضًا أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى. أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فواتح السور...[2].

المطلب الرابع: القرآن الكريم محكم ومتشابه:

جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه، إذ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣].

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، إذ قال عز اسمه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧].

ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة:

لأن معنى إحكامه: كونه كلامًا حقًا، فصيح الألفاظ، صحيح المعاني، لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ومعنى كونه متشابهًا: أنه يشبه بعضه بعضا في الحسن ويصدق بعضه بعضًا[3].

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه: فمعناه أن من هذا القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى منه، ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد الكريم. فالأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه على خلاف بين العلماء، بيد أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه هو أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكمًا؛ أي متقنًا

١- ينظر: شرح الكوكب، لابن النجار ٢/ ١٤٥.

٢- الإتقان، للسيوطي، ٢/ ١٢، ١١.

٣- التفسير الكبير، للرازي، ٧/ ١٤٥.

وبين كونه كله متشابهًا، أي يشبه بعضه بعضًا في هذا الإتقان والإحكام وبين كونه منقسمًا إلى ما اتضحت دلالته على مراد الله وما خفيت دلالته. بل إن انقسامه هذا الانقسام محقق لما فيه كله من إحكام وتشابه بالمعنى السابق[1].

المبحث الثاني: هل المتشابه مما يمكن معرفته؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

الأول: إنه يمكن الاطلاع على علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، واختار هذا القول الإمام النووي، ومعظم المتكلمين، فقال في (شرح مسلم): إنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته.

ويبدو أنه لا بد من بقاء بعض المتشابه الذي لا يمكن للناس الاطلاع على علمه، والذي يبقى تأويله مختصًا بالله تعالى[2].

الثاني: أنه لا يمكن لأحد الاطلاع على علمه، ولا يعلمه إلا الله، وأما الراسخون في العلم فإنهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا.

قال البغوي في تفسيره: هو قول الأكثرين منهم أبي بن كعب وعروة بن الزبير ورواية عن ابن عباس وبه قال الحسن وأكثر التابعين واختاره الكسائي والفراء والأخفش[3].

ويقف القارئ على الأصح على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لفظًا ومعنى لا على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي

١- مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٧١

٢- شرح النووي على مسلم ١٦ / ٢١٨، الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٣، الدر المنثور، للسيوطي ٢ / ٨، المستصفى، للغزالي ١ / ١٠٦، مختصر ابن الحاجب، ٢ / ٢١، شرح الكوكب، لابن النجار، ٢ / ١٥٣، ١٥٢.

٣- تفسير البغوي، ١ / ٤١٢.

ٱلْعِلْمِ ﴾[1] وقال بذلك السيوطي.

المبحث الثالث: أنواع المتشابهات

المطلب الأول: أنواع المتشابهات:

أفاض العلماء في ذكر أنواع المتشابهات، دون المحكم؛ لأن الموضوع شائك بالنسبة إلى المتشابه، فذكروا أن المتشابه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما لا يستطيع البشر جميعًا أن يصلوا إليه، كالعلم بذات الله صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التي استأثر الله تعالى بها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس، كالمتشابهات التي نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب ونحوها.

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله.

قال الراغب: المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته

١- ينظر: الإحكام لابن حزم، ١ / ٤٩٢، إرشاد الفحول، الشوكاني، ص٣٢، تفسير القاسمي، ٤ / ٧٩٥، تفسير البغوي ١ / ٣٢١، تفسير الخازن، ١ / ٣٢١، الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٤، فواتح الرحموت، للسهالوي ٢ / ١٨.

وتمام الآية ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب. منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به. كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ آل عمران / ٧.

كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم. وهو المشار بقوله ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[1].

المطلب الثاني: آيات الصفات:

من المتشابه آيات الصفات نحو قوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]، وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها.

روى اللالكائي عن أم سلمة في قوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] قَالَتْ: «الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وِالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ»[2].

وروي عن مالك نحو ذلك[3].

وعن أبي سُلَيْمَانَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ الأَعْرَابِيِّ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: مَا مَعْنَى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؟ [طه: ٥]؟ فَقَالَ: هُوَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ[4].

١- نقل السيوطي هذا التقسيم عن الراغب الأصفهاني في «المفردات». ينظر الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٧، المفردات ص ٢٥٥، مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٨٢.

٢- شرح أصول الاعتقاد لهبة الله اللالكائي، ٣ / ٤٤٠، وأشار إلى هذه الرواية ابن حجر في الفتح، ١٣ / ٤٠٦، وابن تيمية في الفتاوى، ٥ / ٣٦٥.

٣- شرح أصول الاعتقاد، اللالكائي، ٣ / ٤٤١، وينظر: الأسماء والصفات للبيهقي، ص٤٠٨، الفتح لابن حجر، ١٣ / ٤٠٦.

٤- شرح أصول الاعتقاد، اللالكائي، ٣ / ٤٤٢.

المطلب الثالث: أقوال العلماء في آيات الصفات[1]

المذهب الأول: وهو مذهب السلف، ويسمى مذهب المفوضة، وهو تفويض معاني المتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة. قال ابن الصلاح: «على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها، وإياها اختار الأئمة الفقهاء وقادتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه. ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها.

المذهب الثاني: مذهب الخلف، ويسمى مذهب المؤولة، وهم فريقان:

التأويل بصفات سمعية غير معلومة على التعيين، ثابتة له تعالى، زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين وينسب إلى أبي الحسن الأشعري.

التأويل بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين، ويليق بالله عقلاً وشرعًا، وينسب إلى ابن برهان وجماعة من المتأخرين، ورجع عنه إمام الحرمين بعد أن قال به فترة.

المذهب الثالث: مذهب المتوسطين، وينسب إلى ابن دقيق العيد.

قال السيوطي: «وتوسط ابن دقيق العيد فقال: «إذا كان التأويل قريبًا من لسان العرب لم ينكر، أو بعيدًا، توقفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه. وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرًا مفهومًا من تخاطب العرب، قلنا به من غير توقيف كما في قوله تعالى

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦] فنحمله على حق الله

١- الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٨، مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٨٩، دراسات في علوم القرآن محمد بكر إسماعيل ص ١٩٧، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، النبهان ص١٨٤، دراسات في علوم القرآن- فهد الرومي ص: ٤٠٥، الواضح في علوم القرآن، لمصطفى الديب، ص١٣١.

وما يجب له[1].

والأولى من هذه المذاهب، اتباع مذهب السلف وصدر الأمة وساداتها والأئمة الفقهاء وأئمة الحديث وأعلامه.

المبحث الرابع: الحكمة من المتشابه

ما الحكمة في إنزال المتشابه ووجوده؟

الجواب: أن حكم المتشابه يختلف بالنسبة إلى ما يمكن علمه، وإلى ما لا يمكن علمه.

المطلب الأول: حكم المتشابه الذي لا يمكن علمه (ما استأثر الله بعلمه).

أولاً: رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف، الذي لا يطيق معرفة كل شيء. وإذا كان الجبل حين تجلّى له ربه جعله دكا، وخر موسى صعقًا، فكيف لو تجلّىٰ سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم، حتى لا يقعد بهم التكاسل عن الاستعداد لها، وكي لا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا شدة قربها منهم. ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بحبوحة من أعمارهم. فسبحانه من إله حكيم، رحمن رحيم.

ثانيًا: الابتلاء والاختبار: ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ، وإن لم يجز العمل بما فيه.

ثالثًا: إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء

١- الإتقان، للسيوطي، ٣/ ١٦.

علمًا، وأن الخلق جميعًا لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

رابعًا: إقامة الحجة على العرب البلغاء، لأن القرآن نزل بلسانهم ولغتهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معناه، فدل ذلك على أنه تنزيل من حكيم حميد.

خامسًا: لو كان القرآن كله محكمًا لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وبالتالي بطلان بقية المذاهب المخالفة، وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه، فوجود المتشابه والمحكم فيه مطمع لكل ذي مذهب؛ أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه[1].

المطلب الثاني: حكم المتشابه الذي يمكن علمه:

أولاً: حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه.

ثانيًا: ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان القرآن كله محكمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر؛ لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالم على غيره.

ثالثًا: الحصول على الثواب الأكبر؛ لأن المتشابه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيدًا من الثواب.

رابعًا: تحصيل العلوم الكثيرة؛ لأن معرفة المتشابه توجب التعمق في معرفة النحو والمعاني وغيرهما، والوقوف على أساليب العرب والعلوم الاخرى.

خامسًا: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء دال على معان كثيرة، زائدة على ما يستفاد من أهل الكلام.

١- الإتقان، للسيوطي، ٣ / ٣٥، مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٢٨٢.

أسئلة للمناقشة

١. عرّف المحكم والمتشابه لغة واصطلاحًا.

٢. اذكر آراء العلماء في معنى المحكم والمتشابه.

٣. جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم، وما يدل على أنه كله متشابه، وما يدل على أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، اذكر الآيات التي تدل على ذلك ووفق بينها.

٤. هل المتشابه يمكن معرفته؟

٥. بيّن أنواع المتشابهات.

٦. بيّن أقوال العلماء في آيات الصفات.

٧. ما الحكم من المتشابه الذي لا يمكن علمه؟

٨. وما الحكم من المتشابه الذي يمكن علمه؟

الفصل السابع: الناسخ والمنسوخ

المبحث الأول: تعريف، وحكمه، وشروطه:

المطلب الأول تعريف النسخ لغة واصطلاحًا:

النسخ لغة: يطلق بمعنى الرفع والإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمس الظل؛ أي أزالته. ونسخت الريح التراب والآثار، ويطلق بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [الجاثية: ٢٩]، يعنى: نكتبه وننسخه.

والنسخ في الاصطلاح: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ.

دلالة التعريف: قال البعض: «بخطاب شرعي» والدليل الشرعي أحسن؛ لأن الفعل داخل في الدليل دون الخطاب.

وقوله: متراخ: احتراز من التخصيص؛ لأن التخصيص يأتي متراخيًا ومتصلاً أو مقارنًا.

وزوال الحكم بالموت والجنون ليس بنسخ، والحكم: ما تعلق بالمكلف بعد وجوده أهلا[2].

ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وعلى الآية، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر.

١- ينظر مادة (نسخ) في لسان العرب، لابن منظور، ٣/ ٦١، الصحاح، للجوهري، ١/ ٤٣٣، تاج العروس، للزبيدي، ٧/ ٣٥٥.

٢- في تعريف النسخ ومحترزات التعريف ينظر: العدة، لأبي يعلى، ٣/ ٧٧٨، نهاية السول، الأسنوي ٢/ ١٦٢، إرشاد الفحول، الشوكاني ص١٨٤، أصول السرخسي ٢/ ٥٤، المستصفى، للغزالي ١/ ١٠٧، كشف الأسرار، علاء الدين البخاري ٣/ ١٥٥، شرح الكوكب، لابن النجار ٣/ ٥٢٦.

والمنسوخ هو الحكم المرتفع بناسخ، فآية المواريث مثلاً أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين.

ولا يكون الناسخ أضعف من المنسوخ عند الأكثر[1].

ولا نسخ مع إمكان الجمع بين الدليلين؛ لأنا إنما نحكم بأن الأول منهما منسوخ إذا تعذر علينا الجمع، فإذا لم يتعذر وجمعنا بينهما بكلام مقبول أو بمعنى مقبول، فلا نسخ[2].

المطلب الثاني: حكم النسخ قبل وقت الفعل:

يجوز النسخ قبل وقت الفعل، أي قبل دخول وقت الفعل عند الحنابلة وأكثر الشافعية والأشعرية، وقد ذكر الآمدى أن هذا قول أكثر الفقهاء. ومنعه أكثر الأحناف والمعتزلة[3].

والدليل على الجواز: ما روى عن أبي هريرة أنه قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ في بَعْث فَقَالَ: إنْ وَجَدْتُمْ فُلانًا وَفُلانًا فَأَحْرِقُوهُمَا بالنَّار ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ: إنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلانًا وَفُلانًا وَإِنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَا اللهُ فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا[4].

المطلب الثالث: شروط النسخ:

١. أن يكون الحكم المنسوخ حكمًا شرعيًا؛ أي قد ثبت بالشرع.

١- ينظر: إرشاد الفحول، الشوكاني ص ١٨٧، المستصفى، للغزالي ١ / ١٢٤، نهاية السول، الأسنوي ٢ / ١٧٩، العدة، لأبي يعلى، ٢ / ٧٨٨.

٢- ينظر: العدة لأبي يعلى ٣ / ٨٣٥، المسودة، لابن تيمية ص ٢٢٩ وما بعدها.

٣- ينظر الأحكام للآمدي ٣ / ١٢٦، كشف الأسرار، علاء الدين البخاري ٣ / ١٦٩، نهاية السول، الأسنوي ٢ / ١٧٣، المستصفى، للغزالي ١ / ١١٣، ١١٢.

٤- صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، ٤ / ٦١، ح٣٠١٦.

٢. أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم دليلاً شرعيًا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣. ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيد بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخًا.

٤. لا يجوز النسخ بالإجماع أو القياس؛ لأن الإجماع حجة انعقدت بعد انقطاع الوحي. أما القياس؛ فلأنه يستنبط من أصل، فلا يصح نسخه مع بقاء الأصل المستنبط منه.

٥. قال «مكي» (ت٣٧هـ) في كتابه (الناسخ والمنسوخ): «ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعرًا بالتوقيت والغاية مثل قوله في سورة البقرة: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾ [البقرة: ١٠٩] محكم غير منسوخ؛ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه.

المبحث الثاني: ما يقع فيه النسخ

مما سبق، يتبين لنا أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي، سواء أكانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات؛ لأن الشرائع كلها لا تخلو من هذه الأصول، وهي متفقة فيها، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]

وقال: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا ﴾ [الحج: ٢٧]

وقال في القصاص: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال في الجهاد: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وفي الأخلاق: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨].

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد.

أما العقائد: فلأنها حقائق ثابتة صحيحة لا تقبل التغيير والتبديل، فبدهي ألا يتعلق بها نسخ.

وأما أمهات الأخلاق: فلأن حكمة الله في شرعها، ومصلحة الناس في التخلق بها أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم حتى يتناولها النسخ بالتبديل والتغيير.

وأما أصول العبادات والمعاملات: فلوضوح حاجة الخلق إليها باستمرار، لتزكية النفوس، وتطهيرها، ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق والخلق على أساسهما، فلا يظهر وجه من وجوه الحكمة في رفعها بالنسخ[1].

المبحث الثالث: أهمية النسخ، وحكمته، وطرق معرفته:

المطلب الأول: أهمية معرفة النسخ:

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته، فقد روى أن عليًا ﷺ مر بقَاصٍّ، فَقَالَ: أَتَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟ قَالَ: لا قَالَ: «هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ»[2].

١- ينظر: مناهل العرفان، للزرقاني، ٢/ ٢١٢، إرشاد الفحول للشوكاني ص١٨٨، دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص٢٤٧.

٢- مصنف عبد الرزاق، كتاب الجمعة، باب ذكر القصاص، ٣/ ٢٢٠، ح٥٤٠٧، وينظر: الإتقان، للسيوطي، ٢/ ٢٧.

وعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: المَعْرِفَةُ بِالْقُرْآنِ، نَاسِخِه وَمَنْسُوخِه، وَمُحْكَمِه وَمُتَشَابِهِه، وَمُقَدَّمِه وَمُؤَخَّرِه وَحَلالِه وَحَرَامِه، وَأَمْثَالِه»[١].

المطلب الثاني: حِكَم النسخ[٢]:

١- ترقية الأمة وتدرجها إلى مرتبة الكمال، فالله تعالى تعهد هذه الأمة بما يرقيها ويمحصها، وقد جاءت الشريعة متلطفة في دعوة الناس، متدرجة بهم إلى الكمال، صاعدةً بهم في مدارج الرقي شيئًا فشيئًا، ومن الصعب إلى الأصعب. وهذه الحكمة تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ.

٢- أما إذا كان الحكم الناسخ هو الأسهل، فالتخفيف على الناس، معناه إظهار رحمة الله تعالى عليهم وبيان فضله، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكر الله وحمده ومحبة دينه.

٣- أما التساوي بين الناسخ والمنسوخ فحكمته الابتلاء والاختبار ليميز الله الخبيث من الطيب.

٤- أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، حتى يشهدوا أنّ هذا الدين هو الدين الحق، وأن الرسول هو نبي الصدق، يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، والوقوف على ما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة.

١- أخرجه ابن جرير في تفسيره، ٥ / ٥٧٦. وينظر الإتقان، للسيوطي، ٢ / ٣.

٢- مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ١٩٦.

المطلب الثالث: طرق معرفة النسخ:

١. أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما.

٢. إجماع الأمة على تعيين المتقدم والمتأخر منهما.

٣. وروده عن أحد من الصحابة بطريق صحيحة كأن ينص الصحابي على نزول هذه الآية بعد ذلك.

المبحث الرابع: آراء العلماء في حقيقة النسخ وأدلته:

والناس في النسخ على أربعة أقسام:

١- **اليهود**: ينكرونه ويزعمون أن النسخ يستلزم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، وهم يعنون ذلك: أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة، وهذا عبث محال على الله، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن من قبل، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل، وهو محال على الله تعالى[1].

واستدلالهم هذا فاسد؛ لأن كلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى من قبل، فلم يتجدد علمه بها. وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق في ملكه.

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها. وجاء في نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله، قال تعالى في إخباره عنهم: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقال: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت. وقد حرم الله ذلك على موسى، وأن موسى أمر بني اسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف

١- شرح الكوكب، لابن النجار ٣ / ٥٣٦.

عنهم[1].

٢- **الروافض**: غالى هؤلاء في إثبات النسخ وتوسعوا فيه، وأجازوا البداء على الله تعالى، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي ﷺ زورًا وبهتانًا، وبقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات.

وذلك إغراق في الضلال، وتحريف للقرآن؛ فإن معنى الآية: ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، والمحو والإثبات موجود في كثير من الحالات، كمحو السيئات بالحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم[2]. ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه.

ولا يجوز البداء على الله عز وجل، وهذا عند كافة المسلمين، بخلاف النسخ فهو جائز وواقع، والفرق بينهما واضح بين، قال الشيرازي: إن البداء أن يظهر له ما كان خفيًا، ونحن لا نقول فيما ينسخ أنه ظهر له ما كان خافيًا عليه، بل نقول: إنه أمر به وهو عالم أنه يرفعه في وقت النسخ، وإن لم يطلعنا عليه فلا يكون ذلك بداء. والقول بتجدد العلم - أي علم الله عز وجل- كفر بإجماع أئمة أهل السنة[3].

١- ينظر: إرشاد الفحول، الشوكاني ص ١٨٥، النسخ في القرآن، د مصطفى زيد ١ / ٢٧، الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢١٥، الفصل في الملل، لابن حزم ١ / ٩٩، ، فواتح الرحموت، للسهالوي ٢ / ٥٥.

٢- الكشاف، للزمخشري، ٢ / ٥٣٤.

٣- التبصرة، للشيرازي ٢٥٣، شرح الكوكب، لابن النجار٣ / ٥٣٦، الإحكام لابن حزم٤ / ٤٤٦، الإحكام للآمدي٣ / ١٠٩، اللمع، للشيرازي ص٣١.

٣- **أبو مسلم الأصفهاني**[١]: وهو يجوّز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعًا، وقيل: يمنعه في القرآن خاصة محتجًا بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. على معنى أن أحكامه لا تبطل أبدًا. ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله[٢].

٤- **جمهور العلماء**: على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعًا لأدلة:

أدلة جوازه سماعًا:

١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل١٠١]، ووجه الدلالة في هذه الآية أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ، سواء أكان المرفوع تلاوة أم حكمًا.

٢. وقال: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]

٣. وفي الصحيح عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ، وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ: لا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦][٣].

١- هو محمد بن بحر، المشهور بأبي مسلم الأصفهاني، معتزلي، من كبار المفسرين ولد(٢٥٤هـ) وتوفى سنة ٣٢٢هـ. أهم كتبه «جامع التأويل» في التفسير. ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، ١ / ٥٩ الوافي بالوفيات، الصفدي ٢ / ٢٤٤، طبقات المفسرين للداودي ٢ / ١٠٦، لسان الميزان، لابن حجر، ٥ / ٨٩.

٢- ينظر: اضطراب النقول عن أبي مسلم في مسألة جواز النسخ وعدمه في شرح الجوامع للمحلى، ٢ / ٨٨، التبصرة للشيرازي ص ٢٥١. وعلى فرض أن الخلاف لفظي مع الجمهورفأبو مسلم قد أساء الأدب مع الله في تحمسه لرأي قائم على تحاشي لفظ اختاره الله سبحانه وتعالى.

٣- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها)، ٦ / ١٩، ح٤٤٨١.

أما أدلة جوازه عقلاً:

١- أن لله تعالى أن يكلف عباده بما شاء لمصلحة ولغير مصلحة. وأحوال العباد تختلف من حال إلى حال، فيختلف التكليف لمصلحة العباد، ألا ترى أن الرجل قد يكون من مصلحته في: وقت البر واللطف، وفي وقت آخر مصلحته: التشديد والعنف، ويبين صحة هذا أن الطاهر تصوم وتصلي والحائض تمنع منهما[1].

٢- إن النسخ لو لم يكن جائزًا عقلاً وواقعًا سمعًا، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لكن رسالته عامة للناس، ثابتة بالأدلة القاطعة، إذن فالشرائع السابقة ليست باقية، بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع.

المبحث الخامس: أقسام النسخ في الكتاب والسنة:

النسخ يرد في القرآن وقد يرد في السنة، وهو أقسام أربعة:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن، وهو أنواع:

١. نسخ التلاوة والحكم معًا.

٢. نسخ الحكم دون التلاوة.

٣. ونسخ التلاوة دون الحكم.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة: قد اختلف العلماء في هذا القسم بين مجوز ومانع ثم اختلف المجوزون بين قائل بالوقوع وقائل بعدمه.

والمجيزون هم المالكية وأصحاب أبي حنيفة والأشاعرة والمعتزلة.

١- العدة، لأبي يعلى ٣/ ٧٧٢.

والمانعون هم الشافعي وأحمد في إحدى روايتيه وأكثر أهل الظاهر[1].

وهو نوعان:

أ- نسخ القرآن بالسنة الأحادية. والجمهور على عدم جوازه؛ لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والأحادي مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون.

ب- ونسخ القرآن بالسنة المتواترة. وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية؛ لأن الكل وحي، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤] ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى، لقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] والسنة ليست خيرا من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن: وهو جائز، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتًا بالسنة، وليس في القرآن ما يدل عليه، وقد نسخ بالقرآن في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ووجوب صوم يوم عاشوراء، كان ثابتًا بالسنة[2] ونسخ بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ومنع هذا القسم الشافعي في إحدى روايتيه، وقال: «وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعه سنة عاضدة، تبين توافق الكتاب والسنة»[3].

١- ينظر: العدة، لأبي يعلى ٣ / ٧٨٨، الرسالة، للشافعي، ص١٠٨، تيسير التحرير، لأمير بادشاه، ٣ / ٢٠٣، شرح تنقيح الفصول، القرافي، ص٣١١، الإحكام، الآمدي ٤ / ٤٧٧.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، ٣ / ٤٣، ح٢٠٠١ بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر».

٣- تنظر المسألة في: الرسالة، للشافعي، ٣١١-٣٤٥، تيسير التحرير، لأمير بادشاه ٣ / ٢٠٢، المستصفى، للغزالي، ١ / ١٢٤، العدة، لأبي يعلى ٣ / ٨٠٢.

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة:

وتحت هذا أربعة أنواع:

نسخ سنة متواترة بمتواترة. ونسخ آحاد بآحاد.

ونسخ آحاد بمتواترة. ونسخ سنة متواترة بآحاد.

والثلاثة الأولى جائزة عقلاً وشرعًا- أما النوع الرابع فالجمهور على عدم جوازه[1].

المبحث السادس: أنواع النسخ في القرآن:

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

أما النوع الأول: نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

وهذا النوع لا خلاف فيه عند القائلين بالنسخ، وذكر العلماء فيه الآيات المتعددة. والتحقيق أنها قليلة.

ومثاله: نسخ حكم آية العدة للمتوفى عنها زوجها بالحول مع بقاء تلاوتها، فالعدة كانت في بدء الأمر حولاً، فنسخت إلى أربعة أشهر وعشرا، وهما جميعًا في القرآن، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] نسخ بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وذلك على ما ذهب إليه جمهور المفسرين[2].

١- تنظر: المسألة في: العدة، لأبي يعلى ٣ / ٨٢٦، شرح تنقيح الفصول، القرافي ص ٣١٤، المحصول، للرازي٣، ٥٣٢، نهاية السول، الأسنوي ٢ / ١٨٦، الإحكام لابن حزم ٤ / ٤٨٨، المستصفى، للغزالي، ١ / ١٢٦، كشف الأسرار، علاء الدين البخاري ٣ / ١٧٥، شرح الكوكب، لابن النجار ٣ / ٥٧٠.

٢- ينظر: أحكام القرآن للجصاص١ / ٤١٤، فتح القدير للشوكاني ١ / ٢٥٩، الدر المنثور، للسيوطي ١ / ٣٠٩.

ومثله آية المناجاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢] فقد أخرج الترمذي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢] قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: مَا تَرَى، دِينَارًا؟ «قَالَ: لا يُطِيقُونَهُ، قَالَ: فَنِصْفُ دِينَارٍ؟ قُلْتُ: لا يُطِيقُونَهُ، قَالَ: فَكَمْ؟» قُلْتُ: شَعِيرَةٌ، «قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ». قَالَ: فنزلت ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣]. قَالَ: فَبِي خَفَّفَ اللهُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ(١).

وعن علي بن أبي طالب قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت. وقال «وما كانت إلا ساعة من نهار»(٢).

وقد يقال: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القرآن، كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله فيثاب عليه، فبقيت التلاوة لهذه الحكمة.

وثانيهما: أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرا بالنعمة في رفع المشقة. وأما حكمة النسخ قبل العمل، كالصدقة عند النجوى، فيثاب على الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر.

النوع الثاني: نسخ التلاوة والحكم معًا.

وقد مثل له العلماء بما رواه مسلم وغيره عن عائشة أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ(٣).

١- سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة الجمعة، ٥/ ٣٢٩، ح ٣٣٠٠.

٢- فتح القدير للشوكاني ٥/ ١٩١، الدر المنثور للسيوطي ٦/ ١٨٥.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الرضاع، باب: التحريم بخمس رضعات، ٢/ ١٠٧٥.

فنسخت العشر تلاوة وحكمًا بخمس، ونسخت الخمس تلاوة، وبقي حكمها عند الشافعية[1].

وهذا المثال فيه نظر.

أولاً: أن بعض الروايات تصف العشر -كما في رواية مسلم السابقة- بالمعلومات، وبعضها ليس فيه هذا الوصف، كما عند أبي داود[2].

ثانيًا: أن بعض الروايات تذكر أن رسول الله ﷺ توفي وهن مما يقرأ -كما في رواية مسلم السابقة- وبعضها تذكر أنه قد سقط من القرآن[3].

ثالثًا: أن بعض الروايات[4] تذكر أن العشر رضعات كانت أولا، ثم جاءت بعدها الخمس -كما في رواية مسلم السابقة- وبعضها يبين أن الخمس والعشر كانتا معًا.

فإذا كان هذا قرآنًا فلم الاختلاف الكبير فيه.

قال أبو شهبة: «فاختلاف الرواية عنها يدل على أنه كان باجتهاد منها استندت فيه على ما ظهر لها من السنة، ولو كان قرآنًا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف»[5].

قال فضل عباس: «وقد يقال: إن هذه الخلافات لا تؤثر فيه على هذه الرواية ويعتمد منها أصحها وهو ما جاء عند الإمام مسلم، لكن هذا الجواب لا يُذهب ما يُتصل بهذه الروايات من إشكالات، ولا يُذهب ما في النفوس من تساؤلات، فإذا كان هذا قرآنًا يقرؤه الناس فكيف يختلف الصحابة -رضوان الله عليهم-

---

١- ينظر: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، مكي بن أبي طالب، ص ٤٥، ٤٤ وشرح الكوكب، لابن النجار ٣ / ٥٥٧.

٢- سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب هل يحرم ما دون خمس رضعات، ٢ / ١٨٢، ح٢٠٦٢.

٣- سنن ابن ماجه، أبواب النكاح، باب لا تحرم المصة ولا المصتان، ٣ / ١٢٢، ح١٩٤٢.

٤- المصدر السابق، والمعجم الأوسط، للطبراني، ٣ / ٩٩، ح ٢٦١١.

٥- المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ٢٩٦.

في عدد الرضعات المحرمة، وهذا الخلاف استمر بعد الصحابة إلى التابعين ومن بعدهم»[1].

وقد نفي كونه قرآنًا بعض العلماء، وإليك بيان ذلك:

قال الحافظ ابن حجر في الفتح، في معرض ذكر ما يقوي مذهب الجمهور القائلين بتحريم قليل الرضاع وكثيره: وأيضا فقول عائشة: عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات، فمات النبي ﷺ، وهن مما يقرأ- لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قول الأصوليين؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والراوي روى هذا على أنه قرآن، لا خبر، فلم يثبت كونه قرآنًا، ولا ذكر الراوي أنه خبر ليقبل قوله فيه[2].

وقال أبو شهبة: «إن هذه الرواية مهما صحت فهي آحادية لا يثبت بها قرآن؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، ثم هي أيضًا لا تعارض القطعي الثابت بالتواتر، وهو القرآن الذي بين أيدينا اليوم، وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن.

وقال أيضًا: «ومما يدل على أنه ليس قرآنًا، وأنه كان تشريعًا ثابتًا بالسنة، ثم نسخ بالسنة اختلاف الرواية عنها في القدر المحرم»[3].

فمما سبق يتضح لنا عدم قرآنية ما جاء عن عائشة رضي الله عنها «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات».

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

واستدل العلماء لهذا النوع بآية الرجم.

١- اتقان البرهان، فضل عباس: ص٣٨.

٢- فتح الباري لابن حجر، ٩/ ١٤٧.

٣- المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة، ٢٩٥.

وقد جاء التصريح بذكرها عند النسائي وغيره من حديث عمر رضي الله عنه وهي: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ»[1].

واستدلالهم بحديث عمر رضي الله عنه، فيه نظر.

١. أنه لم يأت التصريح عند البخاري بقوله الشيخ والشيخة[2]، قال ابن حجر: «ولعل البخاري هو الذي حذف ذلك عمدًا»[3].

٢. قال النسائي: «لا أعلم أحدًا ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة غير سفيان وينبغي أن يكون وهم في ذلك»[4].

٣. وقال الشيخ أبو شهبة: «هذه الروايات آحادية فهي لا يثبت بها قرآن، ولا تعارض القطعي الثابت بالتواتر، وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله، وسنة من السنن»[5].

٤. أخرج مالك في موطئه عن عمر... وَالَّذِي نَفْسِي بيَده، لَوْلا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ الله، لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ) فَإِنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا[6]. قال أبو شهبة: «إذ لا يقال: زاد لما عرف أنه منه، لكنه لما كانت عنده سنة مؤكدة وحكما لازما حث على حفظها وقراءتها ودراستها، حتى لا يغفل الناس عنها، كما حث على حفظ آي القرآن.

١- السنن الكبرى للنسائي، كتاب الرجم، تثبيت الرجم، ٦/ ٤١٠، ح٧١٣٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، ٨/ ١٦٨، ح٦٨٣٠.

٣- فتح الباري، لابن حجر، ١٢/ ١٤٣.

٤- السنن الكبرى للنسائي، كتاب الرجم، تثبيت الرجم، ٦/ ٤١٠، ح٧١٣٥.

٥- المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ٣٠٢، وينظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ٢٥٠.

٦- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب الرجم ٢/ ٨٢٤، والشافعي في ترتيب مسند الشافعي ٢/ ٨١ وابن ماجة في الحدود، باب الرجم، ٢/ ٨٥٣

٥. أنه ورد نصُّ الآية بعبارات مختلفة، فواحدة منها تذكر قيد الزنا بعد ذكر الشيخ والشيخة، وواحدة لا تذكره، وثالثة تذكر عبارة «نكالاً من الله»، ورابعة لا تذكرها، وما هكذا تكون نصوص الآيات القرآنية ولو نُسِخَ لفظها، وفي بعض هذه الروايات جاءت بعض العبارات التي لا تتفق ومكانة عمر ولا عائشة، مما يجعلنا نطمئن إلى اختلاقها ودسِّهَا على المسلمين[1].

٦. قال الشيخ أبو شهبة: «وإن نظرة فاحصة في» الشيخ والشيخة... إلخ «لترينا أنها ليس عليها نور القرآن ومسحته، ولا فيها حكمته وإعجازه»[2].

قال أبو جعفر: «وإسناد الحديث صحيح إلا أنه ليس حكمه حكم القرآن الذي نقله الجماعة عن الجماعة ولكنه سنة ثابتة»[3].

وبعد البيان لهذه الأنواع يتبين لنا أن النوع الأول وهو (نسخ الحكم وبقاء لتلاوة) قد تحقق في القرآن الكريم، لذا فهو مقبول.

أما النوع الثاني والثالث: فمرفوضان؛ لأنهما لم يتحققا في واقعة واحدة.

المبحث السابع: النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

الحكم الذي ينسخ، إما أن يحل مكانه حكمًا آخر فهو النسخ ببدل، وإما لا، فهو النسخ بغير بدل وكلاهما جائز عقلاً وواقع سمعًا على رأي الجمهور[4].

١- فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢].

١- ينظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ٢٥٠.

٢- المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص٣٠٣.

٣- الناسخ والمنسوخ، للنحاس، ص٦١.

٤- ينظر: العدة، لأبي يعلى ٣ / ٧٨٥، مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ١٨٦.

نسخت بقوله: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة: ١٣] فرفع هذا التكليف من غير أن يكلف الناس بشيء مكانه، بل تركهم في حل من ترك الحكم الأول دون أن يوجه حكمًا آخر.

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك، وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]. حيث أفادت الآية أنه لا بد أن يؤتي مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله[1].

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى، إذا نسخ حكم الآية بغير بدل، فإن هذا يكون بمقتضى حكمته، ورعايته لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيرًا من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للناس، ويصح حينئذ أن يقال: إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيرًا للناس.

٢- النسخ إلى بدل أخف: مثل قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] الآية- فهي ناسخة لقوله: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية، كما ذكروا ذلك.

٣- النسخ إلى بدل مساو: كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في قوله: ﴿ ..فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة ١٤٤].

٤- والنسخ إلى بدل أثقل: كنسخ صوم يوم عاشوراء، بصوم شهر رمضان كله.

١- ينظر: شرح الكوكب، لابن النجار ٣ / ٥٤٥، الإحكام للآمدى ٣ / ١٣٥، إرشاد الفحول، الشوكاني ص ١٨٧، المستصفى، للغزالي، ١ / ١١٩، فواتح الرحموت، للسهالوي ٢ / ٦٩.

ونحوه كنسخ إباحة الخمر بتحريمها ومنه أنه تعالى نسخ ما فرض من مسالمة الكفار المحاربين بما فرض من قتالهم وهو كره.

وهذا النوع محل خلاف، والجمهور على الجواز[1].

أسئلة للمناقشة

١. عرّف النسخ لغة واصطلاحًا مع شرح التعريف

٢. هل يقع النسخ قبل وقت الفعل؟ دلل على ما تقول.

٣. وضح شروط النسخ.

٤. بيّن ما يقع فيه النسخ ومالا يقع.

٥. لمعرفة النسخ أهمية كبرى، وضح ذلك.

٦. ما حكم النسخ؟، وما طرق معرفته؟

٧. اذكر آراء العلماء في حقيقة النسخ مع ذكر أدلتهم.

٨. اذكر أدلة جواز النسخ عقلاً وسمعًا

٩. هل يجوز نسخ القرآن بالسنة؟

١٠. أكمل ما يأتي

أ- أنكر........النسخ، بينما توسع فيه.............، وقال بجواز وقوعه عقلا وامتناع وقوعه شرعًا........

ب-أنواع النسخ في القرآن ثلاثة هي.............، ....،
....

١- تفسير ابن كثير، ٢ / ٢٠٤.

١١. اذكر مثالا لنسخ السنة بالقرآن.

١٢. ما أنواع نسخ السنة بالسنة؟

١٣. ما وجه الدليل في قوله تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]

١٤. اذكر مثالا لما يأتي:

أ- نسخ إلى بدل أخف.

ب- نسخ إلى بدل مساو.

ج- نسخ إلى بدل أثقل.

د- نسخ إلى غير بدل.

الفصل الثامن: القصص في القرآن الكريم

مقدمة:

يمتاز القصص القرآني بسمو غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه؛ حيث يشتمل على فصول في الأخلاق مما يهذب النفوس، ويحمل الطباع، وينشر الحكمة والآداب.

لقد طرق القصص القرآني في التربية والتهذيب مذاهب شتى، فطورا تساق القصة مساق الحوار، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار، كما حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم والشعوب وحكامهم.

لقد قص ذلك في قول بيّن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب؛ ليدل الناس على الخلق الكريم، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد.

لقد أصبح أدب القصة اليوم فنا خاصا من فنون اللغة وآدابها، والقصص القرآني يمثل هذه النوعية من الفن تمثيلا قويا وبليغا؛ وذلك لتوافر الصدق فيه[1].

المبحث الأول: معنى القصص:

القصص: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى ﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ [الكهف: ٦٤]، أي: رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به. وقال تعالى على لسان أم موسى ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ ﴾ [القصص: ١١]، أي: تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة، قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقال ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ

١- ينظر: قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى وآخرين ط. دار الجيل، بيروت.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

والقصص في القرآن الكريم لا يراد به سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس، كما قال تعالى في سورة هود، بعدما ذكر موجزا من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، قال تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]. ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب، ولا يراد فيها الاستقصاء.

قال ابن كثير: يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من الحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين. كل هذا مما نثبت به فؤادك، أي: قلبك يا محمد؛ ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة[1].

المبحث الأول: أنواع القصص في القرآن:

القصص في القرآن الكريم ثلاثة أنواع[2]:

النوع الأول– قصص الأنبياء: وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى ومحمد

١- تفسير ابن كثير ٢ / ٤٦٥.

٢- ينظر: في رحاب التنزيل، إسلام دربالة، ١٥٦، نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد، ١٠٧.

وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ويحتل قصص الأنبياء جانبا غير قليل من السور المكية، ويتركز بصفة خاصة في مجموعة من السور، يحمل بعضها اسم واحد من الأنبياء. بالإضافة إلى سورة «الأنبياء» التي يشير اسمها إلى موضوعها، وتلك السور هي: الأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والكهف ومريم وطه والأنبياء والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والصافات وص... غير إشارات عديدة جدا في كثير من السور المكية.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم.

كقصة الذين أخرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ.

كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في سورة التوبة، وغزوة الأحزاب وبنى قريظة في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

المبحث الثاني: أهداف قصص الأنبياء:

يجيء القصص في القرآن لأهداف شتى منها:

١- إثبات صدق الوحي المنزل على رسول الله ﷺ:

يقول سبحانه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ

مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: آية ٣][(١)].

٢- التسرية عن الرسول ﷺ فيما يلقاه من قومه تكذيب وأذى، واتهام بالسحر والجنون، فقد كذب الرسل من قبل، ووجه لهم نفس القول، ثم صبروا، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: آية ٣٤][(٢)].

ومع التسرية عن الرسول ﷺ، التسرية عن المؤمنين كذلك، وهم يلقون العنت والعذاب بسبب إيمانهم، فيعرض عليهم قصص الأمم السابقة؛ليعلموا أن هناك مؤمنين قبلهم أذيقوا ألوان العذاب والتشريد، ثم صبروا على عقيدتهم، ثم يخبرهم أن العاقبة للمتقين، إما بنصر في الحياة الدنيا يقدره الله، وإما بالجزاء الأوفى في الآخرة، وهنا ترد - كثيرا - عقيدية مع فرعون، وهو يسومهم سوء العذاب[(٣)].

٣- كذلك من أهداف القصص القرآني: إبراز حقيقة عقيدية مهمة، تبرز من خلال السرد التاريخي، وهي أن الأنبياء والرسل جميعًا، عليهم صلوات الله وسلامه، جاءوا بكلمة واحدة على تتابع الأجيال، هي: لا إله إلا الله، وقضية واحدة هي: اعبدوا الله مالكم من إله غيره.

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني، ويبدو بارزا، شديد البروز من خلال السرد القرآني، وتتخذ له وسائل شتى. فأحيانا يوجد أسلوب القصص (مع التنويع الواضح في القرآن) بحيث تجيء العبارة موحدة على لسان كل رسول في الشريط المتتابع للرسل، كل رسول يقول الكلمة ويمضي، ويأتي من

١- وينظر: هود: آية ٤٩، طه: آية ٩٩، ١٠٠، القصص: الآيات ٤٤-٤٦.

٢- وينظر: الأعراف: الآيتان ١٠١، ١٠٢، هود: آية ١٢٠، يوسف: آية ١١٠، الفرقان: آية ٣١، ص: الآيات ٤-١٥، فصلت: آية ٤٣، الذاريات الآيتان ٥٢، ٥٣.

٣- الأعراف: الآيات ١٢٩-١٣٧، القصص: الآيات ١-٦، طه: الآيات ٧٠-٧٣.

بعده بنفس الكلمة بلا تغيير.

وتارة يقال عن قوم معينين إنهم كذبوا «الرسل» مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب للرسل كلهم؛ لأنهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير، فمن كذب واحدا، منهم فقد كذبهم جميعا.

وتارة يقال عن أقوام متعددين: إنهم عصوا رسول ربهم، فيوضح ذلك، أن كل أمة كذبت رسولها، ويوحي في ذات الوقت أنه كأنما هو رسول واحد الذي بعث إلى هذه الأقوام جميعًا؛ لأنهم - على اختلاف أقوامهم، وأزمانهم وأماكنهم ولغاتهم - قد قالوا ذات الكلمة وعرضوا ذات القضية... ومن هنا فالرسل جميعًا كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام.

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء في سورة الأعراف قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ..وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ ..وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ...وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٩-٨٥][1].

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء نفسها، التي جمعت بين الوسيلتين، إذ وحدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة، يكررها كل رسول، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون «المرسلين» جميعا؛ بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم. وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذبوا «الرسل»، مع أنهم كذبوا رسولهم الخاص وحده وهو نوح، عليه السلام. ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا

١- وينظر: هود: آية ٢٥-٤٨، الشعراء: آية ١٠٥-١٨٠.

لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: آية ٣٧].

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء في سورة الحاقة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة: ٤-١٠].

والتعبير - وإن كان يفهم منه أن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها - إلا أن اللفتة فيه واضحة، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون ومن قبله، والمؤتفكات، قد جمعوا في رسول واحد؛ لأن مهمتهم كلها واحدة، وقضيتهم كلها واحدة.. فكأنهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها.

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن موسى وهارون معا أنهما «رسول» رب العالمين ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٥-١٧] وليس هناك لبس على الإطلاق في أن المتكلم اثنان معا لا واحد؛ لأن الأمر صار إليهما معا «فقولا»؛ ولأنهما يقولان «أن أرسل معنا بني إسرائيل» فموسى وهارون يتكلمان معا، وحتى لو فرضنا أن موسى وحده هو الذي يتكلم باسميهما معا فهو يقول «إنا» ولا يقول «أنا».. أي: أنه يتكلم بضمير المثنى لا المفرد، ومع ذلك يقول: «إنا رسول رب العالمين»؛ لأنهما - وهما شخصان - يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكأنهما رسول واحد.

هذه القضية كما قلنا ذات أهمية خاصة في القرآن، وهي فضلا عن أهميتها العقيدية في تقرير وحدة الرسالة، ووحدة الألوهية، وأن توحيد الألوهية هو القضية الكبرى في حياة البشرية، بحيث يرسل الرسل المتتابعون من أجلها وحدها، وكل شيء بعد ذلك مترتب عليها. فضلا على هذا الجانب الاعتقادي، فإنه يعطي شعورا «بالانتماء» إلى أمة موحدة على تتابع الأجيال ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

٤- ومن الأهداف المهمة كذلك الموازية في أهميتها لقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل، إبراز الموقف الموحد الذي يقفه أهل الباطل جميعا من رسلهم، الذين أرسلوا إليهم.

فكما أنها رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات والزمان والمكان، فهي كذلك ضلالات واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات والزمان والمكان ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

إن موقف أهل الضلال واحد من كل رسول: التكذيب والإعراض... ثم التشهير بالرسول حين يتضح أنه مصر على دعوته، لم يثنه عنها إعراض ولا تكذيب.. ثم التهديد بالأذى له وللذين آمنوا معه... ثم تنفيذ التهديد أحيانا أو الحيلولة دون ذلك بقدر الله.

دورة واحدة، ودور واحد يقوم به أهل الكفر دائمًا إزاء هذه الدعوة البسيطة غاية البساطة، الخطيرة، غاية الخطورة.. دعوة لا إله إلا الله.

والقرآن يبرز هذا الدور إبرازا شديدًا في قصص الأنبياء. وقد كان من أهداف هذا الإبراز- ولا شك- أن يقال للرسول ﷺ وللمؤمنين: إن ما تفعله بكم قريش من اضطهاد وتعذيب، هو الذي صنعه كل أصحاب الضلالات من قبل في التاريخ... ثم كانت النهاية دائمًا هي انتصار الحق وتدمير المكذبين.

٥- الابتلاء لابد أن يحدث للمؤمنين، وهذا الهدف من أهداف القصص القرآني ربما لم يكن منصوصًا عليه في القصص ذاته، ولكنه مفهوم من سياق القصص أولا، ومنصوص عليه كذلك في مواضع أخرى من القرآن الكريم، كما جاء في أول سورة العنكبوت ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

إن القصص القرآني يقول لنا - من خلال السياق- إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين.. ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر منه.. ويضع الظالمين في موضع الغلبة بقدر منه.. حتى إذا جاء أمر الله، جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر من الله كذلك[1].

المبحث الثالث: فوائد القصص القرآني:

للقصص القرآني فوائد منها:

١. إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢. تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله.

٣. إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته، بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

٤. مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

٥. التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشري، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية، وكما عبر الشاطبي، فإنه ليس المراد بنفي كون قصص القرآن تاريخا، أن التاريخ شيء باطل ضار ينزه القرآن عنه، كلا، إن قصصه شذور من التاريخ تعلّم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ.

١- دراسات قرآنية: محمد خطاب، ص ٩٩-١١١.

٦. القصص ضرب من ضروب الأدب والعبر، يصغى إليه السمع، وترسخ عبره وأدبه في النفوس. قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

المبحث الرابع: تكرار القصص وحكمته:

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتعرض في صور مختلفة من التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب وما شابه ذلك، ومن حكمة هذا:

١. التفنن بالبلاغة؛ لأن إفادة المعنى بالموجز منها بوجه أبلغ، كإفادته بصورة مطنبة من نوع الإعجاز والتحدّي.

٢. استيفاء القصة في موضع لم تستكمل فيه في الموضع الآخر.

٣. إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة، لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

٤. لفت الانتباه إلى العناية والاهتمام بالمعنى المراد ترسيخه في النفوس.

٥. جذب النفوس إلى سماع القصة بالمغايرة بين أساليبها.

٦. التكرار من أبرز صور الإعجاز؛ لأن كل قصة كررت، حصل في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وكلها في أعلى درجات البلاغة.

٧. الإعلام بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بأي نظم جاء أو بأي عبارة عبر[١].

١- ينظر: البرهان، للزركشي، ٣/ ٢٦-٢٧، اللألئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين، ص٢٤٩-٢٥٠، دار الشروق ٢٠٠٢م، نفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد، ص١٠٨، وينظر: هذه مشكلاتهم، د. البوطي، ص١١٣-١١٥، بتصرف، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجود المحص، الدار المصرية، الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص١٤٦-١٥٢، بتصرف، موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣، ١/ ٨٣١.

المبحث الخامس: القصة القرآنية حقيقة لا خيال..

المطلب الأول: مع دراسة لفكر هدام:

في المكتبة العربية (للأسف) دراسة تحت اسم (الفن القصصي في القرآن الكريم) كانت في الأصل رسالة دكتوراه من إعداد: محمد أحمد خلف الله، أشرف عليها وقدم لها وناضل عنها الأستاذ أمين الخولي، رحمه الله، وقال في تقديم الطبعة الثالثة لها[1]: إن الدكتور خلف الله: «من الذين آمنوا.. وآمنوا بالحق.. وآمنوا بالتطور فمضوا يدرسون القرآن دراسة فنية متجددة». مستفيدين من التقدم الفني والعقلي والاجتماعي. فانتهوا بذلك إلى أن قدموا التفسير الأدبي للقرآن خطوة للأمام بعيدة الأثر.. خطوة حسبها أن تمنع ازدواج الشخصية في المتدين.. ذلك الازدواج الذي يتجلى حين يدين مثقف بالإسلام واثقا موقنا.. ثم يدرك ويقرر: أن الإسلام وكتابه القرآن يحدث عن الأشخاص والواقعات بما يشاء، ويستغلها في ترويج الدعوة الإسلامية كما يشاء.. دون أن يكون ذلك حقا ملزما للمؤمنين».

ثم يقول أمين الخولي: «إن المؤمنين بالعلم وبالتطور وبالسنن الفنية قد حلوا تلك الأزمة[2]، بأن فرقوا بين العرض الفني الأدبي وبين العرض التاريخي، والأول هو منهج القرآن في قصصه. وعلى هذا يستطيع المثقف الراقي حين يتدين أن يعتقد في تسليم مطمئن بحديث القرآن الفني في قصصه، ومع ذلك يحقق ويحلل في عمق ووضوح تاريخ هاتيك الأحداث وأشخاص أصحابها، وينفي في ذلك ويثبت مطمئنًا إلى أن هذا لن يصادم بحال ما ذلكم العرض الفني الآخر[3]».

١- طبعتها مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٥م، وكانت قد طبعت من قبل عام ١٩٥٣م، ثم عام ١٩٥٧م، وقدم لها وعرضها خليل عبد الكريم، في طبعة سينا للنشر / ٤، ١٩٩٩م.

٢- يعني: التي تواجه المسلم المثقف المتدين - كما يقول.

٣- ص: د، هـ من التقديم.

يتكلم خلف الله عن القصص القرآني فيقول: «إن التاريخ ليس من مقاصد القرآن، وإن التمسك به بمقياس الصدق التاريخي في القصص القرآني» خطر أي خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن، بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة[1]».

ويقول: «إن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع، وليست من مقاصد القرآن في شيء، ومن هنا أهمل القرآن مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب الأحداث[2]».

وبعد أن يقرر هذه المقدمة السابقة القائلة بأن الصدق التاريخي لم يكن من مقاصد القرآن الكريم فيما عرض له من وقائع وقصص تاريخية؛ يرتب على هذه المقدمة نتيجة أهم وأخطر، حيث يقول: «ومن هنا يصبح من حقنا، أو من حق القرآن علينا، أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل[3]. ولكن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن؛ لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ، ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض.

إن المخالفة هنا لن تكون إلا مخالفة لما تتصوره البيئة ولما تعرفه عن التاريخ. ولم يقل قائل بأن ما تعرفه البيئة العربية عن التاريخ هو الحق والصدق. ولم يقل بأن المخالفة لما في أدمغة العرب من صور عن التاريخ هي الكفر والإلحاد. بل لعل هذه المخالفة واجبة حتى يكون تصحيح التاريخ وخلوه من الخيالات والأوهام».

ولما كان قد استشعر أن القارئ المسلم سيقول هنا: وما للقصص القرآني

١- الفن القصصي، لخلف الله ص ٤٢.

٢- المصدر السابق ص ٤٤.

٣- يعني: التي ذكرها القصص القرآني.

-وهو من عند الله- وما كانت تتصوره البيئة العربية وما كان في أدمغة العرب عن التاريخ؟! فإن خلف الله يقول بعد كلامه السابق مباشرة وفي أصرح عبارة: «أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين: وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما في القصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصورة الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام من التاريخ. وما يعرفه هؤلاء، لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع، كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع؛ لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب، وتعتقد البيئة، ويعتقد المخاطبون»[1].

إذن فنظرية خلف الله: هي أن القرآن الكريم استخدم الأساطير والأكاذيب التي كانت في أذهان العرب عن الوقائع التاريخية، فنزل بها، ولم يصححها أو ينص على كذبها خدمة لأغراضه في العظة والاعتبار ومجاراة لمعتقدات القوم الذين نزل فيهم. وهذا هو صنيعه البلاغي المعجز وأسلوبه البياني في التعبير - كما يقرره خلف الله.

ثم يقول: «أما الآيات التي يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة «بالحق» من مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٢٠]- فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة، إنما هي الأحداث التاريخية. بل لعل رأيا آخر هو الراجح، وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذا القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية».

لكن، ما الأسباب التي حملته على هذا كله؟ وأين تأكد من التناقض بين قصص القرآن والواقع التاريخي، حتى يذهب هذا المذهب؟

١- الفن القصصي، لخلف الله، ص ٢٥٥.

يقول: إن الملاحدة والمستشرقين والمبشرين وقفوا أمام مسائل من القرآن، جعلوا التاريخ مقياساً تقاس به صحة الأخبار فيها، فحاولوا بيان وجه المخالفة بين الأقاصيص القرآنية وما يعرفونه من تاريخ، ويذكر من ذلك:

١- قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ [آل عمران: ٤٦]، فينقل عن الرازي أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى تكلم في زمن الطفولة، ويحتجون بأن هذا لو حدث لكان من الوقائع العجيبة التي تنقل بالتواتر(١).

٢- وفي آية ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، يروي خلف الله في تفصيل ما يذكره المبشرون والمستشرقون من أن النبي ﷺ- بزعمهم- كان يرى أن مريم أم المسيح، كانت أخت هارون أخي موسى عليهما السلام، مع أن بينه وبينهما من الزمن ألفا وخمسمائة وسبعين سنة.

ويعلق خلف الله على ذلك كله بقوله: «هذه الأقوال -وكثير غيرها- إنما كانت؛لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ. ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي؛ لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح، ولسدوا على المشركين والمبشرين السبل، وحالوا بينهم وبين الطعن على النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم»(٢).

أما هذا (الأساس من الفن الأدبي) فهو ما سبق أن قرره من أن القرآن استخدم الصور الذهنية والأساطير عند العرب الجاهليين استخداماً بلاغياً - كما يقول- لإثارة العواطف والانفعالات، بصرف النظر عن الصدق الواقعي.

ثم عن قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا

١- ينظر: تفسير الرازي ٥ - ٣٥.

٢- ينظر: الفن القصصي، لخلف الله، ص٢٥-٢٨.

يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾ [الكهف: ٨٦]

فقال: «بان للعقل الإسلامي أن مسألة غروب الشمس في عين حمئة لا تستقيم وما يعرف من حقائق هذا الكون»[١].

ويقول: «وبان للعقل الإسلامي أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد - اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك، حديث من يأخذ الناس بعقائدهم تقوية للروح المعنوية، وبثاً للأمل القوى بالانتصار السريع في النفوس»[٢].

.... وبعد، فهذه هي نظرية خلف الله - ومن يدافعون عنها- في القصص القرآني، ومعنى (المجاز و الأسلوب البياني) فيها.

ومن ثم لن نعجب حين يصرح بأن في القرآن أساطير، حيث يقول: «إننا لا نتحرج من القول بأن في القرآن أساطير» ويمثل لها بقوله تعالى ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾[٣] [البقرة: ٢٥٩].

أما الإعجاز التعبيري في القرآن الكريم فهو يقول عنه بالحرف الواحد: «لقد تقرر أن القرآن إنساني العبارة، بشري الأسلوب، جاء على سنن العرب في بلاغتها وبيانها».

فهل بعد ذلك كله يأتي من يقول: إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب؟

إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية...الخ، وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب، وإنما

١- المصدر السابق ص ٣٤، وسنعود على ذلك كله بالمناقشة المفصلة فيما سيأتي إن شاء الله.

٢- المصدر السابق ص ٣٦-٣٧.

٣- المصدر السابق ص ٨٠-١٨١.

هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان»[١].

وفي تفسير ما قرره من بشرية الأسلوب القرآني - يقول: «القصص القرآني يمثل نفسية النبي، ويمثلها في أدق مراحلها وفي أعنف صورها». وفي سبيل تقرير ذلك يقارن بين أسلوب القرآن الكريم وما يرويه من ظروف النبي ﷺ النفسية[٢].

المطلب الثاني: نقض وتقويم:

...هذا هو كتاب خلف الله، وهذه هي نظريته في تفسير القصص القرآني، التي بشر لها بأنها هي التي ستحل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين، والتي قال عنها أستاذه أمين الخولي إنها قد أصبحت كسبا فنيا، ووجها من الإعجاز القرآني عند أصحاب الدين والأدب.

أولا: خلف الله وأصحابه تابعون لا مؤصلون في هذا:

فتلك دعوى قديمة قالها من قبل طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) حين زعم أن القرآن الكريم فيما ذكره عن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قد استغل أسطورة اختلقها يهود شبه الجزيرة العربية لإثبات صلتهم بالعرب، فجاء القرآن الكريم واستخدمها لتأكيد هذه الصلة وإثبات الاتصال بين (الإسلام) و(اليهودية) وبين (القرآن) و(التوراة)، مع مخالفة ذلك كله للواقع التاريخي، ومن ثم فالقرآن - كما زعم- كان يأتي بالأساطير الشائعة المخالفة للتاريخ والواقع في أصلها، ليحقق أهدافا له من وراء ذلك، فهو لا يراعي الصدق التاريخي والاتفاق من الواقع، إنما يستخدم ما في أذهان معاصريه من أساطير ليحقق أهدافاً له من وراء ذلك[٣].

١- الفن القصصي، لخلف الله ص ١٣٧-١٣٨.

٢- المرجع السابق: ص٣٣٧، ٣٠٥.

٣- ينظر: ص٢٦ من الشعر الجاهلي.

ولست أدرى هل كان أمين الخولي (الذي أيد مذهب تلميذه) يعرف أن طه حسين لم يكن هو أصل هذه الدعوى، بل كان ناقلاً لها كما نقلت عنه بعد؟ وإذا صرفنا النظر في هذا عن المستشرقين الذين تلقن طه حسين عنهم، فإننا نجد كتاباً يسمى (ذيل مقالة في الإسلام) قد طبع بمطبعة النيل لمن سمى نفسه بـ (هاشم العربي)، وإنما هو في حقيقته مبشر خبيث يحاول -في لؤم- تشكيك المسلمين في كتابهم (القرآن) بزعم أنه استخدم الأساطير والأكاذيب الشائعة، ومن يقارنه بكتاب طه حسين السابق، فسوف يتيقن في وضوح أن طه حسين لم يكن إلا ناقلاً عن هذا المتخفي تحت اسم (هاشم العربي). وقد أجرى المرحوم الشيخ محمد أحمد عرفة (الوكيل الأسبق لكلية الشريعة الإسلامية بمصر)مقارنة بين نصوص من الكتابين، أثبتت ذلك بما لا يدع احتمالاً للشك فيه[1].

بل إن الزعم بأن في القرآن الكريم أساطير وأكاذيب أقدم من هذا، وكما يقول ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم ٢١٣-٢٧٦هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن): فقد «اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأفهام كليلة وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن، وفساد النظم والاختلاف. وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور»[2].

بل إننا لو تقدمنا مع الزمن حتى عصر التنزيل، لوجدنا أنه لم يخل من اتهام القرآن الكريم بالأسطورة والكذب المناقض للواقع، وقد روى القرآن نفسه هذا

١- ينظر: نقض مطاعن في القرآن الكريم، محمد عرفة، ص١٠١ وما بعدها، وقد طبع كتاب (ذيل مقالة في الإسلام) للمرة السادسة عام ١٩٢٥م، وقد طبع من قبل سنة ١٨٩١م.

٢- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص١٧ وقد ألفه ابن قتيبة لنقض شبههم، وينظر أيضا: الأنفال ٣١، النحل ٢٤، المؤمنون ٨٣، النمل ٦٨، الأحقاف ١٧، القلم ١٥، المطففين ١٣.

الزعم في آيات متعددة، منها: قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦].

ثانيا: محاولة باطلة لارتداء ثوب الدفاع عن القرآن الكريم:

يحاول خلف الله -ومن ناصروه- أن يزينوا لجمهور المسلمين نظريتهم السابقة في تنحية مقياس (الصدق) في النظر إلى القصص القرآني، وإبداله بمقياس (الفن الأدبي) الذي يبيح -كما قالوا- استخدام الأساطير والأكاذيب والصور الذهنية عند العرب الجاهليين، بحجة أن ذلك هو الذي يعفي القرآن من أن ينظر إليه المستشرقون والمبشرون بمقياس (الصدق) مع التاريخ، ومع الواقع الكوني والطبيعي، فينفتح لهم -كما قال- باب للطعن في صحته، لعدم اتفاقه مع التاريخ أو الواقع.

فهذه صورة مضحكة إذن للمدافع، حين يبدأ دفاعه بالتسليم بارتكاب الجرم، مع أن من يدافع عنه بريء، ناصع البراءة، كما سيتبين لنا إن شاء الله.

ثم إننا حين نأتي إلى العلل والأسباب التي ذكروها في (تبرير) تسليمهم باشتمال القرآن الكريم على أكاذيب وأساطير -فسنجد أنها علل متهافتة تؤيد- فيما تنتهي إليه ضمنيًا- القائلين بأن القرآن الكريم من كلام محمد ﷺ، إذ لا يستقيم معها بحال، القول، بأن القرآن الكريم كلام الله القادر العالم بكل شيء؛ لأن هؤلاء يقولون: إن القرآن استخدم الأساطير والأكاذيب التي كانت تعرفها البيئة العربية وقت نزوله، تحقيقاً لعنصر التأثير في نفوس المعاصرين وتمكيناً للإيمان به في قلوبهم. فهل يستقيم مع هذا القول أن يكون القرآن قد نزل من عند الله ذي القدرة المطلقة التي لا يحدها حد؟

من الواضح أن الأمرين لا يتوافقان أبداً؛لأن الله تعالى - هو الحق القادر- أعظم من أن يلجأ في كتابه المنزل، الذي أنزله لهداية الخلق جميعاً- إلى استخدام الباطل والأكاذيب ليجتذب بها العرب من معاصري نزوله إلى الإيمان، وهو يعلم أن هذا الكتاب سيؤمن به غيرهم في أزمنة وأمكنة أخرى.

وهل يصح مثل هذا القول إلا بناء على عقيدة ترى أن الإسلام (دين محلي) نزل إلى عرب شبه الجزيرة في القرن السابع الميلادي، واجتذبهم إلى الإيمان بموافقته، لما كان عندهم من أوهام وخيالات وأباطيل تخالف التاريخ الحق؟

وهل يعقل أن الله تعالى لم يعلم حال من سيؤمن بالقرآن من غير هؤلاء، ممن تتكشف لهم حقيقة هذه (الأوهام)، كما زعم أصحاب هذه النظرية؟!

وألا يقودنا القول بذلك إلى سؤال بالغ الأهمية هو: كيف يلجأ الخالق-جل وعلا عما يقولون- إلى موافقة خيالات وأوهام العرب الجاهليين وقت نزوله، وهو القادر - بطريق القطع - على أن يصوغ كتابه المنزل من الحقائق المتفقة مع الواقع والتاريخ، التي تحدث أثرها من الموعظة والعبرة في نفس الوقت؟

...وهكذا نرى أن القول بالنظرية السابقة لا يستقيم أبداً مع الإيمان بأن القرآن (وحي إلهي)، إنما هو يستقيم، فحسب مع عقيدة ترى أنه بشري الطابع والأسلوب.

فالقرآن عند خلف الله وأصحابه «بشري الأسلوب، إنساني العبارة» لا يعنى في قصصه بالحق أو الواقع، إنما يعنى فحسب بالتأثير في نفوس معاصري نزوله من العرب بموافقته لما عندهم من أوهام وخيالات باطلة، وصياغتها لهم في أسلوب مؤثر جذاب ! فهل يتفق هذا في شيء مع عقيدة أن القرآن الكريم إلهي

التنزيل، نزل بالحق»؟[1].

لكن الأمور بحمد الله- تجري على غير ذلك، فما يباح لإنسان أن يقول في آيات نفى الافتراء والوصف بالحق، ما قاله خلف الله إلا بدليل من النص ومستند من أساليب البيان، وليس هناك -إطلاقاً- مثل هذا الدليل أو المستند الذي يبيح لخلف الله وأمثاله شيئاً من ذلك.

ولنستعرض هذه الآيات القرآنية لنرى ذلك في وضوح لا شبهة فيه:

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]. فإذا كان المضمون التاريخي في القصص القرآني -كما يزعم خلف الله وأصحابه- باطل في الحقيقة ونفس الأمر (وإن كان مطابقاً لما في نفوس المشركين أو غيرهم) ألا يكون معارضاً معارضة صريحة لمضمون هذه الآية، التي تنفي إمكان أن يتقحم الباطل إليه من بين يديه أو من خلفه؟

وما قولهم في وصف القرآن -بما فيه من قصص- بأنه(الحق) في قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقوله ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣] وقوله ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣]، وقوله ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ

١- لإلقاء مزيد من الضوء على الزعم الاستشراقي التبشيري، القائل ببشرية القرآن الكريم، وأصداء هذا الزعم في بلادنا الإسلامية، راجع كتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) للدكتور محمد البهي، ص٢٢٥-٢٤٨ حيث عرض فيه للمقارنة بين كتابي (المذهب المحمدي) للمستشرق الإنجليزي جب، و(في الشعر الجاهلي) لطه حسين - الذي سبق أن عرضنا له - والأول يعبر عن فكرة (بشرية القرآن) بأنه كان انطباعا في نفس محمد ﷺ، أما الثاني فيقول أنه كان تعبيرا عن الحياة التي عاشها.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[فاطر: ٣١]، وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]؟

فقد أثبتت هذه الآيات كلها -وأمثالها في القرآن كثير- أن القرآن كله حق، نزل من عند الله، وآياته كلها حق، وقصصه كلها حق؛ لأن الله تعالى لا يقص إلا الحق، وهو يقص علينا نبأ أهل الكهف بالحق، ونبأ موسى وفرعون بالحق، وكل ما قصه وأوحى به، فهو الحق؛ لأن الله تعالى لا يقول إلا الحق، وهو يهدي السبيل، ووحيه كله حق، وكتابه كله حق، لا يصل إليه الباطل والافتراء والكذب بأية وجه من الوجوه. وهل إذا لحق الافتراء هذه الأمور - كما يزعمون- يصح إطلاق وصف (الحق) في الآيات السابقة؟ وهل استخلاص العبرة ينافي أن يكون القصص المستخلص منه حقا؟

لقد أجابت عن هذا الزعم الباطل آخر آية في سورة يوسف وهي قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، فالعبرة المستخلصة من القصص القرآني إنما تستخلص من قصص حق، لا افتراء فيه ولا أسطورة.

وفي القرآن الكريم قوله تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] فإذا كان كل ما في القرآن قد وصف بأنه (هو الحق) فهل يستقيم بعد هذا أن يتضمن شيئا ينسب إلى باطل، أو ضلال بمخالفته لحقيقة التاريخ أو الحقائق الكونية؟

وخلاصة القول في هذا: أن الله تعالى قد وصف وحيه المنزل في القرآن، بأنه حق مطلق، لا شبهة لباطل في شيء منه بحال.

والذي جرّ خلف الله إلى مصادمة النصوص القرآنية، القطعية الدلالة -بما زعمه من تخصيص وتأويل- إنما هو وهمه أن في القرآن آيات تناقض الواقع التاريخي أو الكوني.

ثالثا: خلف الله وأصحابه يضاهئون بعض المستشرقين فيما بنوه على بعض ما في كتبهم المقدسة.

لما كان ما عند غير المسلمين من النصوص المقدسة قد أصابه التحريف، فإن علماءهم قد وجدوا أن في هذه النصوص ما يخالف بعض ما أتى به العلم والمعرفة الحديثة بعامة، فحاول بعضهم، أن يعللوا لهذا الاختلاف بتعليلات متعددة، تبقي على جوهر الإيمان بها في مجموعها، مع وجود هذه المخالفة، وقد وجدوا لتعليلاتهم هذه مخرجاً -أو شبه مخرج- فيما هو متفق عليه بينهم، من أن نصوص ما يسمونه (التوراة) و(الأناجيل) قد كتبتها أيد بشرية، هي التي صاغت ألفاظها ونصوصها؛ لأن الوحي عندهم إشراف على المعنى والروح، وليس وحياً باللفظ والنص[1].

وكان من ضمن ما قالوه في تعليل هذه المخالفة، أن كتّاب الوحي لكتبهم المقدسة، عبروا عن الأفكار الموحى بها (وهي ما يسمونه المادة الدينية) في قوالب وصياغات لفظية، انبعثت عن المفاهيم والأفكار التي كانت سائدة في عصورهم عن الكون والطبيعة والتاريخ -وهذه الأخيرة هي التي بيّن العلم الحديث عدم دقتها أو عدم صحتها- ومن ثم نراهم يقسمون (الوحي الديني) إلى قسمين:

أ- الجوهر الموحى به، وهذا صحيح خالد؛ لأنه لا يعرض لشيء إلا الأفكار الدينية الخالصة، وهي مما هو وراء الطبيعة لا يتعرض من حيث الواقع الكوني والتاريخي لشيء من التكذيب؛ لأنه لا يعرض لأمورهما.

ب- القوالب والصياغات اللفظية لهذا الجوهر الموحى به: وهي التي يعرض لها التناقض والمخالفة مع مقررات العلم الحديث؛ لأنها صدرت أصلا عن مفاهيم وأفكار عصورها. لكن التناقض والمخالفة لا تندرج على العنصر

١- ينظر: المدخل إلى الكتاب المقدس لحبيب سعد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر.

الأول المقصود أصلا (وهو الجوهر الديني الموحى به)؛لأنه هو وحده الذي يعبر عن مضمون الوحي.

فالذي يؤمن عندهم من العلماء، يؤمن بالعنصر الأول مع مخالفة العنصر الثاني لمكتشفات العلم والتاريخ الحديث؛ لأن هذا العنصر الثاني، إنما هو أثر للصياغة البشرية، وليس هو -عندهم- مما أوحى به.

ولم يكتف بعضهم بذلك -فيما يتصل بكتابه المقدس- بل حاول أن يطبق هذه الوجهة على نصوص القرآن الكريم أيضاً، بتقسيمها إلى نفس العنصرين السابقين، والزعم بأنّ فيها -كما في كتبهم المقدسة- ما يخالف حقائق التاريخ أو الواقع الكوني.

ولم تكن «نظرية» خلف الله التي نعرض لها في القصص القرآني إلا مضاهاة -إن لم تكن نقلاً- لهذه المحاولة الاستشراقية التي صدرت عن قوم، عز عليهم أن يسلموا بأنّ في كتبهم المقدسة ما يتناقض مع حقائق التاريخ والطبيعة، ثم يسام كتاب المسلمين (القرآن الكريم) من ذلك، فحاولوا أن يطبقوا عليه ما وجدوه في كتبهم بالاستناد إلى حجج واستدلالات - باطلة فيما يتصل بالقرآن الكريم- وأذاعوا ذلك بين بعض من يستمع لهم، ويأخذ عنهم من أبناء المسلمين، فكان ما كان من هذه الدعوى التي نعرض لها أصلاً في هذا المبحث !

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال كما عند البخاري عَنْ أَبِي سَعِيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟ [1].

لكن هؤلاء جميعاً، قد فاتهم أن القرآن الكريم لا يقاس على ما عند اليهود والنصارى -الآن- مما يسمونه (التوراة) و (الأناجيل)؛ لأنه قد ثبت التحريف

١- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤ / ١٦٩، ح٣٤٥٦.

والتبديل فيما أوحي به إلى موسى وعيسى، عليهما السلام، كما قال تعالى عن بني إسرائيل ثم عن الذين قالوا إنا نصارى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ المائدة: ١٣-١٤]، ومن ثم عقب الله تعالى على ذلك، بأن وجه إليهم النداء ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ -١٦].

فقياس القرآن على ما عند اليهود والنصارى -فيما يتصل بهذا الاختلاف- غير صحيح، وأيضا، فإنّ ما حاول أصحاب هذه الدعوى أن يقيموا عليه دعواهم بالنسبة للقرآن الكريم باطل بصورة مطلقة.

وبعد هذا كله، فإننا نقدم في السطور التالية الرد المفصل على ما حاول خلف الله، أن يقيم فيه تناقضات بين آيات من القرآن الكريم وحقائق التاريخ أو الكون، ليتبين لنا -إن شاء الله- أن أوهامه في هذا لا تقل عن أوهام غيره الذين يشاركونه في جوهر الدعوى.

١- أما ما يتصل بقوله تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [آل عمران: ٤٦]، حيث يشير إلى ما رواه الرازي من أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى تكلم في زمن الطفولة، ويحتجون بأن هذا لو حدث لكان من الوقائع العجيبة التي تنقل بالتواتر.

فالحق أن الرازي روى ذلك، ثم قال: «أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة

وقالوا: إن كلام عيسى عليه السلام في المهد، إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام، من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعا قليلا، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء»[1].

وإذن فإن الرازي لم يترك هذه الشبهة دون رد، وبالتالي لم يكن من الذين يقولون بها على سبيل الإيمان أو الاقتناع.

أما فيما يتصل بالتواريخ البشرية، فمما لا شك فيه أنها أهملت تسجيل كثير من الأحداث الفردية - مهما تكن أهميتها في ذاتها - حيث لم يتوافر لها من الشهادة الصادقة وتوفر سبل الإذاعة، والنقل، والبقاء على مرّ العصور ما يكفل لها ذلك.

وقد تلعب يد التحريف والتجهيل والتعمية ببعض جوانب واقعة صحيحة في أصلها، فإذا بها قد جمعت في نهاية الأمر بين الحق والباطل في قصة واحدة.

هذا معروف مسجل عن (أوهام التواريخ وأخطائها)، فهي تهمل وتنسى وتحرف، وتخدع وتتوهم، وكل هذا يتضمنه ما يسمى بـ (التاريخ البشري)، بخاصة في عصور ما قبل التدوين المنظم، ذي الأساليب والإمكانات المنضبطة شيئا ما.

وإذ كان هذا ثابتا لا شك فيه، فهل يقبل منطق البحث العلمي النزيه، أن يتخذ إغفال التواريخ القديمة لحادثة فردية مثل كلام طفل في المهد دليلا قاطعا على كذب الوحي في إخباره بها؟

أما عدم وجود ذكر لهذه الواقعة فيما عند اليهود والنصارى من كتب مقدسة، فلا يقوم هو الآخر دليلا يطعن في صحة ما جاء به القرآن من ذلك؛ لأن فيما في هذه الكتب المقدسة عندهم ما ثبت قطعا أنه مخالف للحق، ونضيف إليه

١- مفاتيح الغيب، للرازي، ٨/ ٥٥-٥٦.

أن المعقول المتفق مع طبائع الأمور، ألا يرد في التوراة المحرفة عند اليهود شيء عن واقعة كلام عيسى عليه السلام في المهد.

أما ما عند النصارى من الأناجيل، فمن الثابت أنها لم تدون وقت ما سجلته من أحداث، بل بعد ذلك، وأيضا فمن المعلوم أن الأناجيل الأربعة التي أقرتها الكنيسة، قد تضمنت أمورا وعقائد، كذبهم فيها القرآن الكريم، وعليها تقوم الديانة النصرانية - بعد ما بدل دين المسيح الحقيقي - مثل تجسد الإله، وتثليث الآلهة، وصلب المسيح عليه السلام فداء للبشر.. وإذ كان الأمر كذلك، فما المانع عقلا أو عادة من أن تكون الأناجيل النصرانية المعتمدة، قد تناولت الوقائع المتصلة بالمسيح عليه السلام بالزيادة والحذف والتبديل والتحريف؟ بل إن هذا هو الذي حدث فعلا.

٢- وأما ما يتصل بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ [غافر: ٣٦]، فخلف الله يشير إلى ما رواه الرازي من قول اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودا البتة في زمان موسى وفرعون، وإنما جاء بعدهما بزمن مديد.

والحق أن الرازي نقل هذه الشبهة ثم قال: «والجواب: أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها، واضطربت الأحوال والأدوار، فلم يبق على كلام أهل التاريخ اعتماد في هذا الباب، فكان الأخذ بقول الله أولى». ويقول الرازي: «وقد كان المعترض قال: إن هذا كما لو قال أحد: إن أبا حنيفة كان موجودا في زمان النبي»، ويرد الرازي بقوله: «بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة، فإنّ هذه التواريخ قريبة غير مضطربة، هي مضبوطة، فظهر الفرق بين البابين»[1].

ونضيف إلى ذلك أنه قد ورد ذكر (هامان) في القرآن الكريم ست مرات،

١- مفاتيح الغيب، للرازي ٢٧ / ٦٦.

منها ثلاث في سورة القصص (الآيات ٦، ٨، ٣٨)، وواحدة في سورة العنكبوت (الآية ٣٩)، واثنتان في سورة غافر (الآيتان ٢٤، ٣٦]، وكلها تدل على أنه كان من معاوني فرعون، الذي بعث موسى عليه السلام في عصره، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨] فماذا في ذلك كله يمكن أن يتخذ دليلا على مخالفة القرآن للتاريخ

إن طعن اليهود ومن وافقهم، لا يقوم في شيء كدليل أو ما يشبه الدليل؛ لأن بحوثا متعددة قد أثبتت أن فيما عندهم تخليطا وأخطاء، فإذا تحاكمنا إلى التاريخ العام، فإننا نعرف أن (فرعون موسى) - من بين فراعنة مصر - ليس معروفا للمؤرخين بصورة قطعية متفق عليها[1].

والقرآن الكريم لم يذكر اسمه، والأقوال في تحديده عند المؤرخين متعددة، تعتمد على بعض الشواهد من النصوص والآثار، لا على علم يقيني قاطع حاسم، لا محل معه لخلاف أو اجتهاد. وإذا كان الأمر كذلك، فإن تحديد وزرائه ومعاونيه بالاستقصاء والحصر، أمر لا يمكن أن يدعيه - على سبيل القطع - مؤرخ يحترم عقله وعقول الناس، وفي مثل هذه الظروف: هل يستطيع إنسان ما أن يكذب الوحي القرآني اعتمادا على أقوال ومزاعم متناثرة، ليس لها أي مستند يقيني، فيزعم أنه خالف التاريخ في هذا؟

٣- أما فيما يتصل بما ذكره خلف الله من أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨]، يهيئ للمستشرقين والمبشرين الطاعنين - إذا قسناه بمقياس الصدق التاريخي - أن يطعنوا في موافقة هذا للحقيقة التاريخية[2] - فليس فيما ذكرته آيات القرآن الكريم مما يتصل بذلك أدنى

١- راجع مثلا: قصة الحضارة لول ديورانت ١ / ٣٢٤.

٢- راجع تفصيل قول خلف الله وما استشهد به في هذه القضية فيما سبق من عرض (نظريته).

مخالفة لأية حقيقة.

وقد بيّن المفسرون الإسلاميون المحققون ذلك في صورة جلية، لا تحتمل أدنى لبس، وفي مقدمة هؤلاء: الفخر الرازي، الذي أكثر خلف الله من الرجوع إليه.

إذ أن هذه الفرية تؤدي إلى القول بأن موسى كان خالا لعيسى عليهما السلام، وأنه لم يفرق بين رسالتيهما إلا سنوات قليلة بحكم هذه الصلة المباشرة، لكن الذي يستعرض آيات القرآن الكريم يأخذ منها بغاية من الوضوح، أنه كان بينهما مئات السنين، وعدد من أنبياء بني إسرائيل، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة / ٨٧] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾.. ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ٤٤-٤٧]، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[الحديد: ٢٦-٢٧]، وليس في القرآن الكريم كله، ولا في سنة النبي ﷺ، ولا في شيء من معتقدات المسلمين، أن موسى كان خالا مباشرا لعيسى عليهما السلام، أو أن بينهما أقل من مئات السنين، وهذا في ذاته يكفي لإبطال هذا الطعن.

أما ما استند عليه أصحابه من مناداة مريم في القرآن الكريم بيا (أخت هارون) فليس فيه عند التحقيق ما يبرر هذا الطعن، وقد تناوله المفسرون بالشرح فقالوا: إن هذا النداء محمول على واحد من أربعة وجوه كلها مقبول معقول[1]:

١- قال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، للزمخشري) في قول الزمخشري: إنما عنوا هارون النّبي ما نصه: لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند، ورواه الطبري عن السدي قوله وليس بصحيح. فإن عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني النّبي (إلى نجران فقالوا لي: أرأيتم شيئًا تقرؤون) يا أخت هارون (وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين، فلم =

الأول: أن هارون هذا كان رجلا صالحا من بني اسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد: أنك كنت في الزهد والتقوى كهارون - فكيف صرت هكذا؟

والثاني: أن هارون هذا هو أخو موسى عليه السلام، لما روى عن النبي ﷺ: إنما عنوا هارون النبي، وكانت من أعقابه. وإنما قيل: أخت هارون، كما يقال: يا أخا همدان، أي: يا واحدا منهم.

والثالث: أنه كان رجلا معلنا بالفسق فشبهت به.

والرابع: كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل والكلام على حقيقته.

والرازي يختار القول الرابع [1]، ويبدو أنه لم تصح عنده رواية حديث النبي ﷺ في ذلك.

لكننا لا نختار القول الرابع، بل نرى أن النداء في (يا أخت هارون) قد جرى مجرى التعبير في آيات عديدة في القرآن الكريم بلفظ الأخوة، دون أن يكون المراد هو أخوة النسب الحقيقية، خاصة، بل المراد هو الانتساب في الجملة إلى قوم أو جماعة ما، كما ورد في قوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ (الأعراف: ٧٣]، وقوله تعالى ﴿فَمَنْ عُفِيَ

= أدر ما أجيبهم؟ فقال لي النَّبي): هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم. وروى الطبري من طريق ابن سرين: نبئت أن كعبًا قال: إن قوله تعالى (يا أخت هَارُونَ) ليس بهارون أخي موسى، فقالت عائشة: كذبت؟ فقال لها: يا أم المؤمنين، إن كان النَّبي قال فهو أعلم، وإلا فأنا أجد بينهم ستمائة سنة- انتهى كلام ابن حجر. ينظر: تفسير ابن كثير ٥ / ٢٠٠، كشف المشكل لابن الجوزي ٤ / ٩٢، أضواء البيان ٣ / ٤١٥، زاد المعاد ٣ / ٥٦٣، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٦ / ٦٨، صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، ٦ / ١٧١، ح٢١٣٥.

١- ينظر: تفسيره ٢١ / ٢٠٧-٢٠٨.

لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فالحاصل من ذلك كله أن القرآن الكريم كثيرا ما يستخدم لفظ الأخوة، مريدا به مطلق الانتساب في الجملة بالنظر إلى أمر رابط، ويكون ذلك مفهوما من السياق بوضوح، دون أن يكون المقصود هو أخوة النسب(١) الخاصة، وقد كان هذا عند قوم مريم، مما نجد مثيلا له عند العرب في قولهم: يا أخا العرب، يا أخا قريش، يا أخا هذيل، يا أخا همدان.. فما العجيب إذن في أن يجري النداء في (يا أخت هارون) على هذا النحو المألوف؟ وكيف يجر إلى هذه الأباطيل التي يرددها المبشرون وأشياعهم؟

وإذا كان هذا قد غاب عن المستشرقين الذي يجهلون أساليب البيان العربية - أو الذين يلتحقون بسوء المقصد دائما - فكيف غاب عن مسلم، يزعم أنه من مدرسة التفسير البياني القرآنية، ويطيل الحديث عن الأساليب البلاغية في القرآن الكريم؟!

٤- أما ما يذكره خلف الله حول قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: ٨٦]، من قوله: «بان للعقل الإسلامي أن مسالة غروب الشمس في عين حمئة لا تستقيم وما يعرف من حقائق هذا الكون»؛ فما هو (العقل الإسلامي) الذي يتكلم عنه خلف الله؟

أغلب الظن أنه هو (العقل الإسلامي) الذي تحدث عنه الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) حين قال: إن الكاتب الفرنسي «بول فاليري» أراد يوما أن يشخص العقل الأوربي، فرده إلى عناصر ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه،

١- التي أتت فيها آيات أخرى مثل آيات سورة النساء (١٢، ٢٣، ١٧٦) في الميراث والنكاح. والسياق يحدد في غاية من الوضوح معنى (الأخوة) المقصود في كل آية.

والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان، فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر وفي الشرق القريب، أفتراه ينحل إلى شيء آخر غير هذه العناصر التي انتهي إليها تحليل بول فاليري؟

وبعد أن يفصل القول في ذلك ينتهي إلى قوله: «وإذن فمهما نبحث ومهما نستقصى، فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل الأوربي والعقل المصري فرقا جوهريا»[١].

لكن هذا (العقل الإسلامي) الذي يتحدث الرجلان عنه ليس هو - على سبيل القطع - ما نعرفه ونعايشه من عقل إسلامي مرتكز على ما جاء به (القرآن الكريم) و (السنة الصحيحة) ولم يثبت له إطلاقا أن في شيء منهما ما يخالف حقائق الكون أو التاريخ.

وفيما يتصل بالآية التي ذكرها خلف الله، فإن التعبير القرآني بالغ الدقة والصدق في تصوير ما يعبر عنه، بحيث لو تغير هذا التعبير - فرضا - لما كان مطابقا لحقيقة ما يعبر عنه.

وواضح غاية الوضوح من النص القرآني، أنه يعبر هنا عما وجده وظهر لذي القرنين - المحدود المعرفة بنطاق البشرية عندئذ - ألا نراه يقول ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ ﴾ [الكهف: ٨٦] أي وجد عند هذه العين الحمئة، التي ظهرت له الشمس غاربة فيها - قوما، حيث يعود الضمير في (عندها) إلى أقرب مذكور وهو العين الحمئة.

فالتعبير القرآني المحكم المعجز يقول (وجدها تغرب)، ولم يقل إنها تغرب، حتى يكون هذا تعبيرا عن الحقيقة الكونية المطلقة. ومما يقطع - فيما أرى - بإعجاز القرآن الكريم وصدقه المطلق، أن الله تعالى عقب على ما (وجده) ذو القرنين في

١- مستقبل الثقافة في مصر، لطه حسين ص٢٩-٣٠.

جهة مغرب الشمس ومطلعها بقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾ [الكهف: ٩١] أي - والله تعالى أعلم - كذلك ظهرت له الأمور حسب علمه البشري القاصر، الذي لا إحاطة فيه بحقائق الأمور وكنهها في ذاتها، وقد أحطنا نحن علما بكل ما وجده ذو القرنين وظهر له؛ لأن علمنا هو العلم الشامل المحيط بكل شيء بإطلاق.

أما محاولة خلف الله أن يخلط بين (ما حكاه القرآن عن أقوال البشر وتصوراتهم في مواقف معينة) و (ما هو من تقرير الله تعالى لحقائق مطلقة)، فيقول إن (كل) ما ورد في القرآن من قصص - محمول على النوع الأول وحده - فهو ما ترفضه النصوص القرآنية في غاية من الوضوح.

ونضيف إليه أيضا، أن من يراجع صيغة (وجد) في القرآن الكريم، حين تنسب إلى البشر فسيدرك ما قررناه في جلاء، ولن نذهب بعيدا، بل إننا لن نجاوز سورة الكهف نفسها مثار اعتراض خلف الله على النص السابق.. فانظر إلى قوله تعالى فيها عن أحد الرجلين صاحب الجنتين الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦]، فهل قوله (لأجدن) حكاية عن الحقيقة المطلقة، أم تعبير عن أفكاره وأمانيه الباطلة هو؟.

وانظر أيضا إلى قوله تعالى في نفس السورة، حكاية عن قول موسى حينما لقي الخضر (عليهما السلام) فقال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبرا، فقال موسى مصورا لما يعتقده في حال صحبته مع الخضر ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾ [الكهف: ٦٩]، فهل هذا القول تعبير عن عقيدة موسى، فيما يكون من أمر مستقبل الصحبة- ولا يعلم الغيب المستقبل إلا الله- أم هو تعبير عن حقيقة المستقبل المطلقة، كما ظهرت بعد ذلك من تطور أمر الصحبة؟ إنّ الجواب الواضح في الآيات التالية لقول موسى عليه السلام (ستجدني).

.. هذا هو الشأن إذن بقوله تعالى حكاية عما وجده ذو القرنين عند مغرب الشمس ومطلعها، فأين عدم الاستقامة المزعومة من خلف الله في ذلك كله[1].

٥- ومثل هذا تماما ما يذكره خلف الله من أنه «بان العقل الإسلامي أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد. اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك حديث من يأخذ الناس بعقائدهم، تقوية للروح المعنوية وبثا للأمل القوي بالانتصار السريع في النفوس[2].

و(العقل الإسلامي) حقا لم يبن له شيء من ذلك إطلاقا؛ لأنه يؤمن بالله وكلماته على أنها الحق الذي لا باطل فيه، وقد قرئت هذه الآيات، التي يشير إليها خلف الله على جمع المؤمنين الذين شهدوا الغزوتين، فما زادتهم إلا إيمانا ويقينا في صدق ما أخبر به ربهم، وصدق الله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتثبيت الملائكة - بإذن الله - للمسلمين ثابت بالنص البين في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله تعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦].

ولست أدري ماهو المستند العقلي أو العلمي في تكذيب خبر متصل بالملائكة، وهم في تفصيلات أمورهم من عالم الغيب؟ وهل يعجز العقل الإسلامي المصدق

١- مفاتيح الغيب، للرازي، ٢١ / ١٦٦-١٦٧، ويرفض الرازي في تعليل علمي سليم ما يقال من أن ما رآه ذو القرنين كان هو الحقيقة الكونية، معللا رفضه باختلاف موضع الشمس بحسب المواضع على الأرض، وكما يفسر بقية الآيات في وضوح وإحكام عام (ص١٦٨) وإذن فإن ما يذكره خلف الله عن حيرة (العقل الإسلامي) في ذلك لا يتفق مع ما عند المفسرين المحققين.

٢- الفن القصصي، لخلف الله، ص٣٧.

بالوحي حقا عن تصور تثبيت الملائكة للمسلمين، أو تصديق ذلك؟

اعتقد أن (العقل المادي) هو الذي يعجزه التصديق بغير المحسوس الملموس، أما العقل (الإسلامي) المصدق بكل ما أخبر الله به من غيب؛ لأنه يؤمن بصدق القرآن الكريم في جملته وتفصيله - فإنه يؤمن بالملائكة والجن والبعث وسائر الغيبيات؛ لأنه - كما وصفه ربه تعالى - (يؤمن بالغيب).

إن القصص القرآني كلام الله عز وجل، بالحق نزل، وليس في شيء منه إلا الحق المطلق، وافق ما عند الناس من أهل الكتاب أو العرب، أو خالفهم؛ لأنه لا يقاس صدق شيء منه على ما عندهم أو عند غيرهم من علم بشري قاصر، يدخله الخطأ والوهم، حسبما سبق.

المبحث السادس: ما يستفاد من دراسة القصص القرآني:

إن للقصص القرآني منهجا تربويا متكاملا ومتناسقا مع منهج القرآن ؛ ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته وحدة متناسقة.

كما أن القرآن يستخدم قصصه لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي، مثل: تربية الروح والعقل والجسد، والتربية بالقدوة، وبالموعظة، كما أن القصص القرآني يربي الإنسان، تربية خلقية واجتماعية وجمالية.

ولقد جاء القرآن بقصص تربوية ذات أثر في علاقات الإنسان الخلقية والوجدانية ؛ ذلك مع جمال الأسلوب وبلاغة المعنى.

والقصة القرآنية وسيلة مهمة للتعلم والإرشاد والتشريع ، ولها دور فاعل في بناء الفرد والمجتمع .

ومن خلال القصص القرآني يمكن تثبيت الأخلاق، وذلك بغرس القيم وإرساء دعائم الإسلام.

والدارس للقصص القرآني يدرك الدور الفاعل الذي وظفته القصة في تربية العقيدة وتثبيتها ؛إذ ليس الغاية من التربية سوى العواطف الصالحة، ولا تصبح العواطف أساسا للخلق الكريم، إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة، وهكذا تتعمق العقيدة والأخلاق والقيم الإسلامية في النفوس، في الوقت الذي تتطهر فيه النفوس من المعتقدات والأخلاق والقيم الجاهلية الفاسدة، وذلك من خلال القصص القرآني.

وإذا كان الهدف الأسمى من التربية الإسلامية هو تكوين الإنسان المتكامل الشخصية، فإن القصص القرآني يهدف إلى إثبات وحدة الإله، ووحدة وسائل الدعوة وطرقها ووحدة أساليب التربية والتعلم، ووحدة المصير.

أسئلة للمناقشة

١. ما معنى القصص؟

٢. ما أنواع القصص في القرآن الكريم؟

٣. وضح أهداف قصص الأنبياء.

٤. بيّن فوائد القصص القرآني.

٥. ما الحكمة من تكرار القصص في القرآن؟

٦. هل القصة القرآنية حقيقة أم خيال.. ؟

الفصل التاسع: المثل في القرآن الكريم[1]

في عرضنا لمثل القرآن، وقسمه، وجدله، سنحرص على الإيجاز في هذا التناول بالقدر الذي يسمح بإعطاء ملامح الصورة العامة لكل منها[2].

المثل:

ورد في كتاب الله العزيز - في أكثر من آية - أنه سبحانه وتعالى يضرب الأمثال، في مثل قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. و ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقوله ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام.

وقد عده الإمام الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته[3].

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام[4].

١- لقد تناول الأمثال، وكتب فيها جهابذة الأدباء والحكماء والبلاغيين والمفسرين، مثل: الأصمعي وأبي عبيد، القاسم بن سلام، والمفضل الضبي، والزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان، والزرقاني في مناهل العرفان، .

٢- ينظر دراسات في علوم القرآن: د. عبد الخالق محمود، ص٧٥-١١٥، الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٦٧.

٣- الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٣١.

٤- المصدر السابق. وتنظر الآيات ١٧-٢٠، من سورة البقرة.

وكما عنى العلماء بأمثال القرآن، فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية. وعقد لها أبو عيسى الترمذي بابا في جامعه، أورد فيه ستة عشر حديثا[1].

المبحث الأول: تعريف المثل:

الأمثال: جمع مثل، والمثل والمثيل، كالشبه والشبيه لفظا ومعنى، وسمى «المثل»؛ لأنه ماثل بخاطر الإنسان، أي: شاخص يتأسى به ويتعظ، ويخشى ويرجى[2].

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات، كقوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد: ١٥] [3]، أي: قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضروبه بمورده، ولم يضربوا مثلا، ولا رأوه أهلا للتسيير، ولا جديرا بالتداول والقبول، إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه - ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة[4].

١- سنن الترمذي، أبواب عن رسول الله ﷺ، ٤/ ٥٣٩، وينظر: الإتقان، للسيوطي، ، ٢/ ١٣١. وقال القاضي أبو بكر بن العربي -رحمه الله تبارك وتعالى- مشيدًا بفعل الترمذي هذا، فقال: «لم أرَ من أهل الحديث من صنَّفَ فأفردَ للأمثال بابًا غير أبي عيسى، ولله دَرُّه، لقد فتح بابًا، وبنى قصرًا أو دارًا، ولكنه اختطَّ خطًّا صغيرًا فنحن نقنع به، ونشكره عليه».

٢- الإتقان، للسيوطي، ٢/ ١٦٧، ١٦٨، مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان ص١٣٨، وينظر: الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، ص٢٧.

٣- ينظر: جامع البيان للطبري، ١٤/ ٨٤.

٤- ينظر: الكشاف، للزمخشري، ١/ ١٤٩.

وهناك معنى رابع، ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل، فهو عندهم: المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة، متى فشي استعماله، وأصله الاستعارة التمثيلية. كقولك للمتردد في فعل أمر: «ما لي أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى»[1].

وقيل في ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسيه روعة وجمالا، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له موردا، كما لا يشترط أن يكون مجازا مركبا.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون، وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه الصريح، أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، فإنّ الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال؛ إذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان، فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة، وما لم يفش استعماله.

١- ينظر: نقد النثر لقدامة بن جعفر، ٧٣، أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ص٨٢.

ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن. فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيها أو قولا مرسلا[1].

المبحث الثاني: أنواع الأمثال في القرآن:

فرّق الباحثون بين الأمثال القرآنية، وفقا لظهور المثل وكمونه، وطوله وقصره، وقيامه على التشبيه والتمثيل، وعدم قيامه عليهما، إلى غير ذلك من الاعتبارات.

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

الأول: مثل ظاهر، مصرح به.

الثاني: مثل كامن[2].

الثالث: الأمثال المرسلة (جارية مجرى المثل).

المطلب الأول: النوع الأول: الأمثال المصرحة:

وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه، وهي كثيرة في القرآن الكريم، منها:

١- وكان الشيخ محمود شلتوت، يرى أن الأمثال المضروبة في القرآن الكريم لمجرد التمثيل المطلق، يجوز للمؤمن أن يعتقد أنها تقريب من الله وتمثيل، لكنه كان يرى أن القصص القرآني من صميم الواقع لا شك في ذلك، وقد نقد رأيه في الأمثال القرآنية نقدا شديدا.
والذي نؤمن به أن المثقف الراقي المتدين ينبغي أن يؤمن في غاية من اليقين، أن كل ما ورد في (القرآن الكريم) بإطلاق، حق لا مرية فيه ولا شك ولا تأويل؛ لأنه ببساطة - ليس إلا كلمات الله تعالى، العالم بكل شيء، القادر على كل شيء فأمثاله كلها حق؛ لأن كل مثال ضرب منها لابد أن يكون قد حدث؛ لأنه يروى أمرا لا استحالة في حدوثه عقلا أو عادة أو تاريخا، فما مبرر القول إذن بالتقريب والتمثيل، والكلمات لله تعالى!. ينظر: مدخل للدراسات الإسلامية د. محمد بلتاجي ص٢٩٥-٢٩٦، رسالة الإسلام التي تصدرها دار التقريب بالقاهرة، العدد الثالث، من السنة السابعة ص٢٣٣.

٢- ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١ / ٤٨٦، الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٣٢، جواهر الأدب للهاشمي، ١ / ٢٨٨.

قوله تعالى في حق المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠][١].

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلا بالنار في قوله «كمثل الذي استوقد نارا...» لما في النار من مادة النور، ومثلا بالمطر في قوله: (أو كصيب من السماء) لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين، فهم بمنزلة من استوقد نارا للإضاءة والنفع؛ حيث انتفعوا ماديا بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن له أثر نوري في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة «ذهب الله بنورهم» وأبقى ما فيها من الإحراق.

وذكر مثلهم المائي، فشبههم بحال من أصابهم مطر، فيه ظلمة ورعد وبرق، فخارت قواه ووضع أصبعيه في أذنيه وأغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه؛ لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم: «هذا مثل ضربه الله للمنافقين، كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا، سلبهم الله العز، كما سلب صاحب النار ضوءه» وتركهم في ظلمات، يقول: في عذاب، أو كصيب، هو المطر، ضرب مثله في القرآن» فيه ظلمات «يقول ابتلاء» ورعد وبرق «تخويفا» يكاد البرق يخطف أبصارهم يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين «كلما أضاء لهم مشوا فيه» يقول: كلما أصاب المنافقون في الإسلام عزا واطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة، قاموا فأبوا ليرجعوا إلى الكفر كقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١][٢].

١- ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، والإتقان، للسيوطي، ، الموضع السابق.

٢- ينظر: فتح القدير، للشوكاني ١ / ٥.

وذكر الله المثلين المائي والناري - في سورة الرعد للحق والباطل، فقال تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧][1].

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء، الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جري في الأودية، احتمل زبدا وغثاء. فكذلك الهدى والعلم، إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات، ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: «أنزل من السماء ماء...» وهكذا يضرب الله الحق والباطل. وذكر المثل الناري في قوله: «ومما يوقدون عليه في النار...» فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد، عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر، الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكلها، فأما الزبد فيذهب جفاء - وهو الشك - وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - وهو اليقين، كما يجعل الحلى في النار، فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال عطاء: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وعن قتادة: هذه ثلاثة أمثال، ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت وربت بركته وأخرجت نباتها. وكذلك الذهب والفضة حين أدخل في النار، فأذهب خبثه، كذلك يبقى الحق

١- ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم ١ / ١١٨.

لأهله، وكما اضمحل خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل في النار، كذلك يضمحل الباطل عن أهله[1].

المطلب الثاني: النوع الثاني: الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١- ما في معنى قولهم: «خير الأمور أوساطها».

أ- قوله تعالى في البقرة ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

ب- قوله تعالى في النفقة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ت- قوله تعالى في الصلاة ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

ث- قوله تعالى في الإنفاق ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

٢- ما في معنى قولهم: «ليس الخبر كالمعاينة».

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٣- ما في معنى قولهم: «كما تدين تدان»

قوله تعالى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

٤- ما في معنى قولهم: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

١- الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٦٨.

قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤][١].

وقد ذكر السيوطي في الإتقان عن الماوردي قال: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسن بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله:... وذكر مجموعة من الأمثلة وما يقابلها من آيات قرآنية ومنها: من جهل شيئا عاداه، احذر شر من أحسنت إليه، في الحركات البركات، لا تلد الحية إلا حييه، للحيطان آذان، وغير ذلك من الأمثلة[٢].

المطلب الثالث: النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن الكريم[٣]:

وهي جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه، فهي آيات جارية مجرى الأمثال.

وسميت «المثل السائر». ومعنى السائر: أنه كثر استعماله، ويقال أيضا: «تشبيه سائر»[٤]. ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٣]، ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ

١- ما ذكر من الأمثلة الكامنة ذكرها الزركشي في البرهان ١ / ٤٨٦، وهناك كتاب في الأمثلة الكامنة غير مطبوع، ألفه الحسن بن الفضل " الأمثلة القرآنية الكامنة" أشار إليه د. محمد جابر فياض، ص٢٠٤، وجزم باستفادة الزركشي منه في الأمثلة الكامنة، وينظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ص١٦.

٢- الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٦٨، ١٦٩، البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١ / ٤٩٠-٤٩٥.

٣- ذكر الثعالبي في التمثيل والمحاضرة، ص١٨-١٩، اثنى عشر لفظا من القرآن، رأى أنها جارية مجرى المثل السائر.

٤- ينظر: مقدمة تفسير ابن النقيب في البيان ص١٣٥، نهاية الإيجاز، للرازي ص٢٣٠، وقد أفرد ابن رشيق بابا مستقلا للحديث عن المثل السائر مفصولا عن التشبيه والتمثيل. العمدة، لابن رشيق١ / ٢٨٠-٢٨٦.

فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ١٤]، ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جدا في سور القرآن الكريم.

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعماله استعمال الأمثال؟

فرآه بعض أهل العلم خروجا عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى: «لكم دينكم ولي دين» جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند التاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه.

ورأى آخرون: أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفا شديدا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: «ليس لها من دون الله كاشفة»، أو يحاوره صاحب مذهب فاسد، يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: «لكم دينكم ولي دين»، والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة، فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح»[1].

المبحث الثالث: ما يتمثل به من قصص الأنبياء:

يضرب المثل بسفينة نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وحوت يونس، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وناقة صالح، وحمار عزير.

قيل للحسن بن يسار البصري رحمه الله: أيكذب المؤمن للمؤمن؟ فقال: أنسيتم إخوة يوسف؟ وكان يقال: لا يغرنكم البكاء، فإن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون.

١- ينظر: البرهان للزركشي ١ / ٤٨٦، الاتقان للسيوطي، ٢ / ١٣٢، جواهر الأدب للهاشمي، ١ / ٢٨٨.

ومن قصة موسى قولهم: الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين. يريدون قوله عز اسمه ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء: ٢١].

ويقال: بيت فلان أفرغ من فؤاد أم موسى.

ويقول من ينبه على براءة ساحته: إني لم أعقر ناقة صالح.

ويقال: فقر كفقر الأنبياء؛ لأن فقراءهم أكثر من أغنيائهم.

ويقال: فلان خليفة الخضر، إذا كان يديم السفر ويكثر المسير[1].

المبحث الرابع: أغراض الأمثال:[2].

١- الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية، قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٢- وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة؛ كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة في الآيات السابقة الذكر.

١- ينظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي ١٩-٢١، وقد اعتبرها البعض من الأمثال المستوحاة من قصص القرآن وآياته ينظر: الأمثال في القرآن الكريم وأثرها، ص١٧١، محمود بن شريف.

٢- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٣١، البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ، ١ / ٤٨٦-٤٨٧.

٤- ويضرب المثل للترغيب في الممثل؛ حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٦١].

٥- ويضرب المثل للتنفير؛ حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٢].

٦- ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكذلك حال الصحابة، فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلا، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم، وامتلأت القلوب إعجابا بعظمتهم.

٧- ويضرب المثل حيث يكون للمثل به صفة يستقبحها الناس: كما ضرب الله مثلا لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به وانحدر في الدنيا منغمسا. قال تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

٨- والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم للتذكرة والعبرة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[الزمر: ٢٧]. قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وضربها النبي ﷺ في حديثه[١].

ويكره العلماء ضرب الأمثال بالقرآن، ففي كتاب «فضائل القرآن لأبي عبيد النخعي» قال: كانوا يكرهون أن يتلو الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا. قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهم بحاجته، فيأتيه من غير طلب، فيقول كالمازح ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [سورة طه: آية ٤٠][٢]، فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسوله ﷺ. قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لها نظيرا من القول ولا من الفعل.

المبحث الخامس: الدور التربوي للأمثال:

تلعب الأمثال دورًا مهما في العملية التربوية، فهي من أحد الأساليب المهمة فيها، بما تمتلكه من قدرة مؤثرة في النفوس البشرية، فهي تكشف الحقائق وتوضح المعاني وتصورها في قوالب فنية محسوسة، كما تؤثر في سلوك الفرد وتفكيره، وتوجه الانفعالات والعواطف، وتغرس في النفوس المبادئ والأخلاق السامية، وتحرك نوازع الخير لدى الإنسان، وتربيه عقليًا، وأخلاقيًا، وسلوكيًا، واجتماعيًا؛ فهي أبلغ في الوعظ، وأوقع في النفس، وتسهم في الوصول إلى النتائج المطلوبة عن طريق تغيير السلوك وتوجيهه الوجهة الصحيحة.

وضرب الأمثال طريقة تربوية ناجعة تؤثر تأثيرًا عميقًا في العملية الإصلاحية.

وقد نبه كثير من العلماء إلى أهمية الأمثال، وفيما يلي بيان من أقوالهم:

١- من ذلك قوله ﷺ: "الأعمال بالنيات" "إن من الشعر لحكمة" "لا ضرر ولا ضرار" "أنزلوا الناس منازلهم" "مطل الغني ظلم" "من غشنا فليس منا" "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" "كل ميسر لما خلق له" "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" "الأعمال بخواتيمها" "المرء على دين خليله" "دع ما يريبك إلى مالا يريبك" "المجالس بالأمانة" إلى غير ذلك.

٢- ينظر: البرهان، للزركشي، ١ / ٤٨٦، الإتقان، للسيوطي، ٤ / ٤٥.

يقول العلامة أبو السعود: «التمثيلَ ألطفُ ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل واستنزالِه من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع ثورة الجامح الآبي، كيف لا! وهو رفعُ الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف، وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف»[1].

ويقول العلامة الزمخشري: «التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا، كان المتمثل به مثله، وإن كان صغيرًا كان المتمثل به كذلك»[2].

وقال العلامة الأصبهاني: لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثال والنظائر شيء ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك به المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامح الأبي فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه[3].

فينبغي علينا دراسة الأمثال القرآنية والنبوية والاستفادة منها ومن نهجها وطريقتها وأسلوبها في تذليل الصعوبات التعليمية، لما لها من أهمية في القدرة على التوضيح والتأثير وعرض الحقائق بصورة واضحة ومقنعة.

١- تفسير أبي السعود، ١ / ٥٠.

٢- تفسير الزمخشري، ١ / ١١١.

٣- الإتقان، للسيوطي، ٤ / ٤٥.

أسئلة للمناقشة

١. عرّف المثل لغة واصطلاحًا.

٢. ما أنواع الأمثال في القرآن؟

٣. استخرج من القرآن الكريم معنى الأمثال الآتية:

- ليس الخبر كالمعاينة

- كما تدين تدان

- خير الأمور أوساطها

٤. بيّن أغراض الأمثال الآتية:

أ- قال تعالى ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ب- قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٥. هل يجوز ضرب الأمثال بالقرآن؟

٦. حدد نوع المثل فيما يأتي.

- ﴿ الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

- ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

- ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾



الفصل العاشر: القسم في القرآن الكريم[1]

المبحث الأول: القسم وأنواعه:

الأقسام جمع قسم: بفتح السين، بمعنى الحلف واليمين، وصيغة القسم الأصلية أن يؤتى بالفعل أقسم أو أحلف متعديا بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم. فأجزاء صيغة القسم ثلاثية: الفعل الذي يتعدى بالباء، والمقسم به، والمقسم عليه.

والقسم في اللغة العربية نوعان:

قسم صريح (ظاهر): وهو ما ذكر معه حرف من حروف القسم: كالواو أو الباء، أو ما ذكر معه فعل من الأفعال الدالة عليه: كأقسم وحلف، أو ما ذكر معه الحرف والفعل معا نحو «أقسم بالله»، أو ما يدل عليه لفظ من ألفاظه، أسما كان أو مصدرا نحو: «يمين الله» أو «قسما بالله».

قسم مضمر: وهو ما لم يذكر معه القسم صريحا، وله صورتان:

- ما دلت عليه اللام نحو قوله تعالى ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] وقوله تعالى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ

١- هذا المبحث مستفاد من " التبيان في أقسام القرآن" لابن قيم الجوزية، ص ٥٧-٦٣. تناول الكتاب جميع المواضع التي ورد فيها القسم صريحا أو ضمنا في القرآن الكريم، مبتدئاً بالآيات، وعرضها من آخر المصحف إلى أوله، مناقشا ومبينا تفسير الآيات في السور القصيرة التي تبتدئ بالقسم حتى نهايتها، وموضحا علاقة القسم في السورة بالمقسم عليه وجواب القسم، وعلاقة القسم بالسورة نفسها وما ورد فيها من معان.
وقد ضمن المؤلف كتابه هذا اختلافات المفسرين واللغويين في الآيات المذكورة عند القسم، مرجحا بعض الأوجه على بعض، وقد يستطرد في بعض الآيات، فيخرج إلى معان أخرى خارجة عن القسم، فيذكر أكثر من مئة صفحة أو نحوها في بحث الأجهزة التي خلقها الله في جسم الإنسان وبيان وظائفها والإعجاز فيها ثم يعود إلى الحديث عن القسم في الآية. تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

- وما دل عليه المعنى نحو قوله سبحانه ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤]، وقوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ [مريم: ٧١]، والتقدير في الحالتين «والله».

وقد ورد القسم في القرآن الكريم صريحا ومضمرا في آيات كثيرة، وإن كان أكثر وروده في الآيات المكية. وقد جرى القسم المضمر في القرآن الكريم على أساليب العرب المألوفة لهم، أما القسم الصريح فهو الذي لفت نظر المفسرين والباحثين، لما يمتاز به من خصائص مميزة له انفرد بها دون غيره من كلام العرب.

وقد ورد هذا القسم الصريح في إحدى وثمانين آية، أكثرها مكي، فمنها ثلاث وستون آية مكية، وثماني عشرة آية مدنية.

ويرجع السبب في انتشار القسم في المرحلة المكية، إلى أن هذه المرحلة في تاريخ الدعوة الإسلامية هي التي شهدت حملات الرفض والإنكار لهذه الدعوة، والتشكيك فيما جاء به الدين الجديد من أمور غيبية جديدة على العرب لم يكونوا على استعداد لتقبلها، أو من أمور روحانية لم تهيئ لهم حياتهم المادية فرصة الاقتناع بها.

المبحث الثاني: لِمَ أقسم الله تعالى:

إذا كانت الغاية من القسم: تحقيق الخبر وتوكيده، فما معنى قسم الله تعالى؟

إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده. وعلى ذلك فهناك أسباب هي:

أ- أن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم، إذا أرادت أن تؤكد أمرا.

ب- ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل بأمرين:

إما الشهادة في مثل قوله تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨] أو القسم في مثل قوله تعالى ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣]، وقد روى عن بعض الأعراب أنه سمع قوله تعالى ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢ - ٢٣]، صرخ وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين.

وإذا كان القسم باسم معظم فكيف أقسم الله بمخلوقاته في الوقت الذي ورد فيه النهي عن القسم بغير الله؟ قال السيوطي:

أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف: أي: ورب التين، ورب الشمس في قوله تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، وقوله ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١]، ومثله الباقي.

الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله، وهو فوقه، والله تعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته؛ لأنها تدل على بارئ وصانع.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله يقسم بما يشاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

القسم بالنبي ﷺ:

قال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]. لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.

وقد أخرج الطبري عن ابن عباس: مَا خَلَقَ اللهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا سَمِعْتُ اللهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ، قال الله تعالى ذكره: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢] [١].

قال ابن كثير: «أقسم الله تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض... يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا»[٢].

المبحث الثالث: بم يقسم الله؟

وقد جرى القسم في القرآن الكريم على خمسة أساليب: فالله سبحانه يقسم بذاته الموصوفة بصفاته، ويقسم بآياته المستلزمة لذاته، ويقسم بنبيه ﷺ، ويقسم ببعض مخلوقاته، ويقسم بالقرآن الكريم.

المطلب الأول: قسم الله تعالى بذاته:

فقد ورد في عشر آيات، منها آيتان مدنيتان، والثماني الباقيات مكية، وهي:

١- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

٢- ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

١- جامع البيان، للطبري، ١٧ / ١١٨.

٢- تفسير ابن كثير، ٢ / ٥٥٥.

٣- ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣].

٤- ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢].

٥- ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٦].

٦- ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النحل: ٦٣].

٧- ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٦٨].

٨- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

٩- ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣].

١٠- ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [المعارج ٤٠-٤١].

المطلب الثاني: القسم بالقرآن الكريم:

ورد القسم بالقرآن في خمسة مواضع، كلها مسبوقة بالحروف المقطعة التي افتتحت بها السور، وكلها أيضا مكية، وهي:

١- ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ١-٣].

٢- ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ٢، ١].

٣- ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ١-٣].

٤- ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان: ١-٣].

٥- ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾[ق: ١-٢].

المطلب الثالث: القسم بالنبي ﷺ:

فقد ورد في موضع واحد، وهو قوله تعالى ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

أما أكثر أقسام القرآن انتشارا في آياته الكريمة، فهي القسم بآياته ومخلوقاته، وهي التي تميز أسلوب القسم فيه بهذا الطابع الفريد الذي ينفرد به.

والظاهرة التي تلفت النظر أن هذا الأسلوب من القسم، انفردت به الآيات المكية وحدها، ولم يرد في أي آية مدنية، كما يلفت النظر أيضا أن كل هذه الأقسام وردت في فواتح السور.

أقسم الله بمخلوقاته، فأقسم بالملائكة في سورة الصافات وفي سورة النازعات.

وأقسم سبحانه بالخيل في سورة العاديات.

المطلب الرابع: القسم بمظاهر الطبيعة:

أقسم سبحانه بمظاهر الطبيعة الدالة على عظم صنعه وعظيم قدرته الناطقة بوجوده ووحدانيته، وأنه رب السموات والأرض وما فيهن، فأقسم بالسماء والأرض، وبالشمس والقمر والنجوم والكواكب وأقسم بالليل والنهار ومراحلهما المتعاقبة: الفجر والصبح والضحى والعصر والشفق.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾[الشمس: ٥ -٦].

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١ -١٢].

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ [الذاريات: ٧]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١]. ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ١-٣].

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١-٤]، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١-٢].

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر: ١-٤].

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١ -٢].

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢،١].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٨]

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٤].

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٥-١٨].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٦، ٧٥].

وكذلك أقسم سبحانه بالرياح والسحاب وبالبحر والجبل.

﴿ وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ١-٤]. ﴿ وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ [المرسلات: ١-٣]، ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور: ٦].

المطلب الخامس: القسم بالأزمنة:

أقسم سبحانه بالأزمنة التي تحدد حركة الكون بإرادته وتقديره، أقسم بالأمكنة المقدسة التي شاءت حكمته أن تكون أرض رسالاته ورسله: أقسم بطور سيناء حيث كلم موسى، وبفلسطين حيث ظهر عيسى، وبمكة المكرمة حيث بعث محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١-٢].

والمفسرون على أن التين والزيتون بلاد الشام، والبلد الأمين مكة المكرمة[1].

المطلب السادس: القسم بيوم القيامة:

أقسم سبحانه بيوم القيامة، وبالنفس السوية، والنفس اللوامة، وأقسم بالقلم الذي علم به الإنسان ما لم يعلم وأقسم بالكتاب.

١- لجأ بعض المفسرين إلى استنتاج الدلالة بالتين والزيتون علي منابتهما الأصلية من الأرض. فطور سينين هو الجبل الذي نودي موسي (عليه السلام) من جانبه في شبه جزيرة سيناء (أو سينا) ومعناها في اللغة: المباركة الحسنة، والجبل معروف اليوم باسم جبل موسي (أو جبل المناجاة)، والبلد الأمين هي: مكة المكرمة، وحرمها الآمن، وبها الكعبة المشرفة. وعطفُ القسم بهذين المكانين المباركين على القسم بكل من التين والزيتون أوحى إلى عدد من المفسرين إلى الاستنتاج بأن القسم بهاتين الثمرتين قد يتضمن من أحد جوانبه الإشارة إلى كرامة منابتهما الأصلية من الأرض، وذلك من مثل كل من بيت المقدس وبجواره طور تينا، وبه المسجد الأقصى المبارك. ومن أشهر منابت كل من التين والزيتون (بأنواعهما المتميزة) بلاد الشام، والأولي بها طور تينا بجوار دمشق، وإن كانت الصياغة القرآنية في مطلع سورة التين واضحة الدلالة على الثمرتين اللتين تؤكلان باسم التين والزيتون، إلا أن ذلك لا ينفي الإشارة إلى منابتهما من الأرض، حتى يرتبط السياق بالقسم التالي بمكانين من أشرف أماكن الأرض، وفيها مكة المكرمة أشرفها على الإطلاق.

ينظر: من أسرار القرآن. الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية، د. زغلول النجار. الشبكة الدولية للأنترنت - منتدى أبناء مصر. وفي أقوال المفسرين ينظر: القرطبي وابن كثير وغيرهما من التفاسير في موضع تفسير الآيات في سورة «التين».

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢، ١]

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨، ٧].

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم، ١].

﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ [الطور: ١-٣].

المطلب السابع: أعم قسم في القرآن الكريم:

أما أعم قسم ورد في القرآن فهو قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠]، أقسم به سبحانه ليؤكد رسالة محمد سيد الأنبياء وخاتم المرسلين وخير خلقه أجمعين ﷺ.

المبحث الرابع: علام يقسم الله تعالى:

من يتتبع القسم في القرآن الكريم، يلحظ أن الله تعالى يقسم على أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث.

وتحت هذه الأصول الكبرى تندرج فروع وجزئيات متعددة. وقد ركز القرآن الكريم على هذه الأصول الاعتقادية؛ لأنها كانت أشد ما فاجأ العرب من الدين الجديد، وأشد ما آثار إنكارهم ورفضهم وتكذيبهم، فقد ظهر الرسول ﷺ بدعوته والعرب ممعنون في ماديتهم، بعيدا عن كل هذه المعاني الروحية والمسائل الغيبية التي يدعو إليها الإسلام.

ومن هنا كانت الدعوة إلى الإيمان بالغيب أول عنصر من عناصر الدعوة الإسلامية، ومن هنا -أيضا- كانت قضية البعث أهم قضية، شغلت أذهان العرب، وكذلك دعوة الإسلام إلى عبادة إله واحد كانت دعوة غريبة عليهم، وهم الذين عبدوا الآلهة المتعددة؛ لذا فقد عجبوا من عقيدة التوحيد، كما أنكروا

أن يكون القرآن من عند الله.

ولذلك دارت أكثر أقسام القرآن حول هذه الأصول الاعتقادية الثلاثة:

ففي سورة الصافات نرى مثلا للقسم على الأصل الأول - التوحيد -. وفي سورة يس نرى مثلا للقسم على الأصل الثاني - الرسالة -. وفي سورة الذاريات نرى مثلا للقسم على الأصل الثالث - البعث.

ووراء هذه الأصول الثلاثة الكبرى، نرى فروعا كثيرة تتردد في الأقسام القرآنية:

كالقسم في سورة الليل على أن الجزاء يوم القيامة مرتبط بعمل الإنسان في الحياة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى تحقيقا للعدل الإلهي.

وفي «سورة الشمس» نرى القسم يدور حول فكرة قريبة من الفكرة السابقة، وهي عن المنهج والطريق، فالله قد خلق الإنسان ورسم له طريق الخير والشر، وألهم نفسه الفجور والتقوى، فمن زكى نفسه وطهرها، فقد أفلح وفاز يوم القيامة، ومن حجب ما فيها من خير، وكشف عما فيها من شر، فقد خاب وخسر يوم القيامة.

وفي «سورة الطارق» يدور القسم حول فكرة أن الله لم يترك الإنسان في هذه الحياة سدي، وإنما خلقه وكلف ملائكته بحفظه ومراقبته وإحصاء أعماله، حتى يكون حسابه يوم القيامة بناء على صحيفة أعماله التي سجلت عليه في حياته.

وفي «سورة العصر» قسم على سبيل الفوز في الدنيا والآخرة هو الإيمان والعمل الصالح والأخذ بأسباب الحق والصبر.

وفي «سورة المعارج» نرى قسما على قدرة الله التي لا يقف دونها شيء.

وفي «سورة النجم» يقسم الله سبحانه على صدق الإسراء والمعراج، ردا على ما أثاره المشركون حوله من تكذيب للنبي ﷺ.

وهكذا تعددت مجالات القسم في القرآن الكريم، تعدد ما أدرك الله بعلمه وحكمته إنه في حاجة إلى القسم عليه، فكانت هذه الأصول الاعتقادية الثلاثة هي المجالات الأساسية، ووراءها مجالات فرعية كثيرة[1].

المبحث الخامس: الظواهر الأسلوبية التي يتميز بها القسم في القرآن:

إذا تأملنا القسم في القرآن الكريم، فإننا نلحظ أنه يمتاز بظواهر أسلوبية مميزة، نتناولها في المطالب الآتية.

المطلب الأول: الظاهرة الأولى: حذف جواب القسم في بعض الآيات:

والظاهرة التي تلفت النظر هنا أن هذا الحذف لم يرد إلا في الآيات المكية، ولم يرد في أي آية مدنية. وأكثر ما يكون ذلك، إذا كان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه، أو - بعبارة أخرى - إذا كان في لفظ القسم ما يدل على موضوعه، وذلك لأن المراد من القسم يفهم بذكر المقسم به، فيكون ذكر المقسم عليه لا ضرورة له، ويكون حذفه أوجز وأبلغ، ولذلك نلحظ أن حذف الجواب يكون في إحدى حالتين: في حالة ظهوره والعلم به، أو في حالة دلالة السياق عليه.

ففي قوله تعالى ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢، ١]، جواب القسم محذوف؛ لأن في القسم ما يدل عليه، وهو وصف القرآن بأنه ذو الذكر، أو؛لأن السياق بعده يدل عليه، وهو وصف الكافرين بأنهم في عزة وشقاق، أي: في كبرياء الجاهلية الكاذبة، وخلافهم المتعصب مع المؤمنين بالدين الجديد. وعلى هذا يكون القسم على القرآن الكريم وصدقه، أو على أن الأمر ليس كما يقول كفار مكة من تعدد الآلهة.

١- ينظر: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، ٧-١٠، ط / دار الكتب العلمية.

وبعض المفسرين يرون أن جواب القسم هو قوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) فكأن الله يقسم على ذلك. وقال كثيرون: إن تقدير الجواب: إن القرآن لحق وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك كقوله: (ق والقرآن المجيد)، وقوله: (لا أقسم بيوم القيامة) فإنه يتضمن إثبات المعاد. وقوله: (والفجر) أنها أزمان تتضمن أفعالا معظمة من المناسك وشعائر الحج، التي هي عبودية محضة لله تعالى وذل وخضوع لعظمته، وفي ذلك تعظيم ما جاء به محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ويمكن أن نجد أمثلة كثيرة على ذلك: في سورة النازعات، والفجر، وغيرهما.

ويذهب ابن القيم مذهبا طريفا في تفسير هذه الظاهرة الأسلوبية، إذ يرى في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»[1]، أن من بين آيات القرآن التي حذف جوابها، ما أريد به التنبيه على أهمية المقسم به دون أن يراد مقسم عليه بعينه، ولهذا يستغني عن ذكره؛ لأن هذا القسم في الحقيقة يتضمن الجواب المقسم عليه، وإن لم يذكر لفظا.

إن هذا الأسلوب من القسم القرآني إنما قصد به اللفت إلى المقسم به، بما يغني عن تأويل جواب محذوف أو غير محذوف، فلم يعد السياق في حاجة إلى تكملة أو جواب.

المطلب الثاني: الظاهرة الثانية: اقتران فعل القسم بلا النافية في بعض الآيات:

وقد ورد ذلك في ثماني آيات كلها مكية، ولم يرد في أي آية مدنية، وهذا الأسلوب نادر في كلام العرب، حتى ليعد أسلوبا قرآنيا خالصا، وتردد هذا الأسلوب أيضا في حديث النبي ﷺ فقد كثر في إيمانه ﷺ ذلك القسم الرقيق «لا والذي نفسي بيده» أو «لا والذي نفس محمد بيده». ويذكر ابن القيم في كتابة

١- ينظر: التبيان، لابن القيم، ص١٠.

«التبيان» أن أكثر يمين الرسول ﷺ «لا ومقلب القلوب».

والآيات الثماني التي ورد فيها هذا الأسلوب القرآني من القسم هي:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[الواقعة: ٧٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[المعارج: ٤٠].

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ١-٢].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾[الانشقاق: ١٦].

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[البلد: ١].

وفي آية مدنية واحدة وردت «لا» بغير فعل، جريا على أساليب العرب - وهو اقتران «لا» النافية بغير الفعل - وذلك في قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ويرى النحاة أن «لا» في هذه الآية نافية لفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور، تقديره «فلا يؤمنون وربك لا يؤمنون»، فأخبر أولا ثم أكد بالقسم بعد ذلك، فاستغنى بذكر الفعل بعد القسم عن ذكره قبله.

وقد اختلفت آراء العلماء في تفسير «لا» هذه وتعددت.

ويرى الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء عم أن «لا أقسم» عبارة من عبارات العرب في القسم ويراد بها تأكيد الخبر، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم. وتعليل الأستاذ الإمام صحيح، إلا أنه أسلوب نادر في كلام العرب.

المطلب الثالث: الظاهرة الثالثة: اقتران القسم بأداة الزجر والردع «كلا»

وقد وردت كلا مقترنة بالقسم في خمس آيات كلها مكية وهي:

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٤].

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾[العلق: ١٥].

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[التكاثر: ٣-٤].

﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ [الهمزة: ٤].

المطلب الرابع: الظاهرة الرابعة: ورود «إذا» بعد القسم الصريح:

وقد ورد ذلك في اثنتي عشرة آية كلها مكية، والذي يلفت النظر في هذه الظاهرة أن القسم في هذه الآيات كلها بمراحل الليل والنهار الزمنية.

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[النجم: ١].

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ [المدثر: ٣٤].

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧- ١٨].

﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ [الانشقاق: ١٨]. وغيرها كثير.

ويرى ابن هشام في كتابه «المغني» أن «إذا» في هذه الآيات ظرف للحال، وليس فيها معنى الشرطية، ولا تدل على الاستقبال، وربما كان الأقرب إلى سياق الآيات أن تكون للدلالة على استغراق الزمن، وكأن الله يقسم بهذه الظواهر الطبيعية التي هي من آيات خلقه وقدرته ليلفت النظر إلى أنها متجددة دائما وستظل متجددة على امتداد الزمان كله حتى تقوم الساعة.

ووراء هذه الظواهر ظواهر أخرى كثيرة، وصل بها العلماء إلى اثنتين وعشرين ظاهرة، وأكثرها من الظواهر المألوفة في أساليب العرب في القسم.

المطلب الخامس: الظاهرة الخامسة: وهي ظاهرة طريفة تستحق الإشارة إليها، تتصل بأسلوب القرآن في استخدام حروف القسم «الواو والباء والتاء»، فقد وردت التاء مقترنة بلفظ الجلالة «الله» في الآيات المكية فقط، ولم ترد في الآيات المدنية، كقوله تعالى ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾[الأنبياء: ٥٧] في حين وردت الباء مقترنة به في الآيات المكية والمدنية على السواء، كقوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله سبحانه ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾[التوبة: ٤٢] أما الواو فلم ترد في الآيات المكية ولا الآيات المدنية مقترنة به، وإنما وردت مع لفظ الجلالة «الرب» مضافا إلى الضمير الذي يشير إلى النبي ﷺ، كقوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الحجر: ٩٢]، أو مضافا إلى آياته الدالة على قدرته كقوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣]، ولكن أكثر ورودها في القسم بمظاهر الطبيعة أو في القسم بالقرآن نحو قوله تعالى: «والعصر» و «الضحى» و «والليل» و «والفجر» «وليال عشر» و «والسماء والطارق» و «كلا والقمر»، وهكذا، ونحو قوله تعالى ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الزخرف: ١-٢]، وهكذا.

المطلب السادس الظاهرة السادسة: من الظواهر الطريفة أيضا، أن مادة «حلف» لم ترد إلا في الآيات المدنية، ولم ترد في الآيات المكية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم: ١٠]. وفي كل مواضع ورودها جاءت في مقام الحنث باليمين، ومن هنا لم ترد مقترنة بالله تعالى.

أما مادة «قسم» فقد قصر ورودها على الآيات المكية، ولم ترد في الآيات المدنية. ولعل ذلك هو الذي جعل صاحبي لسان العرب والقاموس المحيط وغيرهما من علماء اللغة يذكرون أن الحلف معناه القسم، غير أن الحلف الذي ورد في القرآن الكريم لا يصح أن يكون مرادفا للقسم.

أسئلة للمناقشة

١. ما الفرق بين القسم الظاهر والمضمر؟

٢. اذكر صور القسم المضمر.

٣. ما السبب في انتشار القسم في المرحلة المكية؟

٤. القسم لا يكون إلا بمعظّم، فكيف أقسم الله بمخلوقاته؟

٥. لم أقسم الله بالنبي ﷺ؟

٦. بم يقسم الله.

٧. اذكر موضعين من المواضع التي أقسم الله فيها بذاته.

٨. عدد المواضع التي أقسم الله فيها بالقرآن الكريم؟

٩. بأي شيء أقسم الله تعالى في هذه الآية ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

١٠. اذكر موضعًا أقسم الله فيه بأحد مظاهر الطبيعة وعلة ذلك.

١١. ما الظواهر الأسلوبية التي يتميز بها القسم في القرآن؟

١٢. اختلفت آراء العلماء في تفسير «لا» في قوله تعالى ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١-٢]، وضح ذلك.

الفصل الحادي عشر: الجدل في القرآن

المبحث الأول: الجدل:

المطلب الأول تعريف الجدل لغة واصطلاحًا:

الجدل في اللغة: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً. والجدل: مقابلة الحجة بالحجة؛ والمجادلة: المناظرة والمخاصمة.

وقال ابن فارس: الجدالُ: الخصومة؛ سمي بذلك لشدته[1].

معنى الجدل اصطلاحاً:

قال الراغب: (الجِدَال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة).

وقال الجرجاني: «الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه»[2].

وقال أيضاً: «الجدال: هو عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[3].

المطلب الثاني: أقسام الجدل في القرآن الكريم:

١- الجدل الممدوح: «هو الجدل في تقرير الحق، ودعوة الخلق إلى سبيل الله، والذب عن دين الله تعالى»[4].

وهو الذي أمر الله تعالى به رسوله ﷺ في مجادلة المشركين فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن

١- ينظر في معنى الجدل لغة واصطلاحا: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١ / ٤٣٣، لسان العرب، لابن منظور، ١ / ٤٢٠، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٩٧.

٢- التعريفات، للجرجاني، ص٧٤، الكليات، للكفوي، ص٣٥٣.

٣- التعريفات، للجرجاني، ص٧٥، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص١٢٢.

٤- مفاتيح الغيب، للرازي، ٥ / ٣٢٠.

سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]،

وقال: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ .. ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٢- الجدل المذموم: «محمول على الجدل في تقرير الباطل، وطلب المال، والجاه»[1].

ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] ومنه قوله تعالى ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ [غافر: ٤]، ومنه قوله تعالى ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

وقد ذكر الله في القرآن الكريم أنه من طبيعة الإنسان في قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: خصومة ومنازعة.

المطلب الثالث: أوجه الجدل في القرآن الكريم:

الأول: الخصومة، قال: ﴿ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١٣].

الثاني: السؤال، قال الله: ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ أيْ: سأل رسلنا ويستثبت أمر ما يعذب به قوم لوط.

الثالث: المناظرة على إثبات الحق وإبطال الباطل، قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾.

وقد يكون المناظران محققين بأن يكون كل واحد منهما يناظر ليعرف الحق، ولا يكونان متجادلين إلا وأحدهما مبطل أو كلاهما.

الرابع: المراء، قال الله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾، فنهى عن المراء الواقع بين المترافقين في طريق الحج.

١- المصدر السابق.

المبحث الثاني: طريق القرآن في الجدل:

وطريق القرآن في الجدل تختلف عن طريقة المتكلمين، وقد ضرب القرآن الكريم بسهم وافر في ذلك.

قال الزركشي: «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، ولكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: سبب ما قاله سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وثانيهما: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا، فأخرج تعالى مخاطباته في حاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم، ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حمل الحديث المروي «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْهُ آيَةٌ إلا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَمَا فِيهِ حَرْفٌ إلا وَلَهُ حَدٌّ وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ»[١] لا على ما ذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر، كان نصيبه من علم القرآن أكبر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته، أتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيها أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو

١- مصنف عبد الرزاق، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن ونسيانه، ٣/ ٣٥٨، ح٥٩٦٥.

قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، [الرعد: ٤]، وغيرها من الآيات[1].

ومن الجدل نوع منطقي تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، فقد ذكر أهل العلم، أن من أول سورة الحج إلى قوله ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧]، خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات.

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [الحج: ٦]، لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظما لها، وذلك مقطوع بصحته؛لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته، منقول إلينا بالتواتر فهو حق، ولا يخبر بالحق عما سيكون، إلا الحق فالله هو الحق.

وأخبر تعالى أنه يحيي الموتى؛ لأنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأحوال التي يقبلها الله من أجلهم.

وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى فهي يحيي الموتى، وأخبر أنه على كل شيء قدير؛ لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها؛ لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، وضرب لذلك مثلا بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، ومن خلق الإنسان على

١- البرهان، الزركشي، ٢ / ٣٤.

ما خبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث، وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمحل ثم أحياها بالخصب، وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب، حتى انقلب الخبر عيانا صدق خبره في الإثبات بالساعة.

ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور؛ لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة فهي آتية لا ريب فيها، وهو سبحانه وتعالى يبعث من في القبور.

كما استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بضروب.

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء، كما قال تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

ثانيهما: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال تعالى ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات.

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، فقد روى الحاكم وغيره أن أبي بن خلف جاء بعظم ففته فقال: أيحيي الله هذا بعد مابلى ورَمّ؟ فأنزل الله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث، ثم زاد في الحجاج بقوله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] وهذه في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

دلالة التمانع دليل وجود الله:

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليها في قوله ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ لأنه لو كان للعالم صانعان، لكان لا يجري تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك؛ لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرداتهما، فيتناقض لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزا[1].

المبحث الثالث: أنواع من مناظرات القرآن:

المطلب الأول: ما يذكره سبحانه وتعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد لتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير في القرآن الكريم. فمنه قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وقوله تعالى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ..إلى قوله...لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤].

١- ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية١ / ٤٦، تفسير ابن كثير ٣ / ٢٥٤، تفسير الطبري ١٨ / ٤٩، ويقول: يقول تعالى ذكره: لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له (لفسدتا) يقول: لفسد أهل السموات والأرض.وهو بذلك يفرق بين توحيدي الربوبية والألوهية- كما هو شأن جمهور أهل السنة والجماعة- مع ما بينهما من تضمن والتزام فقد فسر آية الأنبياء بتوحيد الألوهية المستلزم للربوبية.

المطلب الثاني: ما يرد به على الخصوم، ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

١- منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم، وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق، في مثل قوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٤٣].

٢- الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كقوله تعالى ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[ق: ١٥]، وقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦، ٤٠]، وقوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٥-٨].

٣- ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب، كقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

٤- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها، كقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنعام: ٩١]. ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴾ [الأنعام: ٩١]

٥- السبر والتقسيم- بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم،

كقوله تعالى﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

تفصيل القول:

السبر و التقسيم مسلك اجتهادي، من مسالك العلة في باب القياس، يستفاد منه في تخريج علة تصلح؛ لأن تكون مناط الحكم.

وهو حصول الأوصاف في الأصل المقيس عليه، وإبطال ما لا يصلح بدليل، فيتعين أن يكون الباقي علة.

والسبر: هو الاختبار، أي: اختبار الوصف في صلاحيته وعدمها للتعليل به.

والتقسيم: حصر الأوصاف المحتملة للتعليل؛ بأن يقال: العلة إما كذا أو كذا.

وهو مقدم في الوجود على السبر؛ لأنه تعداد الأوصاف التي يتوهم صلاحيتها للتعليل، ثم يسبرها، أي: ليختبرها ليميز الصالح للتعليل من غيره، فكان الأولى أن يقال «التقسيم والسبر» لأن الواو وإن لم تدل على الترتيب، لكن البداءة بالمقدم أجود.

وأجيب عنه: بأن السبر وإن تأخر عن التقسيم، فهو مقدم عليه أيضا؛ لأنه أولاً يسبر المحل، هل فيه أوصاف أم لا؟ ثم يقسم ثم يسبر ثانيا، فقدم السبر في اللفظ باعتبار السبر الأول.

وأجيب أيضا، بأن المؤثر في معرفة العلية إنما هو السبر. وأما التقسيم فإنما هو لاحتياج السبر إلى شيء يسبر[1].

أما فائدة هذه العملية في القرآن، فواضح لا إشكال فيه، فالكتاب هو المصدر الأول والرئيس للأحكام الشرعية، فهو النص الأول، وعلم أصول الفقه، إنما هو للإعمال في النصوص، وإثبات العلة و القياس و ما الى ذلك، فهو لب علم الأصول.

قال السيوطي موضحًا: فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة، وإناثهم أخرى، رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال - إن الخلق لله تعالى، خلق من كل زوج مما ذكر ذكرا وأنثى، فممَ جاء تحريم ما ذكرتم: أي: ما علته، لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما أو لا يدري له علة، وهو التعبدي، بأن أخذ ذلك عن الله تعالى. والأخذ عن الله تعالى: إما بوحي أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله - أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا -، فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها.

والأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما، والثاني: يلزم أن تكون جميع الإناث حراما. والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معا، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدعوه، وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى، وهو

١- ينظر كلام الأصوليين على السبر والتقسيم في: الإحكام للآمدي ٣ / ٣٦٤، المستصفى، للغزالي ٢ / ٢٩٥، إرشاد الفحول، الشوكاني ص٢١٣، شرح الكوكب، لابن النجار ٤ / ١٤٢، الإيضاح لقوانين الاصطلاح، لمحيي الدين ابن الجوزي ص ١٨٨، تيسير التحرير، لأمير بادشاه ٤ / ٤٦، وينظر في تعريفه لغة: مختار الصحاح، الرازي ٢٨٣، المصباح المنير، للفيومي ١ / ٣٨٢.

أنّ ما قالوه افتراء على الله وضلال[1].

٦- إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد، كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١]، فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد أيضا إنما يكون من اثنين وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضا فإنه خلق كل شيء، وخلقه لكل شيء، يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شئ يستلزم أن يكون فاعلا بإرادته، فإنّ الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالما أن يكون كالأمور الطبيعية التي تتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه.

المبحث الرابع: الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل[2]:

١- القول بالموجب: وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه.

ومثاله قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكأنه قيل صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الاذل، لكن هم الأذل المخرج، والله ورسوله الأعز المخرج.

١- الإتقان، للسيوطي، ٣/ ١٧٣، ١٧٤.

٢- تنظر المسألة في: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ، ٢/ ١٤٧-١٤٨، الإتقان، للسيوطي، ٤/ ٥٢-٥٧، مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر الألمعي ٤٤٥-٤٥٠، أدب البحث والمناظرة، محمد أمين الشنقيطي، ٢/ ٧٦، ويعد الحسن بن قاسم الطبري(٣٥٠هـ) أول من دون في الجدل مطلقا في كتابه" المحرر في النظر".

٢- **التسليم**: وهو أن يفرض المحال، إما منفيا أو مشروطا بحرف الامتناع؛ ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليا، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقرير وقوعه.

كقوله تعالى ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، المعنى: ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلها، لزم من ذلك التسليم، ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعدا محال لما يلزم منه المحال.

٣- **الإسجال**: وهو أن تثبت على لسان خصمك ألفاظًا في سياق آخر، تسجل به عليه ما كان عنده محمل شبهة وإنكار، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤]

وفي الاتقان: وهو الإتيان بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به نحو ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [غافر: ٤٠]، فإن في ذلك إسجالاً بالإيتاء والإدخال حيث وصفا بالوعد من الله الذي لا يخلف وعده.

٤- **الانتقال**: وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذا فيه؛ لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول.

كما جاء في مناظرة الخليل الجبارَ لما قال له ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال الجبار (أنا أحيي وأميت) ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، ومن

لا يجب عليه فقتله، فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو علم ذلك وغالط بهذا الفعل، فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد الجبار له وجها، يتخلص به منه فقال (إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فانقطع الجبار وبهت، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق؛ لأن من هو أسن منه يكذبه.

٥- **المناقضة**: وهو تعليق أمر على مستحيل، إشارة إلى استحالة وقوعه كقوله تعالى ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

الفصل الثاني عشر: فواتح وخواتيم السور، والمناسبات

المبحث الأول: فواتح السور:

قال السيوطي[1]: قال أهل البيان، من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محررًا، أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه. ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله، وأرقه وأسلسه، وأحسنه نظما وسبكا، وأصحه معنى وأوضحه، وأحلاه من التعقيد، والتقديم والتأخير المناسب أو الذي لا يناسب.

قالوا: وقت أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك.

ومن الابتداء الحسن: نوع أخص منه، يسمى براعة الاستهلال، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله. والعلم الأسنى في ذلك «سورة الفاتحة» التي هي مطلع القرآن، فإنها مشتملة على جميع مقاصده، كما روى البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله تعالى مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والانجيل والزبور: الفرقان، ثم أودع علوم القرآن: المفصل، ثم أودع علوم المفصل: فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها، كان كمن علم جميع علم تفسير جميع الكتب المنزلة.

وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت بها الأديان أربعة:

١- **علم الأصول** ومداره على معرفة الله تعالى وصفاته، وإليه الإشارة بـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١-٣]، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بـ ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧]، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بـ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ

١- الإتقان، للسيوطي، النوع الستون، ٢/ ١٠٦.

الدِّينِ ﴾[الفاتحة: ٤].

٢- **وعلم العبادات** وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

٣- **وعلم السلوك** وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية وإليه الاشارة بـ ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

٤- **علم القصص** والاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه، وإليه الاشارة بقوله بـ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة.

ولقد افتتح الله سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها:

أولاً: الثناء عليه تعالى ويشمل:

أ- التحميد[٥ سور] هي: الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ - فاطر.

ب-تبارك [سورتان] وهما: الفرقان- الملك.

ج- التسبيح [٧ سور] وهي: الإسراء - الحديد - الحشر - الصف - الجمعة - التغابن - الأعلى.

ثانيًا: حروف التهجي وتشمل [٢٩ سورة] هي:

البقرة - آل عمران - الأعراف - يونس - هود - يوسف - الرعد - إبراهيم - الحجر - مريم - الشعراء - النمل - القصص - العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة - ص - غافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف - ق - ن - بالإضافة الى يس - طه.

ثالثًا: النداء وتشمل [١٠ سور] منها:

[٥ سور] بنداء الرسول ﷺ وهي: الأحزاب - الطلاق - التحريم - المزمل - المدثر.

[٥ سور] بنداء الأمة الإسلامية وهي: النساء - المائدة - الحج - الحجرات - الممتحنة.

رابعًا: الجمل الخبرية وتشمل [٢١ سورة] هي:

الأنفال - براءة - النحل - الأنبياء - المؤمنون - النور - الزمر - محمد - الفتح - القمر - الرحمن - المجادلة - الحاقة - المعارج - نوح - عبس - القدر - البينة - القارعة - التكاثر - الكوثر.

خامسًا: القسم ويشمل [١٧ سورة] هي:

الصافات - الذاريات - الطور - النجم - المرسلات - النازعات - البروج - الطارق - الفجر - الشمس - الليل - الضحى - التين - العاديات - العصر. إضافة إلى القيامة - البلد.

سادسًا: الشرط يشمل [٧ سور]هي:

الواقعة - المنافقون - التكوير - الانفطار - الانشقاق - الزلزلة - النصر.

سابعًا: الأمر ويشمل [٦ سور] هي:

الجن - اقرأ - الكافرون - الصمد - الفلق - الناس.

ثامنًا: الاستفهام ويشمل [٦ سور] هي:

الإنسان - عم - الغاشية - الشرح - الفيل - الماعون.

تاسعًا: الدعاء ويشمل [٣ سور] هي:

المطففين - الهمزة - المسد.

عاشرًا:

التعليل ويشمل سورة واحدة هي: قريش.

المبحث الثاني: خواتم السور:

هي أيضا مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة من إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد؛ لأنها بين أدعيه ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ، ووعد ووعيد إلي غير ذلك، كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة الفاتحة، إذ المطلوب الأعلى: الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال، ففصل جملة ذلك بقوله [الذين أنعمت عليهم] والمراد: المؤمنون، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيده، ليتناول كل إنعام؛ لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان، فقد أنعم عليه بكل نعمة؛ لأنها مستتبعة لجميع النعم، ثم وصفهم بقوله [غير المغضوب عليهم ولا الضالين] يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة، وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال المسببين عن معاصيه وتعدي حدوده.

وكالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة.

وكالوصايا التي ختمت بها سوره آل عمران ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، والفرائض التي ختمت بها سوره النساء، وحسن الختم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حي، ولأنها آخر ما نزل من الأحكام. وكالتبجيل والتعظيم الذي ختمت به المائدة.

وكالوعد والوعيد الذي ختمت الأنعام، وكالتحريض على العبادة بوصف

حال الملائكة الذي ختمت به الأعراف، وكالحض على الجهاد وصلة الأرحام الذي ختمت به الأنفال.

وكوصف الرسول ومدحه، والتهليل الذي ختمت به براءة، وتسليته عليه الصلاة والسلام في خاتمة يونس وهود، ووصف القرآن ومدحه الذي ختمت به يوسف، والوعيد والرد على من كذب الرسول الذي ختمت به الرعد.

ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة إبراهيم ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ومثلها خاتمة الأحقاف، وكذا خاتمة الحجر بقوله ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

وانظر إلى سورة الزلزلة، كيف بدأت بأهوال القيامة وختمت بقوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨ (، وانظر إلى براعة آخر آية نزلت، وهي قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وما فيها من الإشعار بالآخرية المستلزمة للوفاة، وكذا آخر سورة نزلت، وهي سورة «النصر» وفيها الإشعار بالوفاة، كما أخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[النصر: ١]، قَالُوا: فَتْحُ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلٌ، أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ[1]

١- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ٦ / ١٧٩، ح٤٩٦٩.

المبحث الثالث: المناسبات بين الآيات والسور:

إن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد على حسن التأويل، ودقة الفهم، ولذا أفرد بعض العلماء هذا المبحث بالتصنيف[1].

المطلب الأول: تعريف الماسبة:

المناسبة في اللغة: المقاربة والمشاكلة[2]، يقال فلان يناسب فلانًا، أي: يقرب منه ويشاكله منه المناسبة في العلة في باب القياس، وهي الوصف المقارب للحكم[3].

وفي الاصطلاح: هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه. وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها. وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها[4].

والمراد بالمناسبة هنا: وجه الارتباط بين الجملة في الآية الواحدة -أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة. والرابط: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني[5].

المطلب الثاني: أهمية علم المناسبات:[6]

١- يعد علم المناسبات من أشرف العلوم العظيمة؛ لأنه يتعلق بكتابِ الله تعالى

١- ممن صنف فيه أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الأندلسي النحوي (ت٨٠٧هـ) في كتاب سماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" وللشيخ برهان الدين البقاعي كتاب في هذا سماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". وينظر هذا المبحث " البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٣٥.

٢- مقاييس اللغة لابن فارس ٥ / ٣٢٤ والصحاح، للجوهري ١ / ٤٢٢.

٣- أصول الفقه لأبي زهرة، ص٢٤١ ط دار الفكر العربي.

٤- مباحث في التفسير الموضوعي: الدكتور مصطفى مسلم، ص ٥٨، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.

٥- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٣٩.

٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١ / ٦ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٦٢، مباحث في التفسير الموضوعي، لمسلم، ص ٥٨.

فهو علم دقيق يحتاج إلى فهم واضح لمقاصد القرآن الكريم وأهدافه، وتذوق لنظمه، ولبيانه المعجز.

٢- يبين مدى ارتباط الكلام بعضه ببعض.

٣- تكميل المقصود من كل سورة وفهم المراد من القرآن

٤- يعين على فهم معنى الآيات القرآنية وتحديد المراد منها

٥- معرفة المناسبة مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه:

٦- إظهار أسرار الإعجاز القرآني والكشف عن كنوزه:

قال الزركشي: «وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف، حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[1].

تتوقف معرفة المناسبات والربط بين الآيات على، اجتهاد المفسر، ومعرفته بإعجاز القرآن، وأسراره البلاغية.

ولا يعني أن يُلتمس لكل آية مناسبة، فإنّ القرآن الكريم نزل منجمًا حسب الوقائع والأحداث، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لا يدركها، فلا ينبغي أن يعتسف المناسبة اعتسافًا، وإلا كانت تكلفًا ممقوتًا.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[2]: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدها بالآخر».

ثم قال: «ومن ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربباط ركيك، يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين

١- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٣٦.

٢- الملقب بسلطان العلماء، توفي سنة ٦٦٠هـ، . طبقات الشافعية، السبكي، ٥ / ٨٠.

سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يأتي ربط بعضه ببعض[1].

المطلب الثالث: عناية المفسرين بعلم المناسبة

وقد عنى بعض المفسرين ببيان المناسبة بين الجمل، أو بين الآيات، أو بين السور[2] واستنبطوا وجوه ارتباط دقيقة.

فالجملة قد تكون تأكيدًا لما قبلها، أو بيانًا، أو تفسيرًا أو اعتراضًا تذييليًا - ولهذا أمثلته كثيرة.

وللآية تعلقها بما قبلها على وجه من وجوه الارتباط يجمع بينهما، كالمقابلة بين صفات المؤمنين وصفات المشركين، ووعد هؤلاء ووعيد أولئك، وذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب، وآيات الترغيب بعد آيات الترهيب، وآيات التوحيد والتنزيه بعد الآيات الكونية، وهكذا...

المبحث الرابع: أنواع المناسبات:

المطلب الأول: المناسبة بين أول السورة وخاتمة ما قبلها:

وقد تكون المناسبة بين السورة والسورة، كافتتاح سورة «الأنعام» بالحمد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] فإنه مناسب لختم سورة المائدة في الفصل بين العباد ومجازاتهم ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨-١٢٠]. إلى آخر السورة.

١- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٣٧.

٢- وجه الارتباط بين السور مبني على أن ترتيب السور توقيفي، وقد اختلف العلماء في ذلك، وسبق عرضها في الفصل الرابع.

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١] فإنه مناسب لختام سورة الواقعة في الأمر به ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦] وكارتباط سورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ بسورة «الفيل» فإن هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبة تمكين قريش من رحلتيها شتاء وصيفًا، حتى قال أخفش، اتصالها بها من باب قوله تعالى ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨].

المطلب الثاني: المناسبة بين فواتح السور وخواتمها:

وقد تكون المناسبة بين فواتح السور وخواتمها... ومن ذلك ما في سورة «القصص» فقد بدأت بقصة موسى، وبيان مبدأ أمره ونصره، ثم ما كان منه عندما وجد رجلين يقتتلان وحكي الله دعاءه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧] ثم ختم الله السورة بتسلية رسولنا ﷺ لخروجه من مكة والوعد بعودته إليها، وينهيه عن أن يكون ظهيرًا للكافرين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص: ٨٥-٨٦].

المطلب الثالث: مناسبةُ الآية لما قبلها ولما بعدها:

مثال ذلك قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فإنَّه لمّا ذكر في أوّل استحقاق الله تعالى لكلّ المحامد، وكونه رباً للعالمين، وهو الرحمن الرحيم، وهو مع كلّ هذا، الملك المتصرف في اليوم الَّذي لا ملْك فيه لأحد إلا لله. كان من شأن كلّ عاقلٍ أن يُقبل على من هذه صفاته وتلك عظمته، معترفًا بالعبودية له، والذُّل الكامل لجنابه العظيم، ملتجئًا إليه، طالبًا منه العون والمدد، ثم إنَّه لما حمد وأثنى، ومجد، واعترف بالعبودية، ناسب أن يستشرف للطلب من ذلك الرب المستعان، فيقول ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] [1].

١- ينظر: نظم الدرر، ١ / ١٧.

المطلب الرابع: المناسبةُ بين الآية وفاصلتها:

مثال ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]، وتتضح مناسبة فاصلة هذه الآية لمضمونها فيما يأتي فقد روي أنّ بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ: والسارق والسارقة إلى آخرها وختمها بقوله: والله غفور رحيم فقال: ما هذا كلام فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنما هي والله عزيز حكيم فقال: بخ بخ، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[1].

المطلب الخامس: وقد تكون المناسبة في مراعاة حال المخاطبين.

كقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] فجمع بين الإبل والسماء والجبال، مراعاة لما يجري عليه الإلف والعادة بالنسبة إلى المخاطبين في البادية، حيث يعتمدون في معايشهم على الإبل، فتنصرف عنايتهم إليها، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذي ينبت المرعى وترده الإبل، وهكذا يكون بنزول المطر، وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به ولا شيء أمنع كالجبال، وهم يطلبون الكلأ والماء فيرحلون من أرض ويهبطون أخرى، ويتنقلون من مرعى أجدب إلى مرعى أخصب، فإذا سمع أهل البادية هذه الآيات، خالطت شغاف قلوبهم بما هو حاضر لا يغيب عن أذهانهم.

١- البحر المحيط، لأبي حيان، ٤ / ٢٥٥، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ٣ / ٨٧.

أسئلة للمناقشة

١. قال أهل البيان: (من البلاغة حسن الابتداء)، اشرح هذه العبارة.

٢. ما المراد من براعة الاستهلال؟

٣. استخرج من الآيات الآتية العلوم التي احتوى عليها القرآن الكريم وبها قامت الأديان:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١-٣].
- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
- ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].
- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

٤. اذكر السور التي افتتحت بالتحميد، والسور التي افتتحت بالتسبيح.

٥. ما السور التي افتتحت بنداء الرسول صلى الله عليه وسلم؟

٦. عرّف المناسبة في اللغة والاصطلاح.

٧. بيّن أهمية علم المناسبات.

٨. كان للمفسرين عناية كبيرة بعلم المناسبات، دلل على ذلك.

٩. بيّن المناسبة بين سورة الواقعة وسورة الحديد.

١٠. اذكر آية من القرآن الكريم، ثم بيّن المناسبة بينها وبين فاصلتها.

الفصل الثالث عشر: إعجاز القرآن الكريم

تمهيد:

قد جرت حكمة الله الأزلية، أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة، التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير.

وقد خص الله تبارك وتعالى: نبينا محمدًا ﷺ بالمعجزة العظمى (القرآن الكريم)، ذلك النور الرباني، والوحي السماوي الذي ألقاه على قلب نبيه، قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالاً من العدم، كانت في عداد الموتى، فأحياها الله بنور هذا القرآن، وهداها أقوم طريق، فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات «حسية»، تتناسب مع العصر والزمان، الذي بعثوا فيهما، كمعجزة (موسى) عليه السلام، حيث كانت (اليد والعصا)؛ لأنه بعث في زمن كثر فيه السحرة، واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة (عيسى) عليه السلام، حيث كانت بإحياء الموتى، وإبراء الأكْمَه[1]. والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات؛ لأنه بعث في عصر، كثر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مريم عليه السلام، بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى وإبراء العمي والبكم والصم[2].

١- أي: الأعمى، قال تعالى: (وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله)[آل عمران: ٤٩].

٢- ينظر في الحديث عن بعض معجزات النبي، ﷺ: جامع البيان للطبري، ١٢ / ٥١، تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٧، صحيح البخاري، باب: انشقاق القمر، ح ٣٦٥٦، فتح الباري، لابن حجر، ، لابن حجر، ٩ / ٤١، في قوله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر)، والترمذي، باب: مناقب أبي هريرة، ح ٤٠٠٣، وقال: حسن غريب (تكثير التمر لأبي هريرة) وغيرها.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات (مادية حسية)[1]، فإن معجزة محمد بن عبدالله معجزة (روحية عقلية) وقد خصه الله بالقرآن، معجزة العقل الباقي على الزمان، ليراها ذوو القلوب والبصائر فيستنيروا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»[2].

المبحث الأول: تعريف الإعجاز وإثباته:

المطلب الأول: تعريف الإعجاز:

الإعجاز: إثبات العجز، والعجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز، ظهرت قدرة المعجز، والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة - وهي القرآن - وعجز الأجيال بعدهم[3].

والمعجزة: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، دال على صدق مدعى النبوة. وسميت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها[4].

وهناك فرق بين الكرامة والمعجزة، فالكرامة هي: أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد ولي من أوليائه، معونة له على أمر ديني أو دنيوي[5]، وتكون على يد بعض الصالحين، من الملتزمين بأحكام الشريعة إكراما لهم من الله عز وجل، ولا

١- ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص٢٢، فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص١٣.

٢- رواه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي، ٦ / ١٨٢، ح٤٦٩٦.

٣- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤ / ٢٣٢، لسان العرب، لابن منظور، ، ابن منظور، ٥ / ٣٦٩.

٤- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١١٦.

٥- شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية، ١ / ٣٤٩.

عصمة لصاحب الكرامة[1].

والقرآن الكريم تحدى به النبي ﷺ العرب، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة، ومثل هذا لا يكون إلا معجزا.

فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على ثلاث مراحل:

أ- تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحديا، يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ب- ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣- ١٤].

ج- ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله تعالى ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي، عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مرّ العصور، ظل ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العالم الحديث، ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه ومدبره، وهو ما أجمله القرآن، أو أشار إليه__ فصار القرآن بهذا معجزا للإنسانية كافة.

١- ينظر: مقدمة في إعجاز القرآن، د.مروان وحيد شعبان، ص٣٩.

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور ثلاثة:

أ- الأول: التحدي، أي: (طلب المباراة والمعارضة).

ب- الثاني: أن يكون الدافع إلى رد التحدي قائما.

ج- الثالث: أن يكون المانع منتفيا.

المطلب الثاني: أنواع التحدي[1]:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

١- التحدي العام.

٢- التحدي الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، والعباقرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر دون استثناء، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

أما الثاني: (التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم -كفار قريش- وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضا:

١- تحدي كلي: وهو التحدي بجميع القرآن، في أحكامه، وروعته، وبلاغته، وبيانه.

٢- تحدي جزئي: وهو التحدي بمثل سورة من سور القرآن الكريم، ولو من أقصر سورة كسورة الكوثر.

١- ينظر في المسألة: فتح القدير للشوكاني، ٢ / ٦٤٤، تفسير المراغي، ١٤ / ١٤٣، مباحث في إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص٣٢، المعجزة القرآنية، د. محمد حسن هيتو، ص٣٣.

المبحث الثاني: شروط المعجزة الإلهية:

وللمعجزة شرائط خمسة، نبه عليها العلماء، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة:

١- **الشرط الأول:** أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

٢- **الشرط الثاني:** أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسنن الكونية.

٣- **الشرط الثالث:** أن يستشهد بها مدعي الرسالة على صدق دعواه.

٤- **الشرط الرابع:** أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدي بتلك المعجزة.

٥- **الشرط الخامس:** ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة[1].

فهذه الشروط الخمسة، إن تحققت، كان الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحب الدعوى.

- **أما الشرط الأول:** فإنه لو أتى آت - في زمان يصح فيه مجيء الرسل - وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان، لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة، ولا دالا على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى، ...إلى آخره.

- **وأما الثاني:** وهو خرق العادة، فلو قال المدعي للنبوة: معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأمور وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم

١- ينظر: مقدمة في إعجاز القرآن، د.مروان وحيد شعبان، ص٣٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٣٨٢، شرح المواقف للجرجاني، ٨/ ٢٢٣.

تفعل من أجله، وقد كانت من قبله، فليس فيها دلالة على صدقه.

- **وأما الثالث**: وهو أن يستشهد بها مدعي النبوة، وتحصل عند طلبها تصديقا لدعواه، فلو ادعى إنسان أن معجزته، أن ينقلب الجماد إلى حيوان أو إنسان، ولم ينقلب لا يدل على صدق دعواه.
- **وأما الرابع**: وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى، لا على خلافه؛ لأنها حينذاك تكون تكذيبا له، روي أن (مسيلمة الكذاب) - لعنه الله - طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر، ليكثر فيها الماء، فغارت البئر، فدل على كذبه[1].
- **وأما الخامس**: ألا تعارض المعجزة، فإن عورضت، بطل كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر، لم تعد معجزة، ولهذا قال تعالى: في خطاب المشركين ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤].

المبحث الثالث: بم كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلام الله المعجز للخلق، في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة.

ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان عن إعجاز القرآن، بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل العربية قاطبة، وأهل اللسن منهم والبيان، على أن القرآن (معجز بذاته) أي: أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلابة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

١- ينظر: تفسير القرطبي ١ / ٧٠.

مذهب أهل الصّرفة:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم (أبو إسحاق النظّام) إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ (الصّرفة)، بمعنى أن الله عز وجل، صرف البشر عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليها، وخلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم، ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله.

يقول (مصطفى الرافعي) رحمه الله[1]: وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين (أبو إسحق النظام) إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقًا للعادة وقال (المرتضى من الشيعة): بل معنى الصّرفة، أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، ليجيئوا بمثل القرآن.. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم.. وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى!

ثم قال: وعلى الجملة، فإن القول بالصّرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، وهذا زعم رده الله على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضربًا من العمى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

وعلى ذلك المذهب الفاسد، يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم إنما هو (الصّرفة) التي بسببها عجزوا عن الإتيان بمثله ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٦٤. وتنظر المسألة في: الإتقان، للسيوطي، ٢/ ٣١٤، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٩٥، المعجزة الكبرى للعلامة محمد أبي زهرة، ص٣٩، مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، ١/ ٢٩٦، الفرق بين الفرق عبد القاهر البغدادي، ص١٣١-١٣٣.

دفع شبهة القول بالصّرفة[1]:

إن أصحاب هذا القول يذهبون إلى أن القرآن ليس معجزًا بذاته، وإنما كان إعجازه بسبب أمرين:

الأول: الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسلوا وقعدوا.

الثاني: العارض المفاجئ الذي عطل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول – بشقيه – باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع وذلك لعدة أسباب:

أولاً: لو كان هذا القول صحيحًا، لكان الإعجاز في (الصّرفة) لا في القرآن نفسه، وهذا باطل بالإجماع.

ثانيًا: لو صح القول بالصّرفة، لكان ذلك (تعجيزًا) لا (إعجازًا)؛لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز، وإنما هو من باب التعجيز.

ثالثًا: لو كان هناك صارف زهدهم في المعارضة من (كسل أو ملل)، لما وقفوا في وجه نبي الإسلام، ولما آذوه وأصحابه، ولما عذبوا المسلمين وشردوهم، ولما قاطعوا الرسول وعشيرته وحاصروهم في الشعب، حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فاوضوه وساوموه على أن يترك الدعوة ثم اضطروه إلى الهجرة هو وأصحابه الكرام، إلى غير ما هنالك من دوافع وبواعث، جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام.

رابعًا: لو كان هناك عارض مفاجئ، عطل مواهبهم البيانية، لأعلنوا ذلك في

١- تنظر المسألة في: المعجزة الكبرى، أبو زهرة، ص٨٣، وما بعدها، دراسات في علوم القرآن، د. فهد الرومي، ص٢٧٤، مناهل العرفان، للزرقاني، ٢ / ٣٠٢.

الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم، وبالتالي ليقللوا من شأن القرآن، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامسًا: لو كان هذا العارض المفاجئ صحيحًا؛ لأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر، أن يعارضوا القرآن، وأن يتبينوا الكذب في دعوى إعجازه، وكل هذه الأشياء باطلة، فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبي القرآن، وأنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول لذلك الميدان؟!

وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء القول (بتعطيل المواهب والحواس) بعد أن يستمع إلى شهادة ألدّ الأعداء من صناديد قريش وهو (الوليد بن المغيرة) حيث قال كلمته المشهورة: (والله لقد سمعت آنفا كلامًا ليس من كلام بشر، ليس بشعر ولا نثر ولا كهانة، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه) والفضل ما شهدت به الأعداء.

المبحث الرابع: وجوه إعجاز القرآن الكريم[1]

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر الإتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

أ- يرى بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن، هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه، ومقاطعه، وفواصله.

ب- ويرى البعض الآخر: أن وجه الإعجاز، إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاغة

١- تنظر المسألة في: إعجاز القرآن للباقلاني، ص٦٢-٧١، الشفاء للقاضي عياض، ص١٥٦-١٦٨، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد، القرطبي، ص٣٢٩-٣٣٤، أعلام النبوة للماوردي، ص١٢٦-١٥٢.

عباراته، وجودة سبكه، إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها.

ت- ويرى آخرون أن الإعجاز في خلوه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة، والأمور الغيبية التي ليست بمقدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض.

ث- وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة، في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كل سورة، والمعول عليه عندهم ما يلي:

١. الفصاحة في الألفاظ.

٢. البلاغة في المعاني.

٣. صورة النظم البديع.

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي (الدائرة البيانية) التي امتاز بها القرآن، وهي وإن كانت حقًا إلا أن إعجاز القرآن ليس في (الفصاحة والبلاغة) فحسب، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن.

وقد أجاد العلامة (القرطبي) رحمه الله، فعدّ عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ (الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجهًا من وجوه الإعجاز، ومنها ما ذكره القرطبي ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه الوجوه بالإيجاز، ثم نعقبها بشيء من التفصيل:

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

- **أولاً**: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

- **ثانيًا**: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.
- **ثالثًا**: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.
- **رابعًا**: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبز كل تشريع وضعي.
- **خامسًا**: الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي.
- **سادسًا**: عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.
- **سابعًا**: الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد.
- **ثامنًا**: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها (العلوم الشرعية والعلوم الكونية).
- **تاسعًا**: وفاؤه بحاجات البشر.
- **عاشرًا**: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

أما الوجه الأول من وجوه إعجازه فهو (النظم البديع) المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان، (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) وغيرهما من فصحاء العرب ومشاهيرهم.

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن: فهو (الأسلوب العجيب) المخالف لجميع الأساليب العربية، فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب، الذي بهر العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر على نحو ما وجدت في القرآن، خصوصًا وأن النبي ﷺ تحدّى به فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، وذلك في عصر، كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في

هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق.

أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، ذلك الإيجاز الرائع، والجزالة الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها أو يأتي بمثلها لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الإنسانية.

لقد كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن، فيخر ساجدا لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الجفاة.

يروى أن (الأصمعي) خرج ذات يوم فلقي جارية، وسمعها تنشد أبياتا من الشعر رائعة، فأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب، بجمال أسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة ألفاظها، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟! فقالت له: ويحك أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين[١].

فالآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما: (أرضعيه) و (ألقيه في اليم) ونهيين وهما: (ولا تخافي) و (ولا تحزني) وخبرين وهما: (أوحينا) و (خفت) وبشارتين وهما: (إنا رادوه إليك) و (وجاعلوه من المرسلين)، فالبشارة الأولى برده إليها سليما كريما، والبشارة الثانية وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا.

فانظر - رعاك الله - كيف أدركت هذه الجارية البدوية، بفطرتها العربية، سرا من أسرار هذا القرآن، فكأن الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان فكانت لآلئها بميزان.

١- ذكرها القرطبي في تفسيره، ١٣ / ٢٥٢.

وأما الوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل، الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر في القديم والحديث، فالقرآن الكريم هو الذي وضح أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي والمدني والاجتماعي، وهو الذي نظم حياة الأسرة، والمجتمع، ووضع أعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة، العدالة، الحرية) إلى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع، الذي تسعى إليه المدنية الحديثة.

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطرًا على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة، لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفذ فيها ما يراه من العقوبة، على ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية.

أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمسة (جريمة القتل، جريمة الزنى، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف).

ولعل أروع مثل للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر، ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية، حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم.

والوجه الخامس من وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيبات)، وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع، على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، إنما هو كلام علاّم الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية، ولو كان من صنع محمد - كما زعموا - لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية، بوقوعها على خلاف ما أخبر، ولافتضح أمره بالكذب الصريح، وحاشاه ﷺ من الكذب على الله.

أ- فمن هذه الأخبار الغيبية، إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم، بعد أن انكسروا في الحرب السابقة وذلك في قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥].

يقول الزمخشري: وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

ب- التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان، وذلك في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وكذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾[النور: ٥٥].

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي، فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكن المسلمين في الأرض في حياة النبي ﷺ.

ولم يبق جزء منها، إلا دان للمسلمين بالطاعة، ومن لم يدخل في الإسلام، دخل في ذمة المسلمين، وخضع لسلطانهم، ودفع الجزية لهم، ثم سار أصحابه من

بعده إلى أرض كسرى وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمض قرن من الزمان حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب إلى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولا.

وهذا أمر خارق للعادة، فكان وجهًا من وجوه الإعجاز؛لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله جل وعلا، ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص الذي جاء في القرآن الكريم، هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي، الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها.

والوجه السادس من وجوه إعجاز القرآن، تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية التي سبق إليها القرآن قبل أن يكشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جل شأنه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقد عرف هذه الوجه في عصرنا الحديث بمسمى الإعجاز العلمي، واعتنى به العلماء كثير، وهو يهتم بدراسة الآيات التي فيها إشارة إلى قضايا تتعلق بالطب، أو بالفلك أو النبات والحيوان، وغيرها.

ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد) وكتاب (تشريع وإصلاح)، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية، إلى بعض المسائل الطبيعية، والطبية، والجغرافية، مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحيًا من عند الله، فمن المقطوع به أن محمدا ﷺ، كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن، ليس من تأليف

محمد ﷺ - كما يزعم بعض المستشرقين - إنما هو وحي من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين.

الوجه السابع من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (الوفاء بالوعد) في كل ما أخبر عنه، وفي كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين: وعد مطلق، كوعده بنصر رسوله، ونصر المؤمنين على الكافرين. ووعد مقيد كشرط التقوى وشرط الصبر كقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

الوجه الثامن من وجوه إعجاز القرآن، هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم.

إن القرآن قد جاء بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتعددة، في العقائد، والعبادات والتشريع والتنظيم، وفي الأخلاق والمعاملات، وفي حقول شتى: في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والاجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناظرة والجدل. ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمي أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف تحقيقًا وكمالاً، مؤيدًا بالحجج والبراهين، بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئًا عنها، ولم ينطق بقاعدة أو أصل منها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون وحيًا من الله تعالى؟

الوجه التاسع من وجوه إعجاز القرآن (وفاؤه بحاجات البشر) وهذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته وإرشاده وهي بإيجاز:

١	إصلاح الأفراد.	٢	إصلاح المجتمعات.
٣	إصلاح العقائد.	٤	إصلاح العبادات.
٥	إصلاح الأخلاق.	٦	إصلاح الحكم والسياسة.
٧	إصلاح الشؤون المالية.	٨	إصلاح الشؤون الحربية.
٩	إصلاح الثقافة العلمية.	١٠	تحرير العقول والأفكار من الخرافات.

الوجه العاشر من وجوه إعجاز القرآن: ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير، أن المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعون إلى تلاوة القرآن من المسلمين، وحتى تواصوا فيما بينهم ألا يستمعوا إلى القرآن، وأن يرفعوا أصواتهم بالضجيج، حينما يتلوه محمد، لئلا يؤمن به الناس ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب، أن يفيء إلى ظلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عنادا، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، وعلى رأسهم (عمر بن الخطاب) و (سعد بن معاذ) و (أسيد بن حضير) وغيرهم من القادة والرؤساء.

الوجه الحادي عشر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (سلامته من التناقض والتعارض خلافا لجميع كلام البشر)، وصدق الله حيث يقول ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.. معجزة النبي الأمي إلى العالمين في كل زمان ومكان إلى يوم يبعثون.

أسئلة للمناقشة

أكمل الجمل التالية:

المجموعة الأولى:

- علم القراءات القرآنية هو....................
- من فوائد معرفة القرآن المكي والمدني ....و..............
- قام الصحابي الجليل......... بجمع القرآن في عهد سيدنا أبي بكر، رضي الله عنه.
- سبب النزول هو............................
- النسخ هو............................
- أنكر...............النسخ، ويزعمون أنه يستلزم البداء.
- أنواع النسخ في القرآن..........و..........و..............
- الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل
- هي..........و..........و..........و..........

المجموعة الثانية:

- كيف جُمع القرآن في عهد سيدنا أبي بكر، رضي الله عنه؟
- ما ضوابط الجمع التي وضعها سيدنا عثمان، رضي الله عنه؟
- هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟
- ماذا تعني جملة «آيات الصفات» وما موقف العلماء من تفسيرها؟

- هل يقع النسخ في أصول العبادات والمعاملات؟
- اذكر بعضا من فوائد القصص القرآني؟
- ماذا يعني مصطلح «الأمثلة الكامنة» مع ذكر مثال لذلك؟
- هل نتمثل بقصص الأنبياء الوارد في القرآن الكريم، مثل: سفينة نوح وعصا موسى وغيرهما؟
- ما الغاية من القسم القرآني، وعلام يقسم الله تعالى؟
- ما شروط الإعجاز؟
- ما شروط المعجزة ؟
- ماذا تعرف عن: الصرفة، وكيف ترد على من قال به؟.

الفصل الرابع عشر: مصطلح «علم تفسير القرآن».

المبحث الأول: تاريخ التفسير– تطوره:

المطلب الأول: التفسير لغة واصطلاحًا:

التفسير لغة: التَّفسيرُ: تفعيلٌ من الفَسْر، وهذه المادة يدور معناها حول البيان والوضوح، ولذا قيلَ: الفَسْرُ: كَشفُ المغَطَّى، وقيلَ: هو مأخوذٌ من قولِهم: فَسَرْتُ الحديثَ، أفسُرُهُ فَسْراً؛ إذا بيَّنتُه، وأوضحتُه. وفَسَّرْتُهُ تفسيراً[1].

ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي: بيانا وكشفا.

وقال الزركشي: (أما التفسير في اللغة فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف)[2].

التفسير اصطلاحًا:

هناك تعاريف متعددة تتقارب في المعاني وتتباين في الألفاظ نتيجة لوجهة نظر العلماء، والذي نرجحه ونميل إليه هو تعريف العلامة الزركشي وهو:

علمٌ يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه[3].

وهذا التعريف جامع مانع.

١- لسان العرب، لابن منظور، ، ٥ / ٥٥، تاج العروس، للزبيدي، ١٣ / ٣٢٣، تهذيب اللغة: ١٢ / ٢٨٣.

٢- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ، ٢ / ١٤٧.

٣- المصدر السابق، ١ / ١٣.

المطلب الثاني: التأويل لغة واصطلاحًا:

التأويل لغة: هو مصدر أول وله في لغتنا العربية عدة معان وهي:

١. يأتي بمعنى التفسير والتوضيح والبيان، قال ابن منظور (أول الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوله وتأوله فسره)[١].

٢. الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومالاً: رجع. ومنه قوله عز وجل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله أحسن تأويلاً معناه (أجمل عاقبة وأحمد مآلاً أي مصيرا)[٢].

٣. وكذلك ورد بمعنى تأويل الأعمال دون الأقوال كقوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ [الكهف ٧٨] وواضح أن التأويل هنا بيان سبب أعمال الخضر عليه السلام كقتله الغلام، وخرقه السفينة وإقامته الجدار.

التأويل اصطلاحاً:

هناك اختلاف بين تعاريف السلف والخلف في التأويل، فعند السلف له معنيان هما:

١. التأويل هو: (تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً) ولعل هذا ما عناه مجاهد بقوله: (أن العلماء يعلمون تأويله - يعني القرآن)[٣] أي تفسيره.

٢. وعرفه البغوي، والكواشي: (هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط)[٤].

١- لسان العرب، لابن منظور، ١ / ١٣١.

٢- كلمات القرآن تفسير وبيان، حسنين مخلوف: ٦٤.

٣- مناهل العرفان، للزرقاني، ، ١ / ٤٧٣.

٤- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ، ٢ / ١٥٠، وينظر: الإتقان، للسيوطي، ٤ / ١٦٩.

٣. وعرفه أبو نصر القشيري: (التفسير مقصور على الاتباع والسماع والاستنباط مما يتعلق بالتأويل)[1].

والذي يدقق النظر في التعاريف سالفة الذكر سيجد أن تعريف البغوي والكواشي هو أفضلها، لوضوح معالمه، وتلائمه مع كتاب الله عز وجل. وعليه يكاد أن ينعقد اجماع المتأخرين على أن (التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوع لدليل يقترن به التأويل)[2] ولذلك فعلى المؤول وظيفتان هما:

١. بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه[3].

٢. بيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر[4].

المطلب الثالث: حاجة الناس إلى التفسير:

أولا: من أهداف نزول القرآن الكريم الدلالة على صدق النبوة والرسالة، أى أنه نزل ليكون المعجزة الكبرى للنبى ﷺ، ومعرفة أوجه إعجازه لا تتم إلا عن طريق تفسيره.

ثانيا: ومن أهداف القرآن الكريم كذلك، أن الله أنزله ليكون روحا لهذه الحياة، ونورا للناس يهديهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا، وفلاحهم فى الآخرة، أنزله ليكون منهج حياتهم فى أمور العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، وسائر شئون الدين والدنيا والآخرة، ولن يتأتى للأمم والجماعات والأفراد الرقى فى مدارج الكمالات إلا بالعمل بهذا القرآن، ولن يتأتى العمل به إلا بعد فهمه فهما

١- الإتقان، للسيوطي، ٤ / ١٩٤.

٢- مجموع الرسائل، ابن تيمية: ٢ / ١٧: شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، لابن أبي العز، دار المعارف، مصر ١٣٧٣هـ: ١٥٤.

٣- مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٣ / ٢٨٨.

٤- المصدر السابق.

صحيحا، وهذا الفهم الصحيح لا يتأتى إلا بتفسير القرآن.

ثالثا: معلوم أن العلوم تنقسم إلى علوم دنيوية، وعلوم شرعية، والعلوم الدنيوية يتوقف الانتفاع بها على الوجه الأكمل والأصلح للبشرية على العلوم الشرعية، والتخلق بالآداب الإلهية، وإلا كانت دمارا للبشرية، وهذا ما نراه فى عصرنا، حينما تحللت تلك العلوم من الأخلاق الربانية، فكانت نقمة ووبالا على أهلها، وعلى الدنيا كلها، والعلوم الشرعية متوقفة أيضا بدورها على القرآن الكريم، والقرآن الكريم لا يمكن الاستفادة منه -كما ذكرنا- إلا بتفسيره، فثبت من هذا أن كل كمال دينى أو دنيوى متوقف على تفسير القرآن الكريم[1].

المطلب الرابع: أقسام التفسير

يقسم التفسير أقساماً متعددة ترجع لاعتبارات معينة كالآتي:

١- وينقسم التفسير باعتبار معرفة الناس له إلى أربعة أقسام:

وهذا ما روى عن ابن عباس أنه قال: (التفسير أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العامة وتفسير لا يعلمه إلا الله فمن ادعى علمه فهو كاذب)[2].

فالتفسير الذي تعرفه العرب هو الذي يرجع إلى معرفة اللغة والإعراب والمفسر لا بد له أن من اطلاع واسع وعميق على معاني اللغة وقواعدها الإعرابية[3].

أما التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو اللفظ الذي يفيد معنى واحداً جلياً لا يخفى على أحد ولا يلتبس تأويله، فكل إنسان حينما تطرق مسامعه الآية الكريمة: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، يتبادر لذهنه أنه لا شريك

١- الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة، ٢٤٢، ٢٤٣.

٢- مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ١٣ / ٣٨٤، وينظر: الإتقان، للسيوطي: ٤ / ١٨٨.

٣- ينظر: الإتقان، للسيوطي: ٤ / ١٨٩، مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٤٧٨.

لله في الألوهية، وكذلك إدراكنا الأمر الوارد بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣] فمثل هذا لا يعذر أحد بجهالته؛ لأنه معلوم بالضرورة[١].

أما التفسير الذي يعرفه العلماء فهناك ألفاظ تحتمل معنيين فصاعدا فهذا لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه. وعلى العلماء اعتماد الدلائل والشواهد في معرفته، وليس لهم أن يعتمدوا على رأيهم الذي لا يدعمه شاهد ولا يعززه برهان، وهذا يغلب عليه إطلاق لفظ التأويل[٢].

أما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو الذي يخص الأمور التي استأثر الله بعلمها والتي تخص الغيب، كقيام الساعة، وتفسير الروح، والحروف المقطعة والمتشابه وغير ذلك[٣].

٢- ويقسم التفسير باعتبار مذاهبه إلى:

أ- تفسير بالمأثور: وهو ما ورد بكتاب الله العزيز أو السنة الشريفة أو أقوال الصحابة ﷺ ما يوضح ويبين ويكشف مراد الله جل ثناؤه[٤]. ومثاله قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ٢ -٣] فكلمة - النجم الثاقب - وضحت وبينت معنى كلمة - الطارق - التي سبقتها وأمثال هذا كثير لمن يتدبر القرآن الكريم.

ب-تفسير بالرأي: وهو تفسير القرآن العظيم بالاجتهاد الذي يعتمد جميع الشروط اللازمة التي يجب الاستناد إليها[٥].

١- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٤ / ١٨٩، مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٤٧٨ - ٤٧٩.

٢- ينظر: الإتقان، للسيوطي، ٤ / ١٩٠، مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٤٧٩.

٣- ينظر: المصدران السابقان.

٤- ينظر: مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٤٨٠، التفسير والمفسرون: ١ / ١٥٢.

٥- مناهل العرفان، للزرقاني، ١ / ٥١٧، التفسير والمفسرون: ١ / ٢٥٥.

٣- التفسير من حيث جوازه وعدم جوازه ينقسم إلى:

أ- جائز: وهو الذي يسلك فيه المفسر الشروط الموضوعة دونما إخلال أو تفريط بأي منها قال عبد الله بن المبارك ﷺ (ليكن الذي تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي لك الحديث، وهذا هو الفهم الذي يخص الله سبحانه به من يشاء)[١].

ب- غير جائز: وهو الذي لا يسير المفسر به على هدى الشروط بل يتبع الهوى ويحمل الآيات ما لا تحتمل وبدون برهان ولا دليل، وقد حذر الخليفة الراشد الفاروق عمر ﷺ عن هذا بقوله: (إياكم والرأي فإن أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا في الدين برأيهم)[٢]، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]، فالآية أفادة شيئين أما الاستجابة لله ورسوله، وأما اتباع الهوى من غير دليل، ولا يخفى أن الأول محمود والثاني مذموم[٣].

المطلب الخامس: شروط المفسر وآدابه

ولما كان القرآن الكريم لا تنهض إلى استقصاء معانيه فهوم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، حتى لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه.

فلقد ساق العلماء هنا لتيسير فهم القرآن وتفسيره على طالبي فهمه ومفسريه ما يعد في جانب منه علومًا مكتسبة في قلوبهم، وفي جانب آخر مواهب وملكات في نفوسهم، وفي جانب ثالث آدابًا وأخلاقًا لهم اشترطوا تحصيلها ضرورة قبل

١- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م: ١ / ٨٢، وينظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، إدارة الطباعة المنيرية: ٢ / ١٣٧.

٢- إعلام الموقعين: ١ / ٥٥، وينظر: جامع بيان العلم وفضله: ٢ / ١٣٥.

٣- ينظر إعلام الموقعين: ١ / ٤٧.

الخوض في تفسير كلام الله تعالى، والكشف عن مراده فلله تعالى - كما قال الغزالي - مواهب جعلها أصولاً للمكاسب، فمن وهبه عقلاً يسر عليه السبيل، ومن ركب فيه خرقًا نقص ضبطه من التحصيل، ومن أيده بتقوى الاستناد إليه في جميع أموره علمه وفهمه[1].

ومن هذه الشروط:

١. أن يكون عالمًا بظاهر التنزيل، عارفًا باختلاف القراءات وما يختلف به المعنى وما لا يختلف.

٢. أن يحفظ أقاويل المفسرين من السلف والخلف، فإن ذلك أهدى له فيما يريده وأدنى إلى الصواب فيه، وقد شنع العلماء على من يزعم لنفسه الاستقلال بالتفسير ويدعى استغناءه عما سبق من أقوالهم.

٣. أن يعرف الأقاصيص والأخبار، وشأن نزول الآيات ليحمل كل آية على ما تقتضيه قصة نزولها، والعلم بالناسخ والمنسوخ، إذ إن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل ومنه ما لا يتوقف عليه، ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر.

٤. أن يكون عارفًا بلغة العرب وطريقة النحو والإعراب، وهو باب واسع ينتظم علوم العربية، ابتداء مما تجب البداءة به من تحقيق الألفاظ المفردة، وتحصيل معانيها، ويدخل في ذلك علم اللغة والاشتقاق والتصريف، وكيفية أداء التركيب للمعنى ودرجة وضوحه وبيانه، وأسرار فصاحته وجماله وإعجازه.

٥. أن يكون عالمًا بأصول العقيدة والفقه وأحكام الشريعة من العبادات والمعاملات والسنن الواردة في ذلك كله، ليضع الآيات التي تنتظم هذه الأصول والأحكام مواضعها.

١- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٦، ٥.

٦. أن يكون عالمًا بأبواب السر من الإخلاص والتوكل والتفويض والأذكار الباطنة، وما يصلح الأعمال ويفسدها. وآفات الدنيا ومعايب النفس وسبيل التوقي من فسادهما ليتأتى له تفسير الآيات المنتظمة لهذه المعاني، فكتاب الله فهمه دقيق لا يصل إليه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأجله عن مواقف الشبهات[١].

٧. أن يكون جيد القريحة، ذكي الفهم، قوي الفكرة؛ فإن البليد قد يتقاعد عن فهم ما يبين له، فكيف يستنبط ما لم يبين له، فأصل الوقوف على معاني القرآن هو التدبر والتفكر، والعمل بما علم[٢].

٨. أن يكون من أهل الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فمن رغب في الدنيا، انصرفت همته إليها وسيكون ما يسبق إلى قلبه من وجود ما يريد أن يتكلم فيه على وفاق ما في همته، وما أخوفه إذ ذاك أن يصرف كتاب الله تعالى إلى ما تهوى نفسه فيضل بنفسه ويضل غيره[٣]. وقد قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٩. أن يكون مفوضًا أمره إلى الله تعالى، متضرعًا إليه أن يلهمه الرشد والتوفيق محاذرًا الإعجاب بنفسه والاتكال على عقله وجودة قريحته، فإن المعجب مخذول، والمتكبر مصروف كما قال الله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

١- مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفري ص ١٧٤.

٢- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢ / ١٨٠.

٣- مقدمتان في علوم القرآن، ص١٧٥.

المبحث الثاني: مصادر التفسير وأهم المؤلفات فيه:

المطلب الأول: تفسير النبي ﷺ للقرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات كثيرة يفهم منها أن الله جل جلاله هو المبين الأول للقرآن مثل قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [١٨٧-البقرة].

ولما كان القرآن نزل باللغة العربية، وهي لغة الرسول ﷺ، فقد اقتضى هذا أن يكون الرسول ﷺ أدق فهمًا وأشمل ادراكًا لما أمر به، ولهذا نجد الصحابة يسألون الرسول ﷺ عن بيان ما خفي عليهم من القرآن ويرجعون إليه في تفسير ما صعب عليهم فهمه.

ويمكن القول بعد هذا، أن الرسول ﷺ هو المفسر الأول -بعد الله عز وجل- للقرآن الكريم فحين نزل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [٨١-٨٢ الأنعام] قال الصحابة: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ أينا لم يظلم نفسه؟ ففسر النبي ﷺ لفظ الظلم بأنه: الشرك[١].

واستدل عليه بقوله تعالى ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولم يكن الرسول ﷺ يألو جهدًا في تصحيح أفهام الصحابة، أو يتحرج من توضيح ما يشكل فهمه عليهم مرة بعد الأخرى.

١- والحديث في صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)، ٦ / ١١٤، ح٤٧٧٦.

مثال ذلك:

ما أخرجه الشيخان ﷺ عن عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ[1].

فقد فهم عدي بن حاتم من لفظ الآية أن المقصود به العقال الأبيض والأسود فبين له النبي ﷺ أن المراد من البياض والسواد بياض الصبح وسواد الليل، وبذلك يزول اللبس.

وهذا أبو بكر يغرب عليه المعنى في بعض الآيات فيقربه له الرسول ﷺ يقول أبو بكر ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ جُزِينَا بِهِ، قَالَ: «غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»، قَالَهُ ثَلَاثًا، يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ[2]؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ فِي الدُّنْيَا[3].

هل فسر الرسول ﷺ جميع القرآن؟

لكن هل معنى ما تقدم أن الرسول ﷺ، قد بيّن لأمته كل القرآن لفظًا لفظًا، وآية آية كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؟ وإذا كان الرسول قد بيّن لأمته بعض ما خفي عليهم

١- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب قوله تعالى]وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ من الْخَيْطِ الأَسْوَدِ...[، ٢ / ٦٧٧، ح١٨١٧.

٢- اللَّأْوَاءُ: الشدة والمشقة وقيل: القحط. المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، ١٠ / ٤٤٦.

٣- المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم - أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه - توضيح معنى من يعمل سوءا يجز به، ٣ / ٧٥، ٤٤٧٦

من ألفاظ لغتهم -كما رأينا- فهل يعقل أن يكون قد ترك لفظًا أو آية من كتاب الله دون أن يبيّنها لهم؟

لقد تعرض كثيرون لهذه القضية، ويقف ابن تيمية(٧٢٨هـ) على رأس من يقول: إن الرسول ﷺ بيّن لصاحبته القرآن كله، يقول: «يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ[1]».

ويسوق السيوطي ما يمكن أن يكون دعمًا لما ذهب إليه ابن تيمية، فيقول: «ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجة عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إِنَّ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ آيَةُ الرِّبَا[2]».

وإن كان رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها، دل فحوى هذا الكلام على أنه كان يفسر لهم كل ما أنزل، وأنه لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجهه.

ومع أن السيوطي يقرر رأي ابن تيمية في أكثر من موضوع، إلا أن له رأيًا آخر، فقد صرح بأن الذي صح من التفسير الكثير المنسوب إلى النبي ﷺ قليل جدًا، بل إن أصل المرفوع منه في غاية القلة، وقال مبينًا مدى حاجة الناس إلى التفسير بعد عصر الصحابة: «ونحن محتاجون إلى ما كانوا محتاجون وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدار أحكام اللغة

١- مسند أحمد، ١٠ / ٥٥٣٨، مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية ص ٥ -٦.

٢- مسند أحمد، ١ / ٣١٢، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف، لانقطاعه. سعيد بن المسيب عن عمر: مرسل، الإتقان، للسيوطي، ١ / ١٠١.

بغير تعلم، فنحن أشد احتياجًا إلى التفسير، ومعنى هذا أن القرآن لو كان مبينًا كله من الرسول ﷺ لصحابته ما ظهرت حاجة الناس بعدهم إلى التفسير، بل ما زادت هذه الحاجة على حاجة الصحابة.

والواقع أن النبي ﷺ بيّن الكثير من معاني القرآن لصحابته، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن.

لأن مراتب التفسير أربعة كما قال ابن عباس:

١- وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢- تفسير لا يعذر أحد بجهالته.

٣- وتفسير تعرفه العلماء.

٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله.

وبدهي أن ما تعرفه العرب من كلامها، وهو ما يرجع فيه إلى لسانهم من معاني الألفاظ والإعراب لم يفسره لهم رسول الله ﷺ، كما لم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه، ولا يعذر أحد بجهالته من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد؛ لأنه لا يخفى على أحد إدراك الطلب من قوله: «أقيموا الصلاة» أو إفادة التوحيد من قوله: «فاعلم أنه لا إله إلا الله» كما لم يفسر لهم أيضًا ما أستأثر الله بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح، والمغيبات التي لم يُطلع الله عليها نبيه، وإنما فسر لهم بعض المغيبات التي أطلعه الله عليها وأمره ببيانها، وما يعلمه العلماء، ويرجع إلى اجتهادهم كبيان المجمل، وتخصيص العام وتوضيح المشكل وما إلى ذلك من كل ما خفا معناه، والتبس المراد به.

وننتهي من هذا إلى أن الرسول ﷺ لم يفسر آيات القرآن كلها، أو حتى معظمها، كما أدركه الرافعي إذ يقول: «لو كان ﷺ فسر للعرب بما تحتمله وتطيقه أفهامهم لجمد القرآن جمودًا تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها، فإنّ

كلام الرسول نص قاطع ، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية، فتأمل حكمة ذلك السكوت، فهو إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأسه، والقرآن كتاب كل عصر، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز[1].

المطلب الثاني: تفسير الصحابة للقرآن الكريم:

قلنا من قبل إن الصحابة قد فهموا القرآن الكريم إجمالاً، وبعضهم استشرف لمعرفة تفصيلاته من رسول الله ﷺ، وأقل منهم من رزق الفهم الصحيح بعد - البحث والنظر، وليس هذا التفاوت بقادح في أذهان الصحابة وصحة فهمهم للقرآن الكريم عامة: إذ أنه راجع إلى اللغة نفسها. وهي من أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا ولا يحيط بها غير النبي المعصوم، ولا بأس بغروب بعض ألفاظها على بعض الصحابة ما دام ذلك لا يذهب على عامتهم كما يقول الشافعي[2].

ومن الطبعي أن تختلف حظوظ أهل اللغة في فهمها وإدراك أسرارها وليس بمقدور قوم أن يفهموا كل ما يكتب بلغتهم من العلوم على حد سواء، لذلك لم يكن الصحابة -رضي الله عنهم- على درجة واحدة في العلم والمعرفة في فهم القرآن، فما يشكل على بعضهم، يكون واضحًا جليًا عند غيرهم، وما يخفى من الألفاظ على هؤلاء، يكون ظاهرًا عند أولئك، ولم يخرج عن هذا كبار الصحابة والقريبون من الرسول ﷺ.

يروى سعيد بن المسيب، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: «أيها الناس ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧] فسكت الناس، فقال شيخ من هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف: التنقص، فخرج رجل

١- إعجاز القرآن للرافعي، ص١١-١٧٣، ط الاستقامة، سنة ١٩٦٢م، بحوث في الدين والوحي والقرآن - د. محمد بلتاجي، ص٢٢٢.

٢ ٢٠٤هـ)، تحقيق د. أحمد الفرَّان ط دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م، ٢ / ١٠١٦.

فقال: يا فلان ما فعل دينك؟ قال تخوفته أي تنقصته، فرجع، فأخبر عمر، فقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها:

تَخَوَّفَ الرَحْلُ مِنْهَا تامكا قَرِداً... كَمَا تَخَوَّفَ عُود النَبْعَةِ السُّفُنُ[1].

وعن مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول أنا ابتدأتها[2].

وأظهر ما يدل على تفاوت فهمهم -أي الصحابة- لنصوص القرآن ما روى أن الصحابة فرحوا عند نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، حيث ظنوا أنها إخبار وبشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكي وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرًا نعي النبي ﷺ[3].

روى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول[4].

١- تفسير القرطبي، ١٠ / ١١٠.

٢- البرهان، الزركشي، ١ / ٢٩٣.

٣- الموافقات، للشاطبي، ٣ / ٣٨٤.

٤- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، ٦ / ١٧٩، ح ٤٩٧٠.

ولقد أعان بعض الصحابة على فهم القرآن أمور:

أولا: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانيا: معرفة عادات العرب.

ثالثا: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعا: قوة الفهم وسعة الإدراك.

خامسًا: معرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية.[1]

المطلب الثالث: تفسير التابعين وبدء التدوين في التفسير

ويأتي بعد الصحابة، المفسرون من التابعين، وأشهرهم من كانوا عماد المدارس الثلاث بمكة والكوفة والمدينة، بالإضافة إلى مفسري المدرسة المصرية الذين لم يشتهروا مثل غيرهم كعطاء بن دينار الهذلي (ت ١٢٦هـ) وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ) وغيرهما.

وقد اعتمد هؤلاء في فهمهم للقرآن وتفسيره على ما تلقوه من الصحابة، وما أضافوه إلى ذلك من أهل الكتاب الذين رجعوا إليهم كثيرًا، ثم ما فتح الله به عليهم من النظر الصادق في كتابه الكريم، وقد حفظت كتب التفسير قدرًا هائلاً من تفاسير هؤلاء، ولا شك أن تطور الزمن كان يضفي بعضًا من الغموض على ما كان واضحًا من الآيات قبل ذلك للسابقين، ومن هنا وجدنا لهؤلاء أقوالاً مستقلة، تفردوا بها عن أساتذتهم، وقد أعانهم على ذلك قرب عهدهم بالنبوة والصحابة، ثم عدم فساد سليقتهم اللغوية.

١- تفسير ابن عطية١ / ١٢، التفسير والمفسرون١ / ٤٥.

ولما كان ابن عباس نسيجًا وحده في التفسير، فقد وجدنا أن تلاميذه هم أعلم الناس بالتفسير من التابعين، يقول ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولي ابن عباس، وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود[1]، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن، ومالك بن أنس، بالإضافة إلى من اشتهر في التفسير ممن ينتمون إلى مدرسة مصر التفسيرية كعطاء بن دينار وعبد الله بن وهب المصريين وغيرهم.

وتعد هذه المرحلة من أهم مراحل التفسير؛ إذ وضعت فيها بذور المذاهب الإسلامية، من نزوع إلى العقل في فهم الآيات وتفسيرها، إلى تصرف في اللغة وإيغال في التأويل، وقد وجدنا هذا في مدرستي مكة والمدينة، بالقدر الذي وجد في مدارس - الكوفة والعراق ومصر بعامة، وإن اختلف الأساس الذي بنى عليه هذا الفهم في كل مدرسة على حدة، وقد حدث هذا نتيجة تطور المجتمع الإسلامي، بازدياد العناصر الجديدة الداخلة في الإسلام، في الوقت الذي بدأ التحرج الديني يخف أثره على الباحثين في القرآن، مع ما صاحب ذلك من اختلاف المسلمين السياسي، وفزع كل منهم إلى القرآن للاستدلال على ما ذهب إليه، كما دخل التفسير في هذه المرحلة كثير من الأباطيل والخرافات لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب وغيرهم، وتساهل بعض التابعين في التلقي عنهم دون تحفظ ومراجعة، كما كان يفعل الصحابة، وأكثر من روى عنهم في هذا المجال كعب الأحبار ووهب بن منبه، بالإضافة إلى ما روى عن عبد الله بن سلام وتميم الداري، وقد وجد هؤلاء كثيرًا ممن يحمل عنهم أمثال السدى الكبير، ومقاتل والكلبي والضحاك، والسدى الصغير وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وغيرهم من أتباع التابعين، ومما ساعد على رواج هذه الأباطيل: القصاص

١- مثل علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، ثم الحسن البصري، وقتادة بن دعامة وعامر الشعبي، وغيرهم. التفسير والمفسرون، للذهبي، ٣/ ٨.

والوعاظ بالمساجد، ولم يسلم من نسبتها أئمة ورعون كالحسن البصري بالكوفة، ومحمد بن كعب القرظي بالمدينة.

وشهدت هذه المرحلة أيضًا محاولات فردية في تدوين التفسير، وإن ظل محتفظًا بطابعه في عهد الصحابة من الرواية والتلقي الشفهي مثل الحديث، مع أخذه طابع الاختصاص، وسوف نقف قليلاً مع بعض المفسرين منهم ممن رأيناهم يمثلون مدارسهم التفسيرية خير تمثيل، أو تبرز في كل منهم خصائص هذه المدرسة واضحة جلية.

ومن أشهر مفسري التابعين: مجاهد بن جبر (المكي)، عكرمة أبو عبد الله البربري مولى ابن عباس، الحسن البصري، قتادة بن دعامة السدوسي، سعيد بن المسيب، أبو العالية الرياحي.

ومن المدرسة المصرية يأتي: عطاء بن دينار الهذلي، عبد الله بن وهب.

المبحث الثالث: أهم المؤلفات في التفسير:

المطلب الأول: أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور (المنقول)

١- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: والمعروف بتفسير الطبري: للإمام المفسر المؤرخ المحدث أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، نسبة إلى طبرستان (٢٢٤-٣١٠هـ) وهو أوثق وأقدم ما دون في التفسير بالمأثور[١]، كما أنه من أهم المصادر في التفسير بالمعقول، لما فيه من الاستنباطات العلمية الدقيقة، وتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، مما يدل على حسن النظر وعمق البحث، وقال الإمام النووي: (أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير

١- المقصود بالتفسير بالمأثور: يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول ﷺ، وما نُقِل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه. التفسير والمفسرون، للذهبي، ٤ / ٥.

الطبري)[1]. والكتاب مطبوع متداول.

٢- **معالم التنزيل**: للمحدث الفقيه المفسر أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي (المتوفى سنة ٥١٠هـ) وصف الخازن هذا التفسير في مقدمة تفسيره بأنه (من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها، جامع للصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرز بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرج بأوضح العبارات، مفرغ في قالب الجمال بأفصح مقال)[2] وقال ابن تيمية في تفسير البغوي (مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة)[3]. وهو مطبوع متداول.

٣- **تفسير القرآن العظيم**: للإمام الحافظ المحدث المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري الدمشقي الشافعي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ). من أشهر ما صنف في التفسير بالمأثور، وهو المرجع الثاني -في التفسير بالمأثور- بعد تفسير الطبري، وقد اعتمد ابن كثير في تفسيره على تفسير القرآن بالقرآن ثم بالحديث وما ورد عن الصحابة والسلف، وكثيرًا ما يشير إلى ضعف بعض المرويات في تفسير بعض الآيات، ويرجح بعض الأقوال على غيرها، ويوجه بعض الأدلة، ويبين المنكرات والإسرائيليات وغير ذلك، وذاع صيت هذا الكتاب بين أهل العلم، وتداولته الأيدي وصار مما لا غنى لمشتغل بالتفسير عنه. طبع أكثر من مرة.

١- ينظر الإتقان، للسيوطي، ٢ / ١٩٠، والتفسير والمفسرون، للذهبي، ١ / ٢٠٨.

٢- التفسير والمفسرون، ١ / ٢٣٦.

٣- ينظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص١٩، التفسير والمفسرون١ / ٢٣٦١، والثعلبي الذي ذكره ابن تيمية هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (- ٤٢٧هـ) وتفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٢١). طبقات المفسرين للسيوطي، ص٢٨.

وقد اختصره الأستاذ أحمد محمد شاكر اختصارًا دقيقًا، اجتهد في المحافظة على مزاياه وسماه (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير).

٤- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي الشافعي (٨٤٩-٩١١هـ)، جمع السيوطي فيه ما ورد عن السلف في التفسير، فأخرج فيه عن البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وأبي داود والطبري وغيرهم، ولم يتصد للترجيح أو التعقيب، كما أنه لم يبين الصحيح من الضعيف، والكتاب جيد جامع، لم يخرج عن طريقة التفسير بالمأثور، إلا أنه بحاجة إلى بيان ما ضعف من المنقول. طبع الكتاب عدة طبعات مختلفة.

وهناك كتب كثيرة في التفسير بالمأثور لا يتسع المقام للتفصيل فيها.

المطلب الثاني: أهم المؤلفات في التفسير بالرأي (بالمعقول)[١]

١- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: للإمام أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الملقب بجار الله (٤٦٧-٥٣٨هـ)، وقد اشتهر هذا التفسير بين أهل العلم بالكشاف وهو من أشهر تفاسير المعتزلة، وإذا نظرنا إلى هذا التفسير بعيدًا عما فيه من الاعتزال حكمنا أنه: لم يسبق مؤلفه إليه لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس

١- والمقصود من التفسير بالرأي - التفسير المحمود عند العلماء، لا التفسير المذموم- تفسير القرآن الكريم في ضوء معرفة المفسر للقرآن الكريم والسنة الطاهرة مجتهداً فيما لم يرد فيه تفسير بالاستعانة بمناحي أقوال العرب وألفاظ العربية، ووجوه دلالتها، واستعمال العرب لها في مختلف تلك الوجوه في أشعارهم وخطبهم، هذا إلى جانب جميع الخصائص التي يجب أن تتوافر في المفسر من معرفة كتاب الله وناسخه ومنسوخه وأسباب النزول، والقراءات، إلى جانب تبصره بالعربية وعلومها، والفقه وأصوله وغير ذلك، وليس المقصود من التفسير بالرأي-التفسير بالهوى وفق الميول والشهوات كما تفعل بعض الفرق الضالة وبعض المنحرفين.

كالزمخشري مَن يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوبًا جميلاً لفت إليه أنظار العلماء وعلق به قلوب المفسرين[1]، وقد استفاد من تفسير الزمخشري جلّ المفسرين الذين جاؤوا بعده حتى من كان من أهل السنة، ولولا المسائل الإعتزالية التي فيه، ولولا تلك الروح الغالبة عليه، لكان هذا التفسير في طليعة التفاسير الكبرى لما فيه من الفوائد الجليلة، في مختلف العلوم[2].

ومما تجب الإشارة إليه أنه ذكر في نهاية كل سورة حديثًا في فضلها وثواب قارئها إلا أن جل ما ذكره ضعيف أو موضوع. وقد طبع هذا التفسير في أربعة أجزاء كبيرة، وطبع على هامشه عدة كتب، منها كتاب (الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف) للإمام شيخ الإسلام شهاب الدين ابن حجر العسقلاني (٨٢٥هـ). وذلك سنة (١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م). ولهذا التفسير طبعات أخرى متنوعة.

٢- **مفاتيح الغيب**: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ)، هذا التفسير كبير ضخم، في اثنين وثلاثين جزءًا، يعد من أكبر كتب التفسير بالرأي، وهو كتاب جليل جامع، يمتاز على غيره بالأبحاث الفياضة في شتى العلوم، يذكر مناسبة السورة مع غيرها، ويذكر المناسبات بين الآيات[3] كما يكثر من الاستطراد في العلوم الكونية... وعلم الكلام، ويعرض لأقوال الفلاسفة ويناقشها ويردها بما يتفق ومذهب أهل

١- التفسير والمفسرون، ١/ ٤٣٣.

٢- ينظر: المصدر السابق، ١/ ٤٥٤.

٣- ينظر على سبيل المثال سورة الفاتحة في تفسير (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين).

السنة (منتصرًا للأشاعرة)[1]، ويكثر الاستنباط والكشف عن أسرار الآيات، ولا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويعطيها حقها من البحث، ويذكر مذاهب الفقهاء واستنباطاتهم وأدلتهم، وقد يذكر بعض المسائل الأصولية والنحوية والبلاغية ويتوسع فيها توسعًا غير مخل، ويفند مذاهب وأقوال بعض الفرق الضالة في مواضعها، ... وغير ذلك مما رأى الرازي أنه يستوفي الغرض المطلوب من تفسيره.

وقد شاع لدى الكثيرين أن المنية اخترمت الإمام الرازي قبل أن يتم تفسيره، فأتمه بعض من جاء بعده، متبعًا أسلوبه ومنهجه، من غير أن يشير إلى الموضع الذي انتهى إليه الرازي.

إلا أن الإمام العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله دلل على أن التفسير كاملا ينسب إلى الإمام الرازي[2].

طبع الكتاب كاملاً مرارًا وحقق إحدى طبعاته الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد سنة (١٣٥٢هـ).

٣- البحر المحيط: للإمام النحوي المفسر أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف ابن علي (ابن حيان) الأندلسي الشهير بأبي حيان(٦٥٤ - ٧٤٥هـ) يعد هذا الكتاب المرجع الأول للوقوف على وجوه إعراب ألفاظ القرآن الكريم، حتى إنه أكثر من المسائل النحوية وذكر الخلاف بين أهلها، ولم يقصر

١- إنه لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة - فيذكر أقوالهم ويفندها ويرد عليها، ويستفرغ وسعه في عرض دليل الخصم ومذهبه، ثم يرد عليه، ولكن بعضهم يرى أن رده لا يكون كافياً شافياً. ينظر لسان الميزان، لابن حجر ص ٤٢٧ جـ٤ وقارن بالتفسير والمفسرون ٢٩٤جـ١. وقال ابن تيمية في صنيع الرازي: (.. وينصر الإسلام وأهله في مواضع كثيرة، كما يشكك أهله، ويشكك غير أهله في أكثر المواضع. وقد ينصر غير أهله في بعض المواضع، فإن الغالب عليه التشكيك والحيرة أكثر من الحزم والبيان. مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٦ / ٢١٣-٢١٤.

٢- التفسير ورجاله، الطاهر بن عاشور، سلسلة البحوث، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧: ١٠٥-١٠٦.

أبو حيان في ذكر وجوه القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، ومذاهب الفقهاء، وأقوال السلف، وكثيرًا ما يحيل إلى كتب الفقه والنحو، ويذكر ما في الآيات من علم البيان والبديع، فيبدأ بذكر مفردات الآية جملة، ويبين جميع ما أسلفنا من نحو وفقه وبيان... ثم يشرحها بعبارة موجزة بليغة، كما أنه ينقل أحيانًا عن بعض مؤلفات من سبقه، فجاء تفسيره جامعًا(٣).

٤- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير**؛ للإمام المحدث المفسر الفقيه محمد بن علي محمد الشوكاني الصنعاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ).

وهذا الكتاب من أحسن الكتب التي جمعت بين التفسير بالدراية والتفسير بالرواية(٤)، ويعد أصلاً من أصول التفسير، وقد استفاد من كتب السابقين وأضاف عليها، واجتهد في بعض المسائل، وخالف بعض العلماء فيها، وطريقته في التفسير أنه يذكر الآيات، ثم يفسرها تفسيرًا معقولاً، وكثيرًا ما ينقل عن أصحاب كتب التفسير، ويذكر القراءات المتعددة وقراءها، كما يعتمد على أقوال اللغويين وينقل عنهم ويتعرض لإعراب كثير من الألفاظ ويذكر مذاهب الفقهاء في آيات الأحكام وأدلتهم، والترجيح بينها وهو أهل لذلك، ويذكر الأحاديث والأخبار التي وردت عن الرسول ﷺ وعن السلف في تفسير تلك الآيات. ومما يؤخذ عليه أنه يذكر بعض الأخبار الضعيفة ولا يبين درجتها، إنما يترك ذلك للقارئ، وليته نص على درجتها - وهو من

٣- طبع الكتاب الطبعة الأولى في ثماني مجلدات كبيرة سنة (١٣٢٨ - ١٣٢٩هـ) في مطبعة السعادة بمصر وطبع على هامشه تفسيران موجزان (النهر الماد من البحر) لأبي حيان و (الدرر اللقيط من البحر للمحيط) لتلميذ أبي حيان الإمام تاج الدين أبي محمد أحمد بن عبد القادر القيسي النحوي (٦٨٢ - ٧٤٩هـ).

٤- عد بعض المؤلفين هذا الكتاب في جملة كتب التفسير التي صنفها علماء الزيدية من الشيعة، ولكنك لن ترى فيه ما يخرج عن عقيدة السلف، ولن ترى فيه أي تعصب للزيدية، وقد أشار الأستاذ محمد حسين الذهبي إلى أن هذا الكتاب لا يعطي الصورة الواضحة للتفسير عند الزيدية. ينظر التفسير والمفسرون ص٢ / ٢٩٩.

أهل الحديث - ليسهل على القارئ معرفة حقيقتها ودرجتها، هذا إلى جانب سكوته عن بعض أخبار لم تثبت عند أهل السنة، وهي لا تخفي على أهل العلم. ومع هذا فالكتاب قيم يسد فراغًا كبيرًا في المكتبة الإسلامية، لما جمع من الميزات الكثيرة التي لم تجتمع كاملة في غيره من التفاسير. طبع الكتاب في خمس مجلدات بمصر وتكرر طبعه.

وإذا انتهى بنا المطاف عند هذا القدر من أمهات كتب التفسير، فلا بد لنا من أن ننوه بأن هناك مؤلفات كثيرة لم نذكرها مخافة الإطالة، وهي جليلة وكثيرة، كتفسير البيضاوي[١]، وتفسير النسفي[٢]، وتفسير الخازن[٣]... وتفسير النيسابوري[٤]... وتفسير الجلالين[٥]... وغيرها.

١- المسمى بـ (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لقاضي القضاة، ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي المتوفى سنة (٦٩١هـ) وقيل غير ذلك. وهو تفسير جليل جمع بين التفسير والتأويل على أصول اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على منهاج أهل السنة والجماعة وقد استفاد من كتب السابقين. طبع الكتاب عدة مرات، كما طبع على هامش الخطيب الشربيني بالمطبعة الخيرية بمصر.

٢- المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - نسبة إلى نسف من بلاد ما وراء النهر- الحنفي المتوفى سنة (٧٠١هـ)، استفاد النسفي من مصنفات السابقين وأحسن العرض والبيان، فخرج كتابه جليلاً، سهلاً، دقيقاً وصار بين الناس متداولاً مشهوراً. طبع في أربعة أجزاء متوسطة.

٣- المسمى بـ (لباب التأويل في معاني التنزيل) للشيخ علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الشافعي المعروف بالخازن (٦٧٨ - ٧٤١هـ)، اختصر الخازن كتابه من كتاب معالم التنزيل للبغوي، وضم إليه بعض ما نقله من تفاسير المتقدمين، طبع الكتاب في سبعة أجزاء متوسطة. وهو متداول مشهور.

٤- للإمام الحافظ المفسر المقرئ، نظام الدين الحسن بن محمد الحسين الخرساني النيسابوري المتوفى في القرن الثامن من الهجرة، المسمى بـ (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) اختصر النيسابوري في كتابه هذا تفسير الفخر الرازي وهذبه، وضمنه بعض ما جاء في تفسير الزمخشري وغيره من كتب السابقين، إلى جانب مرويات الصحابة والتابعين، وأعمل الفكر في كل هذا وعرضه بأسلوب سهل، وعبارة مشرقة، وحقق كثيراً من المسائل واستدرك فيها على الرازي كما استدرك على الزمخشري، طبع عدة طبعات.

٥- اشترك في تصنيف هذا التفسير الإمام جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي (٧٩١ - ٨٦٤هـ)=

أسئلة للمناقشة

١. س: عرّف التفسير، والتأويل لغة، واصطلاحًا.

٢. س: بيّن أقسام التفسير عند ابن عباس.

٣. س: ما المراد بالتفسير بالمأثور؟

٤. س: اذكر بعض مصادر التفسيربالمأثور.

٥. س: للتأويل في اللغة معان عدة منها ....، ....، ....

٦. س: ما وظيفة المؤول ؟

٧. س: ما الشروط التي يتوجب أن تتوفر في المفسر قبل أن يقدم على تفسير كتاب الله؟

٨. س: هل فسر النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم كاملاِ، وضح ذلك بالأدلة.

٩. س: اذكر مختصرًا مفيدًا عن أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور.

=والإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، فقد بدأ المحلي التفسير من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم فسر سورة الفاتحة، واخترمته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن الكريم، وجاء الإمام السيوطي بعده، فأتم تفسير ما لم يفسره المحلي، فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء على منهاج الإمام المحلي، وبهذا أكمل هذا التفسير بجهدي إمامين كبيرين من أئمة القرن التاسع ، فكان تفسيرهما لطيفاً موجزاً، اعتمد فيه المحلي والسيوطي أرجح الأقوال في التفسير، ونبه كل منهما على القراءات المختلفة والمشهورة، وأعربا ما يحتاج إلى إعراب، فكان تفسيراً مختصراً جامعاً شاملاً.



الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٨٥]، فقد أنعم علينا ووفقنا لإكمال هذا الكتاب، فله الحمد والمنة على ذلك.

وحيث إن علوم القرآن: هي مجموعة المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءاته، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وإعجازه، ... إلخ، فقد جعلنا عنوان هذا الكتاب (مباحث في علوم القرآن) وكان من أهم هذه المباحث التي تناولناها في هذا الكتاب الآتي:

- التعريف بعلوم القرآن والمؤلفات فيه.
- التعريف بالقرآن الكريم، وأسمائه، وأوصافه، والفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والنبوي.
- الحديث عن الوحي وكيفياته، وصوره، وتنزلات القرآن والحكمة من ذلك، ونزول القرآن على سبعة أحرف وأقوال العلماء في ذلك، وحكمه، وفوائده.
- البيان للمكي والمدني، وفوائدهما، وضوابطهما، ومقاصدهما.
- وبيّنا أسباب جمع القرآن الكريم وترتيبه، (ومراحل الجمع، وصفات كل مرحلة)، وترتيب الآيات والسور، الرسم العثماني.
- وتناولنا أسباب النزول، وبيّنا عناية العلماء به، وفصّلنا القول في قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب، فوائد.
- وعرّفنا المحكم والمتشابه، وبيّنا أقوال العلماء في ذلك، والحكمة من المتشابه.
- ووقفنا على الناسخ والمنسوخ، تعريفًا، وبيانًا لأقسامه وأنواعه، وحكمته.

- وتناولنا القصص القرآني، والمراد بها، وأنواعها، وبيّنا أن القصة القرآنية حقيقة لا خيال، نقد لمذهب هدام، ووقفنا مع المثل في القرآن الكريم، وأهميته، وأقسامه.
- وتطرقنا إلى القسم في القرآن الكريم، والغاية منه، وأنواعه، وتعريف الجدل، وأقسامه، وأوجهه، وطريق القرآن في الجدل.
- ووقفنا على فواتح وخواتيم السور، والمناسبات، وأهميتها، وأنواعها.
- وتناولنا تعريف إعجاز القرآن الكريم وبيّنا وجوه إعجازه.
- وأخيرًا وقفنا على علم تفسير القرآن، وتاريخه، وتطوره، مصادره، وأهم المؤلفات فيه.

وقد حاولنا في كل ما سبق أن نقدم المعلومة سهلة ومبسطة، كي يتمكن طلابنا الأعزاء من الاستفادة من كل ما قُدم، كما راعينا توثيق المعلومات لمن أراد الاستزادة، كل ذلك اشتمله منهج مبسط أكاديمي مرتب على حسب الأصول العلمية.

نضرع إلى الله عز وجل أن يحقق للمسلمين النجاح والتوفيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].



المصادر والمراجع

١. الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٢. الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٩١١هـ)، تحقيق سعيد المندوه، دار الفكر، لبنان، ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٣. الأحرف السبعة للقرآن، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: د. عبد المهيمن طحان، مكتبة المنارة - مكة المكرمة ط: الأولى، ١٤٠٨م.

٤. الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين على بن بلبان الفارس (٧٣٩هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٥. أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص(٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت١٤٠٥هـ.

٦. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي (ت٩٢٣هـ)، ط المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

٧. إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي بن محمد ابن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق- كفر بطنا، دار الكتاب العربي، ط الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٨. أسباب النزول، لأبي الحسن على بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي لنيسابوري(٤٦٨هـ)، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط الأولى ١٤٢٧هـ١٩٩٦م.

٩. الأسماء والصفات لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، ط الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

١٠. الإصابة في معرفة الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي ت (٨٥٢) هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١١. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد ابن أحمد بن عبد القادر الرافعي (ت١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٢. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين المستشرقين لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي ت(١٣٩٦)هـ، ط دار العلم للملايين، ط، الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

١٣. الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، لعياض بن موسى ابن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، (ت٥٤٤هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط الأولى، ١٣٧٩هـ - ١٩٧٠م.

١٤. الانتصار للقرآن للأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني، ط دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم - بيروت، ط الأولى١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، تحقيق د. محمد عصام القضاة.

١٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل لإمام المحققين ناصر الدين أبى سعيد عبدالله ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (٧٩١هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٦. أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، لقاسم بنَ عبد الله ابن أمير علي القونوي الرومي الحنفي (ت ٩٧٨هـ)، تحقيق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية ٢٠٠٤م-١٤٢٤هـ.

١٧. البحر المحيط لأبى حيان - أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن على ابن حيان الأندلسي (٦٥٤هـ)، مطابع النصر الحديثة - الرياض.

١٨. البداية والنهاية للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت(٧٧٤)هـ ط مكتبة المعارف، بيروت.

١٩. البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ت(٧٩٤)هـ ط، دار المعرفة، بيروت ١٣٩١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢٠. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا.

٢١. تأويل مشكل القرآن، للإمام أبي محمد عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت(٢٧٦) هـ، ط: دار الكتب العلمية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.

٢٢. التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني(٨١٦هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٣. تفسير الإمام الشافعي، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، تحقيق: د. أحمد بن مصطفى الفرّان، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، ط الأولى: ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م.

٢٤. تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٢٥. تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، لعبد الرحمن بن محمد ابن إدريس الرازي(٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب المكتبة العصرية، صيدا.

٢٦. تفسير عبد الرزاق، لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني (ت٢١١هـ)، دار الكتب العلمية، تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى، سنة ١٤١٩هـ.

٢٧. التفسير والمفسرون، د. محمد السيد حسين الذهبي (ت١٣٩٨هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة.

٢٨. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر(٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧هـ.

٢٩. تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت ٢٠٠١م، ط: الأولى، تحقيق: محمد عوض مرعب.

٣٠. التيسير في القراءات السبع ، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثانية، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٣١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير - تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف.

٣٢. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط الثانية ١٣٧٢هـ.

٣٣. جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، لأبي طاهر عبد القيوم لعبد الغفور السندي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة.

٣٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد ابن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٣٥. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، درا الفكر، بيروت١٩٩٣م.

٣٦. دراسات في علوم القرآن، لمحمد بكر إسماعيل (ت١٤٢٦هـ)، دار المنار، ط الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٣٧. دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٨. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تعليق د: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي(١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث، بيروت.

٤٠. زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي(٥٩٧هـ) المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثالثة ١٤٠٤هـ.

٤١. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشافعي(٩٤٢هـ)، تحقيق: إبراهيم الترزي، وعبد الكريم العزباوي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٤٢. سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني: المعروف بابن ماجة (٢٧٣هـ)، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، درا إحياء الكتب العربية.

٤٣. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة الثقافية، بيروت.

٤٤. السنن الكبرى، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي(٣٠٣هـ)، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان بندار، وسيد كروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى١٤١١هـ ١٩٩١م.

٤٥. شرح الكوكب المنير، لأبي البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار (ت ٩٧٢هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي - نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م.

٤٦. شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد بن محمد النُّوَيْري (ت٨٥٧هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، ط الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤٧. شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، طالأولى ١٤١٠هـ.

٤٨. صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي(٢٥٦هـ)، حققه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان، المنصورة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٤٩. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٠. صحيح مسلم بشرح النووي لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثانية ١٣٩٢هـ.

٥١. طبقات المفسرين، الحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى، تحقيق سليمان ابن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٥٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (٨٥٢هـ) تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٨٨م.

٥٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي ابن محمد الشوكاني ت(١٢٥٠)هـ، دار الفكر، بيروت.

٥٤. فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ت (٢٢٤)هـ، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط أولى ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٥٥. القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥٦. القراءات وأثرها في علوم العربية، لمحمد محمد محمد سالم محيسن (ت١٤٢٢هـ)، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ط الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

٥٧. كتاب السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي ت(٣٢٤) هـ، ط دار المعارف - مصر١٤٠٠هـ، ط: الثانية، تحقيق: شوقي ضيف.

٥٨. كتاب المصاحف، لأبي بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٣١٦هـ)، تحقيق: محمد بن عبده، الناشر الفاروق الحديثة - مصر، ط الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٩. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد ابن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط: الأولى - ١٩٩٦م.

٦٠. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل فى وجوه التأويل، لأبي القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى (٥٣٨هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت.

٦١. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ابن عمر الشيحي، المعروف بالخازن(ت ٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى، ١٤١٥ هـ.

٦٢. لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. بيروت-لبنان، دار صادر، ط الثالثة ١٤١٤ هـ.

٦٣. مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، دار القلم، ط الرابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٦٤. مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط الرابعة والعشرون كانون الثاني، يناير ٢٠٠٠م.

٦٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧هـ) دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربي، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧.

٦٦. مجموع فتاوى ابن تيمية، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي. دار الرحمة.

٦٧. محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمى، تعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٦٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبى محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٦هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط الأولى١٤١٣هـ١٩٩٣م.

٦٩. مختار الصحاح. لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: محمود خاطر، بيروت-لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٧٠. مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لأبي داود، سليمان بن نجاح بن أبي القاسم الأموي (ت٤٩٦هـ)، مجمع الملك فهد - المدينة المنورة سنة١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٧١. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٧٢. المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد فاروق النبهان، دار عالم القرآن - حلب، ط الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٧٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت١٤٠٣هـ)، مكتبه السنة - القاهرة، ط الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٧٤. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لشهاب الدين عبد الرحمن ابن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت٦٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، : دار صادر - بيروت١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٧٥. المستدرك على الصحيحين أبي عبد الله لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥)، ط دار الكتب العلمية، بيروت١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ط: الأولى تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٧٦. مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي (ت٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف - الرياض، ط الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

٧٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت (٧٧٠) هـ، ط: المكتبة العلمية - بيروت.

٧٨. معالم التنزيل في تفسير القرآن لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود ابن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط الأولى ١٤٢٠ هـ.

٧٩. المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، لأحمد عمر أبي شوفة، دار الكتب الوطنية - ليبيا، سنة٢٠٠٣م.

٨٠. المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة.

٨١. المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني (٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

٨٢. مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٨٣. مقدمة في أصول التفسير، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م.

٨٤. المقنع في رسم مصاحف الأمصار، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٨٥. مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبد العظيم الزرقاني، ط، دار الفكر- لبنان، ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٨٦. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

٨٧. الموسوعة القرآنية المتخصصة، لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، سنة١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

٨٨. موسوعة علوم القرآن، لعبد القادر محمد منصور، دار القلم العربى - حلب، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٨٩. موطأ الإمام مالك أبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى عالم المدينة شرفها الله ت(١٧٩)هـ، ط دار القلم، ط الثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٩٠. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، لمحمد بن عبد الله دراز (ت١٣٧٧هـ) قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع ، ط: طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٩١. النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري (ت٨٣٣ هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع (ت١٣٨٠هـ)، المطبعة التجارية الكبرى.

٩٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن برهان الدين إبراهيم ابن عمر البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) هـ، ط، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.

٩٣. نفحات من علوم القرآن، لمحمد أحمد محمد معبد (ت١٤٣٠هـ)، دار السلام - القاهرة، ط الثانية، : ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٩٤. نواسخ القرآن لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: أبو عبد الله العاملي السّلفي الداني بن منير آل زهوي، شركه أبناء شريف الأنصارى - بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٩٥. الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد محمد محمد سالم محيسن (ت١٤٢٢هـ)، دار الجيل - بيروت، ط الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م.

٩٦. الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيى الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية - دمشق، ط الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.



فهرس الموضوعات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي - الكرامة - شارع زعبيل - ص.ب: ٥٠١٠٦، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: ٣٩٦١٧٧٧ ٤ ٩٧١+، فاكس: ٣٩٦١٣١٤ ٤ ٩٧١+
الموقع الإلكتروني: www.islamic-college.ae